ميشيل زيفاكو

شهداء التعصب



شهداء التعصب

تأليف

ميشيل زيفاكو

وترجمة فقيد العلم والأدب المرحوم

نقولا رزق الله

صاحب مجلة الروايات الجديدة

(الطبعة الثالثة منقحة)

المكتبة الثقافية

بيروت - لبنان

ص. ب. ٨٧٢٢

إذا التعصبُ نادى القومِ واجتمعوا   يوماً وأيقظ فيهم نائمَ الفتنِ
أفنوا خيارهمُ قتلاً وتهلكةً   وصيروا الجهل فوق الدين والوطنِ

أشخاص الرواية

فرنسوا الثاني ، ملك فرنسا ، ولد في ١٥٤٤ ومات ١٥٦٠ •
(وهو بكر هنري الثاني وكاترين دي مدسيس)
فرنسوا ، دوق دي جيز ، اخو الكردينال دي لورين •
كردينال دي لورين ، وهو شارل دي جيز
لويس دي بوربون ، أمير كوندة ، وزعيم البروستانت
انطوان دي بوربون ، اخو امير كوندة
حنة دالبرت Jeanne d'Albert ملكة النافار زوجة انطوان دي بوربون وام هنري الرابع المولود في بو (Pau)
بارون دي باردليان ، من رجال الدوق دي جيز Guises
(جود فروا) لارنودي (La Renaudie) زعيم مؤامرة بروتستانتية قتل في سنة ١٥٦٠ •
لافيرة ، كاتب سر لارنودي •
ماري ستيوارت ، زوجة فرنسوا الثاني
كاترين دي مدسيس ، والدة فرنسوا الثاني
دوق دي مونموراتسي ، اكبر قواد فرنسا
نيكول بوصه ، صاحب فندق حملة السلاح

ديانا دي بواتيه Diane de Poitier ، دوقة فالنتينوا ، حبيبة هنري الثاني

أسقف بلدة شارتر Chartres

فيكونت شارتر

يعقوب لوم ، صاحب مكتبة في مدينة اورليان

مادلين ، ابنة يعقوب لوم ، بروتستانتية

برنار افنيل ، محام باريسي ، بروتستنتي

مرسلين ، زوجة برنار افنيل ، كاثوليكية

جاليو دي نرساك ، كان طالب في السربون

برنابا مرفزان ، معلم ومن اساتذة السربون

جان بلترو ، دي ميرة ، بروتستنتي

ترولوس دي مزغونه ، منقذ جاليو من باردليان

الآنسة دي ليمول

لنمال دوزي ، سكرتيرا لكردينال دي لورين

مسيو دي برسان ، حاكم سجن الباستيل

دي جنليس ، جاسوس الدوق دي جيز واخيه الكردينال على امير كونـــده Condé

بول دي رشيان

اللورد تروكمارتو ، سفير انكلترا

الاميرال دي شاتيليون ، كاثوليكي

دوق دي نافار ، حاكم بلدة امبواز المحصنة ، التي حصلت فيها مذبحة البروتستانت في ١٥٦٠ ، ثم معاهدة امان في ١٥٦٣ وهذه المذبحـة سابقة المجزرة سان برتلماو في ١٥٧٢ .

مدام بورتو ، زوجة الرئيس الاول لنيابة نانت

الفصل الأول

(فندق حملة السلاح)

كان فندق حملة السلاح الواقع بجوار مدينة نانت ، يملكه رجل يدعى « نيكول بوصه » يختلف باخلاقه عن سائر الرجال كما كان يختلف فندقه عن بقية الفنادق التي في مدينة نانت •

ونانت مدينة تبعد عن باريس ثلاثمائة كيلومتر الى الجنوب الغربي منها ، وقد يزيد سكانها عن مائة وخمسة وعشرين الفا •

وكانت في عهد هذه السيرة ، اي في سنة ١٥٦٠ ، مشهورة بزخارفها ، وتوفر اسباب التأنق فيها •

اما فندق « حملة السلاح » فهو بناء قديم ينتهي تاريخه الى القرن الرابع عشر • وهو سميك الجدران ضخم الابواب المغطاة بالمسامير الغليظة • وكانت نوافذه مشبكة بقضبان الحديد كنوافذ سجن او قلعة منيعة او حصن حصين •

وكان « نيكول بوصه » صاحب الفندق ، مفاخرا به معتزا ولا اعتزاز ملك الفرنساويين بقصر اللوفر •

وكان يقيم في الفنــدق قبله رجل دأبه المراباة اي اعطاء ماله بالرباء الفاحش ، يتعيش بفضل ديونه • ثم باع الفندق الى ماروك « بوصه » عم نيكول ، وكان يلقب نفسه كذبا بالقائد مع انه لم يلبس لباس الجند قط حتى مات عام ١٥٥١ •

فما عتم ان ابصر سكان تلك الناحية رجلا بادن الجسم طويل القامــة احمر الوجه والشعر ، زري اللباس ، تلوح عليه امــارات الخبث والشر والفقر المدقع ، لكن معه اوراق صحيحة تشهد بنسبه الى عمه ، وتثبــت حقه في وراثته • وكان هذا الرجل « نيكول » الذي لم تذرف عيناه دمعة واحدة على ضريح ذلك الفقيد الذي ترك له كل ما ملكت يداه من دنياه •

واراه الثرى ولم ينبس بكلمة تقوم مقام تأبين للميت او وداع للراحل، لكنه مضى الى بيته ، اي الى ذلك البيت الذي ورثه عن عمه الفقيد، فعمد الى مخزن المؤونة والقوت يتعهده بعناية لا مزيد عليها ، ويحقق النظر في محتوياته •

ووقعت يده على زجاجات عديدة ملأى بفاخر النبيذ وعتيق الخمر ، كاسية بالغبار لتقادم عهدها ، شاهدة بان الفقيد المنتقل الى رحمة ربه كان من اشد المخلصين في خدمة « باخوس » اله الخمر ورب المسكرات والسكر

فافتض « نيكــول » اختام بعض هاتيك الزجــاجات ، وذاقها مرارا وتكرارا ليعدل في الحكم لها او عليها ، ويبدي رأيا صالحا في جودتها او رداءتها ، فتمشت الخمر في مفاصله ، ودبت في عظامه واوصاله • ومما لا ريب فيه ان العم « ماروك » كان يفعل فعله ، لو اتيح له ان يحل محله ، او لا يموت قبله •

فقضى نيكول اياما ثمانية وهو شبعان ريان ، نؤوم ، ممتلىء البــدن لحما وشحما ، طيب العيش ، متناس هموم دنياه ومتاعب حياته • الا انــه بعد طول البحث وفرط التنقيب في كل مكان من ذلك الفندق لم يجد سوى

ريالات عشرة تسرب اليها الفناء بالانفاق وصارعها البلى ، فالاضمحلال رويدا ، رويدا ، وهكذا راحت سكرته وجاءت فكرته •

فكان اول ما فكر به هو ان يبيع البيت الموروث ، لكنه ما لبث ان ذكر مبيته فيما مضى تحت القبة الزرقاء ، فانفت نفسه عودا غير احمد الى ما كان فيه من الضنك والتشرد وسوء الحال ، فعقد نيته على حفظ الميراث والحرص على الفندق او البيت •

وبعد ذلك باسبوعين رفع فوق الباب عنوانا عليه هذه الكلمات : « فندق حملة السلاح » •

فلم يتهافت عليه احد من العملاء ولم يقبل اليه احد من القصاد ، اذ يستحيل ان يزهد المسافرون من التجار او المسافرات من الغيد الحسان في فنادق مدينة نانت وهي الفخيمة الانيقة الزاهية الزاهرة ، ويبادروا الى فندق « حملة السلاح » وموضعه من البلد اقصى ضواحيها على ضفاف نهر اللوار •

الا انه لم يطل الزمن حتى نشأت لذلك الفندق البعيد مكانة عند العاشقين ورجال الجندية • يؤمه الاولون هربا من اعين الرقباء والحساد••• ويقصده الاخرون لانه افضل مكان للمبارزات الخفية والمشاجرات •

ولم يكن عدد اولئك القصاد كثيرا ، الا انهم على قلتهم كانوا يدفعون الاجرة الكبيرة ولا يساومون • •

فلما كان مساء اليوم الثامن من شهر فبراير (شباط) سنة ١٥٦٠ ونيكول يتأهب لاغلاق ابواب فندقه ، متذمرا من سوء حاله وقلةتوفيقه، شاكيا حرمانه منذ اسبوعين ، طرق سمعه وقع حوافر جواد • وما لبث ان رأى فارسا طويل القامة قد وقف ببابه وصاح ، الا يوجد احد في هذا المكان ؟

فلم يجب نيكول بل بقي واقفا وراء الباب يحقق النظر الى القادم . وتلك كانت عادته ، اي انه لا يفتح الباب لاحد الا بعد ان يرقب حركاته وسكناته .

ولعله سر بذلك الفحص والتأمل لانه فتح الباب ورفع قبعته مسلما وقال للفارس : ارجو عفوا من مولاي ، وعذرا عن تأخري ، فقد كنت مشغولا عنه في بستاني ...

قال ، ويك خذ فرسي واعد لي عشاء .

قال ، هل يأكل مولاي ؟

اجاب ، نعم . ما توافيني به .

قال ، هل يقيم مولاي زمنا طويلا في مدينة نانت ؟

اجاب ، ذلك لا يعنيك .

قال ، عندنا في هذه النواحي آثار جميلة جليلة ...

قال ، صه يا مهذار واعتن بجوادي ! وتعال فالحق بي الى القاعة الكبرى ، فلي كلام معك .

وكان الرجل الغريب يتكلم بلهجة لا تدع مجالا للجدال . فاقتاد نيكول الجواد الى الاصطبل ولاحظه فاذا هو جواد كريم الاصل ، سرجه موشى بالذهب فقال في نفسه ، لاجرم ان الرجل سيد عظيم ... سيد عظيم أتى الى فندقي !!... اذن فله شأن سياسي او غرامي . ولكن مالي وهذا او ذاك ، اذ لا يهمني من امره الا ان يكون كيس نقوده ضخما !

ولما عاد الى فندقه قال للمسافر . أي حاجة لمولاي ؟

قال ، اعندك خادم في بيتك ؟

اجاب ، بل عندي اثنان ايها المولى .

قال ، هما شيخان او فتيان ؟

اجاب ، احدهما شيخ والاخر فتى .

قال ، اليك ريالا لكل منهما • فدع الشيخ يمضي ويشرب والفتى يعدو للقاء عشيقته ، فلست بحاجة الى احد سواك ههنا •

فصدع نيكول بامر الضيف ثم عاد اليه ، فوجده جالسا الى النار وقد اشرق منها الضوء على وجهه فبان كأنه في الاربعين من عمره ، حديدالبصر، طويل الشاربين ، اقنى الانف ، قوي البنيـــة ، الا ان امارات الكآبة بادية عليه • فلما رفع بصره الى نيكول وقفه هذا متهيبا وقال ، ان خادميّ قد ذهبا ، واقفلت الباب ، ولم يبق هنا احد الا انا وانت يا سيدي •

وبعد هنيهة قال الرجل المجهول ، أأنت من يدعى نيكول بوصة •

اجاب ، نعم ، انا نيكول بوصـه دون غيري من الناس ، انا هو بعينه ، صاحب فندق حملة السلاح ، وخادمك المطيع •

قال ، انت ابن اخي ماروك ؟

اجاب ، نعم كان ماروك عمي ، فواحسرتي عليه •

قال ، اما وقد تحققت ان اسمك نيكول ، فهلا علمت انك تستوجـــب الشنق ؟

فارتجفت ساقا نيكول وقال ، يا رباه انا استوجب الشنق ؟ ولماذا ؟

قال ، ألم يقتل هنا « المسيو دلاشستاي » في مبارزة منذ شهرين ؟

اجاب • لقد كانت والله مشاجرة لا مبارزة • مشاجرة صغـــيرة يـــا مولاي !

قال ، الا تأتي الى هنا « مدام بورتو » زوجة الرئيس الاول لنيابـــة نانت ؟ اجاب ، نعم • وتأتي ايضا سيدات كثيرات الى هنا •

قال : أليس هنا المكان الذي يستقبل فيه « اللورد تروكمارتو » سفير انكلترة جواسيـــه وارصاده ؟

فلم يحر نيكول جوابا الا انه تصاغر واستكان ، فقال الرجل الغريب ، لقد علمت يا مسيو نيكول انني مطلع على شؤونك • فلو انبأت بها نـــائب

الملك لتيسر لي ان اطوق عنقك واصفد يديك ، الا انني لست من اهل الشر ، فنم مطمئن القلب .. وانما تذكر في هذه الليلة عندما يمتد ستر الظلام ان فندقك هذا يكون لي انا دون سواي .

قال ، واذا اتاه مسافرون فماذا اصنع ؟

اجاب ، سوف يأتيه مسافرون فتأذن بدخول كل من علقت بقبضة حسامه شريطة سوداء من الحرير .

قال ، وماذا افعل اذا جاء غير هؤلاء .

اجاب ، تمتنع عن قبولهم وتقول لهم ان ليس في فندقك مكان خال لهم .

قال ، لن افارق بأبي ايها المولى .

قال ، والآن ارشدني الى غرفتي ، وهات لي عشائي .

فانزل نيكول الرجل الغريب في احسن غرفه ، وطلب اليه ان يلاحظ متانة الاقفال والنوافذ وسمك الجدران ، ثم هيأ له عشاء فاخرا ، واستأذن منه بعد ان اكد له خلاصه . وهنا لا يتوهم القارىء ان نيكول آوى الى مضجعه ، لانه مضى الى مطبخه وقعد يعاقر الراح ويأكل طعامه وهو يقول قاتل الله جوزيف اللعين ــ وجوزيف اسم الطباخ الذي يشتغل في مطبخه ــ فانه اهمل قدر الطعام حتى نضج اكثر مما ينبغي له .وهذا الضيف الذي نزل بي الليلة راغب في الانفراد منتظر بعض اصدقاء له يود الانفراد بهم والتحدث معهم فهو لا يمكن ان يكون من اصدقاء الملك . ثم ان هذا الشيطان يعرف عني اشياء .. يتهمني بوقوع حوادث قتل في فندقي،ولكن هل يكون الذنب في ذلك ذنبي انا ؟ أليس عنوان المحل فندق حملة السلاح، ورجال الحرب لا يكونون عادة من الملائكة المحبين للسلام ؟ ولا انكر ان قصة سفير انكلترة وجواسيسه قد تسوء « المسيو دي جيز » اذا اطلع عليها ؟ واخشى ان يحمله حب الانتقام على شنقي .

ونظر نيكول الى سقف مطبخه وقد علق فيه لحما مقددا بحبال ثخينة تهتز في الفضاء فقال ، اني افضل رؤية هذا اللحم المقدد يتأرجح فوق رأسي على ان اهتز انـا في اعلى مشنقة . ولسوف اطلب الى اللورد تروكمارتو سفير انكلترة عندما يأتي الى هنا ان يبتعد ، الا اذا كان كيسه منتفخا جدا ...

وما زال نيكول يسأل نفسه ويشاورها حتى انتهى به التأمل الى هذه النتيجة ، قال ، ان الضيف الذي نزل عندي يعرف اخباري كما اني اجهل اخباره ، فهو اقوى مني . فيجب عليّ ان استطلع شؤونه لاساويه في قوتـه .

وصعد الدرج مستمهلا حتى وقف امام باب غرفة الرجل ، عازما على معرفة ما يكون منه . وكانت ثقوب ابواب الغرف كلها واسعة . فابصره نيكول جالسا على كرسي من خشب السنديان يطالع كتابا مجلدا بقطيفة سوداء . وتمكن نيكول من ان يقرأ على القطيفة هاتين الكلمتين : التوراة المقدسة .

فلما انتهى الرجل من القراءة اخذ يتمشى في الغرفة . ثم حل الحبل عن هميانه وتناول منه شيئا عرف نيكول انه اطار (برواز) لتصويرة رجل ، فتفرس فيها فرآها مشابهة لضيفه ، الا ان المصور فيها اشقر الشعر وضيفه اسوده . فجعل الرجل التصويرة على خوان . وسمعه نيكول يقول واحسرتاه عليك يا جسبار ! ولكن قر عينا وانت في ضريحك ، فسوف انتقم لـك !

ونظر الرجل الغريب الى تلك التصويرة مليا ثم اخذ يتمشى في الغرفة وهو يظن نفسه منفردا فكان يتكلم بصوت مرتفع ويقول : لقد تجرأتما يا مسيو دي جيز ، ويا امير لورين على مهاجمة اشراف الفرنساويين ؟.. كان لي عديل احبه كما يحب الوالد ابنه ، وكنا تزوجنا شقيقتين ، ولا قرابة

بيننا غير تلك . الا اننا متشابهان خلقا كأننا اخوان : فلم تكتفيا بقتله بـل عذبه الملازم « ميشال فيلار » بأمركما ، فازهق روحه وهو يعانـي عذاب الاستنطاق . وقد آن وقتي يا فرنسوى دي جيز ... كنت اتردد في قبول ما يقدمه الي الامير ... اما الان فان البغضاء تحـول دون ترددي ، ولا ينقضي شهر واحد حتى اكون قد انتقمت لحبيبي جسبار ، وانقذت الملـك وفرنسا من هذه السلالة اللعينة ، سلالة جيز » ...

ولم يفهم صاحب الفندق معنى ذلك الكلام تماما ، الا انه ارتعـدت فرائصه لان ما سمعه دله على ان ضيفه عدو للدوق دي جيز . وما مـن احد في ذلك العهد الا وهو يرهب فرنسوي دوق دي جيز ، وزير الملـك الشاب ، بل المتسلط على فرنسا اكثر من الملـك فرنسوى الثاني ، ومـن امرأته ماري ستوارت ، او من والدته الملكة كاترين دي مدسيس . ولـم يكن من احد الا وهو يخشى سطوة ذلك الدوق الا اذا كان متصفا ببسالة نادرة .

اما فرنسوى الثاني ، وهو الذي جرت على عهده حوادث هذه السيرة، فهو بكر انجال الملك هنري الثاني وكاترين دي مدسيس ، ولد سنة ١٥٤٤ وتوفي سنة ١٥٦٠ ، وتزوج بماري ستوارت سنـة ١٥٥٨ ، وتبـوأ عرش فرنسا سنة ١٥٥٩ ، وجده « فرنسوى الاول » الوارد خبره في الروايـة الموسومة « بدار العجائب » وفي الرواية التالية المسماة باسمه .

الفصل الثاني

(المؤامرات)

لم يقع في اليوم التالي حادث من شأنه ان يؤثر في نيكول بوصفه صاحب فندق حملة السلاح . فان الرجل الغريب بقي في غرفته . وتناول الخادمان ريالين جديدين منه ، واسترسل نيكول في تأملاته .

لكنه لما امسى المساء اخذ يتمشى امام فندقه فابصر رجلين غريبين على غمدي سيفيهما شريطة سوداء من حرير فاستقبلهما وقال ، نزل امس عندي ضيف لا شك في انه من اصدقائكما .

فقالا معا : هل اتى ؟

اجاب نعم ... وهو رجل غريب الخلق ، اذ قدمت اليه اجود خمرة عندي فلم ينطق بكلمة شكر ...

واذا بقائل يقول . اذهب يا نيكول الى نهر اللوار وانظر اذا كان قد تحول عن مجراه ثم عد فاخبرني .

فانثنى نيكول فابصر الرجل الغريب وقال ان نهر اللوار لا يتحول عن مجراه . واذا تركت الفندق فمن يستقبل صديقيك ؟

فاجابه ، انا استقبلهما .

فادرك نيكول ان لا فائدة من الجدال . وقصد الى البرية وهو يلعن سوء خلق الرجل الغريب ، فقد طرده وقتما كان يأمل ان يسمع اشياء مهمة. وهو يحب سماع مثل تلك الاشياء حبا جما . ولا يعد استطلاعه فضولا بل رغبة في الوقوف على احوال بلاده . وهو اوضع منزلة من ان يعد نفسه من أهل السياسة والمؤامرات والتحزب على الحكومة والاحكام ، الا انه يحب المتحزبين والمتآمرين كما يميل اخرون الى الموسيقى . وطالما دارت المفاوضات السرية في فندقه وشهدها او سمعها بفضل شقوق الابواب وحدة اذنيه .

كانت المنافسة والمقاتلة دائرة رحاها في ذلك الزمن بين طائفتين هما الكاثوليك والبروتستانت . ونيكول لم يكن ينتمي الى طائفة منهما الا حسبما تقضي احوال الجمعيات . وبين كبار الناس . ومن كان مثله فهو لا يلام على تذبذبه . وفيما كان يبتعد عن الفندق سمع احد الرجلين يقول للرجل الذي جاء اولا ، انحن هنا في موضع أمن ؟

فاجابه . نعم ، لان صاحب الفندق مغفل يخشى المشنقة اذا اخبر بوجودنا هنا ، فلا خوف من هذا القبيل . اما العسس فلا يتجرأون على الخروج من مدينة نانت ، واذا افلح اصدقاؤنا في الخروج منها دون ان يبصرهم احد امكننا التفاوض ونحن مطمئنون ...

وقال احدهم ، اني ارجو ذلك يا مولاي ، ولكن ...

قال ، تكلم ! اي شيء تخافه يا « لافين » ؟

قال ، اخشى ان يكون بين الحضور احد الخائنين .

قال ، ما هذا الكلام !

اجاب ، لسوء الحظ اننا لسنا جميعا بروتستانتيين ، لان بعض المعاهدين كاثوليكيون ، وهم لم يدخلوا المؤامرات الا لشدة كرههم للدوق دي جيز .

قال : ان كرههم للدوق دي جيز خير ضامن لامانتهم ، ووفائهم لنا ...

وكان المتكلم بهذا الكلام رجلا قصير القامة ، اسمر اللون ، مظلم الوجه ، لامع البصر .

وتكلم الرجل الذي دعاه « لافين » بمولاي ، قال : اني واثق من كرهك للدوق دي جيز ولذلك ضربت صفحا عما فرط منك في الماضي مما لا يليق برجل شريف ان يفعله يا « بلترو ... »

فقال المدعو بلترو بلهجة كآبة : انت ناكر الجميل يا مولاي لارنودي، بل انت شبيه بسائر الناس في ذلك . فهل اذكرك بما جرى لك في حصار متس يوم كدت تقتل لولاي ؟ وهل تلومني لانني قمت بالواجب المفروض علي اذ تجسست اخبار الاعداء لمصلحة الملك ؟..

فاجابه لارنودي بعظمة ، قال : لم انس شيئا ، ولكن اذا شئت مني نسيان جاسوسيتك الماضية فسر منذ اليوم سيرة جندي لا جاسوس . والان فلنذهب لملاقاة اصدقائنا .

وبعد هنيهة اقبل اخرون الى الفندق فادخلهم لافين ، وكانوا يتجهون الى لارنودي ويتلفظون بهاتين الكلمتين وهما (مع الملك) فيجيبهم لارنودي بقوله (على امراء لورين) حتى بلغ عدد القادمين ستة عشر ، كل منهم ينوب عن ولاية من ولايات فرنسا . فلما تم عددهم جميعا امر لارنودي ان يتكلم اصغر الحضور سنا . فنهض احدهم وقال ، اظنني اصغركم سنا، فانا اطلب اقامة العدل بالنيابة عن طائفة الكفلينيين ، واسمي بولدي رشيان من اشراف موفان .

فظهر الاستحسان على الحضور . وقال لارنودي مع معرفته للرجل : ما هي شكواك ؟

اجاب ، كان لي اخ فرنساوي من كرام الفرنساويين وشرفائهم ، قتله

الكردينال دي لورين اذ سلط عليه ثلاثة الاف غلام . وقد مزق بدن اخي وسحبت احشاؤه على ارض الشوارع ، وطرح فؤاده للكلاب ، وضرب الجمهور تلك الحيوانات التي ابت اكله . فانا اطلب موت الكردينال دي لورين !

قال ، كم جندي لديك ؟

أجاب ، عندي ألفا رجل كلهم متأهب لسحق الكاثوليكيين المقيمين في بروفانس يوم اعلان الثورة والانقلاب .

ونهض بعد بول دي رشيان هذا شريف آخر اسمه مونبرون ، فـآخر اسمه ماليني ، فشرحا حالة الشاكين في البلاد وفي مدينة ليون ، ووعد كـل منهما بأن يقدم خمسمائة مقاتل او الفا . ثم اخذ كل موفد من كل ولايـة يتكلم عن حالة الشعب مفصلا اسباب البغضاء التي يضمرها للـدوق دي جيز البروتستانتيون والكاثوليكيون من اهل ولايته .

ثم نهض لارنودي وقال ، مهما يكن من تباين اسباب كرهكم فانتـم جميعا اعداء للدوق دي جيز ؟

فأجابوه جميعا بقولهم ، نعم !

قال ، ان آل جيز قد استخدموا نفوذهم الاول على الملك المتوفيهنري الثاني . ليزوج ابنة اخيهم ماري ملكة ايكوسيا ، بالملك فرنسوا الثاني . وهم بفضل رابطة هذا النسب قد احاطوا بالملك وصاروا حاكمين باسمه .

فقال الحضور ، هذا صحيح !

قال لارنودي ايضا : ثم ان الكردينال دي لورين قبض على مـالية البلاد ، ثم اخذت رئاسة الجيش من « الدوق دي مونموراني » وسلمت الى الدوق دي جيز ، واضطر ملك النافار الى الابتعاد عن البلاط، واصبح الخطر محيقا بأمير دي كوندة ، واستفحل اضطهاد البروتستانتيين ، حتى باتوا لا يأمنون على ارواحهم اذا سمعوا العظات الدينية . وحـدث فـي

العام الماضي ان عضوا من النواب ، هو مستشار « بورج » قد صدر عليه حكم بالموت لا لسبب ، غير امياله المذهبية ، فقامت اوروبا واحتجت على الحكم ، الا ان ذلك المستشار اعدم . وها قد صودرت امـلاك المصلحين ويبعث بنصف ثمنها الى الوشاة والجواسيـس . ولا ينقضي زمن قصير حتى تنتشر احكام النفي في جميع فرنسا ، فاذا لم نصد تيار البغي الذي يهددنا الان ...

فنهض « بلترو » وقطع كلام الخطيب قائلا ، ذلك بغيا وانما هو ملكية جديدة تتهيأ اسبابها ! فانتم لا تعرفون « فرنسوى دي جيز » حق المعرفة . ان الفرنساويين كيفما كانت اميالهم المذهبية يجلون الملك ويحترمونه غـير مكترثين لضعفه وصغر سنه . اما آل « جيز » فليسوا بفرنساويين،وليست فرنسا في نظرهم الا بلدا قد افتتحوها ، وما الملك بين ايديهم الا العوبـة يلعبون بها . اما اذا انقلبت هذه الالعوبة الى آلة تحول دون مطامعهم فهم يلاشونها ويصيرونها عدما ...

وفيما كان بلترو يتكلم ، زال ما كان قد خامر نفوس السامعـين مـن ريب ، وكانت عينا بلترو تلمعان وكأنه ينطق عن وحي والهام . وتسولى الحضور ارتياع حقيقي عندما شهر بلترو خنجره وقال ، لنقسم جميعا على قتل الدوق دي جيز اذا التقى أيّنا به !!

فاجابه الحضور ، اننا نقسم .

فقال لارنودي اذ ذاك ، وقد ارتاح الى ما سمع من بلترو الجـاسوس القديـم :

اعلمـوا ايها السادة ان الخطر جسيم ، ولا بـد لنا من تلافيه قبـل استفحاله .

وقال بول دي رشيان ، من نصيرنا في البلاط ؟

فاجابه لارنودي : نصيرنا رجل عظيم يساوي الدوق دي جيز رفعـة

شأن • امير لا استطيع ذكر اسمه ؛ ولكنكم تعرفونه جميعاً •

قال ؛ لعله ملك النافار ؟

فاجاب لارنودي ، ليس لملك النافار ارادة •

قال ؛ ان زوجته ذات ارادة كافية •

اجاب ، نعم ان زوجته « حنة دالبر » امرأة نبيلة وانما تحتاج اعمالنا الى زعيم قدير غير بعيد عن عرش فرنسا •

قال ، اذن فمن الزعيم ؟

اجاب ، قلت لكم انني لا استطيع ان اسميه ، غير ان اسمه على كل الشفاه •

فتلفظ الحضور باسم « امير كوندة » بصوت منخفض •

فقال لارنودي ، لقد بعث الي ذلك الزعيم الذي اشرت اليه بالايضاحات اللازمة مع « المسيو دي ميرة » فهو يروم ان تكون ظواهر اعمالنا موسومة بالصدق • والبلاط الان في نواحي بلوا • اما جنودنا فلا بد من اجتماعهم في طوران في اوائل شهر مارس واذ ذاك نهاجم البلاط ، ونقدم الى الملك عرضا ، نسأله فيه طرد الدوق دي جيز واخيه الكردينال دي لورين، فيابى آل جيز السفر ، ويومئذ نقبض عليهم وننقذ الملك وزوجته ووالدته من أسر هذه الاسرة •

ولو تمكن لارنودي عندئذ من ان يخترق ببصره ظلام الليل لابصر رأس « نيكول بوصه » مطلا من كوة للفندق • فانه ذهب الى ضفاف اللوار كما امر ، ليتحقق ان ذلك النهر لم يتحول عن مجراه ، ثم رجع الى فندقه فدخله من باب سري محجوب بالادغال في بستانه حتى وصل الى سنديانة وراء مطبخه ، فتسلقها وقعد على احد اغصانها الضخمة فسمع كل ما قيل في ذلك المجتمع ، وشهد تلك المؤامرة التي كانت اساسا للحرب المدنية التي قامت في القرن السادس عشر ، وامتزجت فيها السياسة بالدين•

وشعر نيكول بفؤاده يخفق شديدا من حنقه على الدوق دي جيز بعدما سمع ما سمعه لتدبير تلك المؤامرة التي لو كانت لاشياع الدوق دي جيز لتشيع اللارنودي والبروتستانتيين ، لكنه استرسل وقتئذ في امياله الطبيعية وجعل يسأل نفسه ، كيف يستطيع صبرا مدة شهر حتى يرى النتيجة .

وكان لارنودي قد شهر سيفه وصاح بالحضور ، بغيتنا الانتقام ! فليمت آل جيز ! فليمت الغرباء !

وجعل الحضور يصرخون « ليمت فرنسوا دي جيز ! فليمت الكردينال دي لورين » !

وقال لارنودي ، احضروا جميعكم بعد شهر الى طوران .

فاجابوه على الفور ، سنكون فيها .

ثم قال ، بعد شهر تأتي ساعة الانتقام !...

واذ ذاك رأى نيكول المتآمرين يرحلون عن الفندق بحذر ، فركب بعضهم الافراس ، وسار بعضهم مشيا على الاقدام الى شمال مدينة نانت . ثم لم يبق في الفندق الا لارنودي وبلترو ولافين . ففكر نيكول وقتئذ في الظهور لهم بعد احتجابه . فنزل عن السنديانة ولقي اضيافه فقال لهم بلهجة السذاجة : لقد تحققت ايها السادة ان نهر اللوار لا يزال ...

فقال له لارنودي ، اذهب واعد جوادي للرحيل ، لاني مسافر بعد ساعة ...

واحضر نيكول الجواد ، ثم صعد فانبأ ضيفه بانه صدع بأمره. وخرج الثلاثة من الفندق بعد ان ربط لارنودي حقيبته بعنق الجواد وقال لبلترو ، أتسافر الى باريس ؟

اجاب ، كلا ، وانما الى اورليان .

قال ، هل اخبرك الامير عن المكان الذي ينتظرني فيه ؟

اجاب : ان الامير يكون في باريس بعد خمسة عشر يوما عند باب « القديس انطوان » ساعة الغسق .

فاطرق لارنودي هنيهة ثم قال : لقد أسأت استقبالك في هذا المساء يا مسيو بلترو ، ولم اكن اعرفك بعد ، فاطلب منك صفحا ، وهات يدك ! قال : اليك يدي ! .. قال : لا بد من أسباب خطيرة تحملك على كره الدوق دي جيز .

اجاب : انه عدو بلادي ومذهبي الديني فانا لذلك اكرهه .

قال : اما من سبب شخصي يحملك على كرهه ؟

اجاب : لا .

قال : وما رأيك فيما لو كان الدوق دي جيز سببا في مقتل واحد من اقربائك او امرأة حبيبة اليك ؟

اجاب : اذن لكنت اقسم على انه لا ينجو من يدي .

قال : اصغ اليّ يا مسيو بلترو . اني اجهل ما خبأته لي الاقدار ، ولكن اذا فاجأني الموت فهل تنتقم لي كما لو كنت قريبك ، وهل تقسم لي على ذلك ؟

فنظر بلترو الى لارنودي مليا ثم اجابه : اقسم لك : لانك اول شريف من البلاط رضي بان يرى اني غير جاسوس .

ثم افترق الثلاثة فسلك بلترو طريق انجر وسار لارنودي مع لافين ، وكان هذا كاتم سره ، في طريق مانس بعد ان القى الى نيكول بكيس مملوء ذهبا وقال له : اذا حدثت احدا بما رأيت الليلة فاذكر كلامي انني اكون وسيلة الى شنقك .

فاجابه نيكول بانه من اهل الكتمان ، واخذ يعد الدنانير ويدسها في جيبه . وقبل ان ينام في تلك الليلة طفق يحدث نفسه ويقول : لاجرم ان النار ستضطرم في باريس ، وما اخال الدوق دي جيز المسكين الا مشرفا

على العطب ، لان هـؤلاء المتآمرين اشراف قادرون ورجال لا يشربـون خمرا ، ومع ذلك فقد دفعوا الي ذهبا كثيرا أجرة ليلة صرفوها في فندقـي وجميعهم ميممون باريس مقيمون فيها ...

وهنا توقف نيكول لحظة وكأنما خطر له خاطر مفاجيء فقال : لـو ان عمي ماروك ترك لي بيتا في باريس بدلا من هذا الفندق الحقير الذي غادره في تانت ، اذن لكنت ...

الا انه لم يتم جملته بل قال ، ماذا الذي يمنعني من الرحيل الى باريس؟ ابيع فندقي هذا واسافر اليها .

الفصل الثالث

(مكتبة لوم)

كان « مخزن يعقوب لوم » عبارة عن مكتبة كبيرة عامرة بالمؤلفات الشعرية والفلسفية والادبية ، يتردد اليها رجال البلاط فيطلبون منها مؤلفات كليمان ماروت ورونزار في الموسيقى ، ومؤلفات رابليه واتيان دولي في الفلسفة . وغيرها من الكتب التي كانت متداولة في ذلك العهد . والمكتبة ليست بعيدة عن الكنيسة الكبرى ، لها باب فخم ، وقد نضدت في احدى شرفاتها الكتب النفيسة تنضيدا محكما يرى منه المارة اسماءها على جلودها .

ومن حسن حظ يعقوب هذا ان كاترين دي مدسيس ، الملكة الوالدة، كانت تحب الشعر والشعراء ، وان بلاط الملك كان حافلا بالادباء ، ولذلك أثرى يعقوب وجمع مالا كثيرا ، وكان رجال البلاط يعاملونه غير معاملة التجار لانه من اهل العلم ، ويكرمونه اكرامهم لكل شاعر وكاتب في ذلك الزمن . وصدق فيهم قول من قال ، ان الناس على دين ملوكهم .

الا ان السنة الاشرار تناولت الكتبي المسكين ، فزعموا ان لجمال ابنته مادلين يدا في ثروته . وقال احد الوعاظ ، ان يعقوب لوم انما اغتنى لانه الكتبي الوحيد الذي رضي بان يبيع نسخا من التوراة لاهل المذهب

البروتستانتي . ومما لا ريب فيه ان حانوت يعقوب كان حاويا كتبا كثيرة، وان ابنته كانت كذلك ذات حسن باهر .

وبعد انقضاء ثلاثة ايام على الحوادث التي جرت في فندق حماة السلاح كان يعقوب لوم جالسا الى مكتبه ينظر في مسودات طبعة جديدة لديوان الشاعر بونسار (المتوفي سنة ١٥٨٥) فسمع وقع حوافر جواد ، فرفع رأسه وابصر مسافرا يترجل عن فرسه امام باب الحانوت ويقول له : حياك الله يالوم !

فصاح يعقوب لوم طربا : اهلا وسهلا بك يا بلترو !

وبلترو هذا من الذين كانوا في فندق حملة السلاح ، كما مر بك .

وتصافح الرجلان ، ولبثا صامتين وكل منهما لذ له التأمل في وجه صديقه . وكان بلترو يحب يعقوب لوم ، وقد اقتنى قبلا من مكتبته تلك الكتب التي تبحث في احوال مذهبه الجديد . وكان يعرف في يعقوب اخلاصا للمذهب البروتستانتي ، وانه لا يذهب لحضور الصلاة عند الكاثوليك الا ليستميل اليه ابناء المذهب الكاثوليكي . وقد رآه ينصت الى وعظ البروتستانتيين ، ويبدي غيرة حقيقية شهد له بها اهل مذهبهم . وفضلا عن ذلك فان جان بلترو هذا كان يحمر وجهه كلما نظرت اليه مادلين لوم بعينيها الزرقاوين . فهو لا يمر باورليان الا وينزل ضيفا على الكتبي . وطالما جاءه يكتب من تخوم البلاد الفرنساوية عملا بأمر امير كوندة او دي كوليني ، وهي كتب كلها طعن على الدوق دي جيز . وبعد ان طال الصمت قال يعقوب لوم : هل حدث كل ما كنا نأمل ؟

فاجابه : نعم .

— اي موعد موعدكم ؟

— اوائل شهر مارس (اذار) .

ـ من تسلم القيادة ؟
ـ لارنودي •
ـ هل كان الامير في جملة الحضور ؟
ـ كأنه كان ، ولكنه لم يظهر للناس •
ـ ماذا يكون اذا تم النجاح ؟
ـ سيتم النجاح بلا شك •
ـ وماذا يفعلون بآل جيز ؟
ـ وهل من وسيلة غير قتلهم ؟
ـ ان قتل انسان امر فظيع •
ـ نعم الا اذا كان عدوا مضرا •
ـ سوف يثور الشعب في باريس •
ـ لذلك يجب اخبار الشعب واثارته على آل جيز •
ـ ذلك امر عسير •
ـ لا ينبغي ان توجد صعوبات عندما يراد تعضيد الديانة الحقيقية على ان الامير يثق بك ويعتمد عليك •
ـ فماذا افعل !
ـ عليك ان تطبع من هذا الكتاب بضعة الاف نسخة • واخرج من صدرته كتابا مخطوطا وسلمه الى يعقوب فقرأ في اوله هذه الكلمة «النمر» •
فقال ، يوجد نمران لا نمر واحد ، وكل منهما سفاح فتاك ، لانني اظن المراد بكلمة النمر اسرة لورين ؟••
اجاب ، نعم •
ونظر نظرة في الكتاب وقال ، أأنت واضعه ؟
اجاب ، نعم انا وضعته بامر الامير •
قال ، اذن سوف انشره •
فاجابه بلترو ، اشكرك بالنيابة عن ديانتنا المقدسة •

واذ ذاك فتح باب في داخل الحانوت وظهرت فتاة اقبلت على ابيهـا يعقوب فقبلته ثم التفتت الى بلترو فحيته دون ان ترفع بصرها اليه. فحياها بقوله : سلام على مادلين البديعة الجمال !

فقالت : انت يادي ميرة لا تفتأ تملق وتطرى .

اجاب : كلا ايتها الآنسة ، وانت تعلمين ان يوما اراك فيه لهو عنـدي من ايام السعادة .

وكأن مادلين لم تسمع كلماته ، ولا ندري هل ساءتها تلك المباسطة ام كانت تود ان تسمع مثلها من غير ذلـك الرجل . وكانت مادلين معتدلـة القامة ، نجلاء العينين ، لابسة ثوبا ابيض يظهر اندماج اعضائهـا وحسن تركيب بدنها الغض . وكانت جميلة المنظر لطيفة الحركة ، ما رآها بلترو مرة الا ظل كالابكم امامها غير متجرىء على مطارحتها الحب خوفا من ان يلقى صدا ونفورا فيفقد آماله واوهامه السارة .

وصرف بلترو نهاره وقد طابت له فيه محادثة يعقوب لوم عند خلـو الحانوت من العملاء كما لذ له النظر الى مادلين عندما تكون امامه . فلمـا كان المساء قال الرجل لضيفه ، وقد جلسا الى المائدة ، لقد طالعت كتابك . قال ما رأيك فيه ؟ اجاب : انه مهيّج مثير . فقال ذلك خـير وابقى ، لان النتيجة تكون كبيرة .

وسمعت مادلين هذا الكلام فقالت : رحماك يا ابت ، انك في غنى عن نشر هجاء يسوقك الى مواقف الخطر .

فاجاب : ان الدفاع عن مذهبنا يقضي علينا بركوب المخاطر .

قالت : لا انكر ذلك ، ولكنك تقدم اكثر مـن سواك . فمـا هـذا الكتاب ، ومن المقصود به ؟

اجاب : انه الدوق دي جيز .

قالت ، بحقك يا ابي لا تطبعه لان الدوق دي جيز ذو بطش وسلطة ، ولا يمكن ان ينجم عما تفعله الا الضرر الذي سيقع علينا .

فارتعد بلترو وقال ، ما كنت احسب ان ابنة يعقوب لوم تتشيع للدوق دي جيز .

اجابت ، مهلا يا مسيو بلترو ولا تتسرع في الحكم ، فانني لا اتشيع للدوق دي جيز ، ولم اره قط ، ولا احبه ، ولا احتقره ، وانما غرضي ان ادفع عن والدي خطرا محيقا به . ونفسي تحدثني ان في هذا الكتاب المهيج ضررا كبيرا يلحق به .

فقال يعقوب ، اطمئني يا بنية فلن يدري احد بان هذا الكتاب صدر من عندي . ومتى تم طبعه اسلمه الى المسيو بلترو ، فيأخذه ولا يبقى عندي منه الا نسختان اخفيهما عن كل انسان .

فصمتت الفتاة ، وتناولوا العشاء وهم سكوت . فلما كان الليل استأذن بلترو من يعقوب وابنته وركب جواده بعدما رنا الى مادلين رنو عاشق ، ثم اتجه الى باب المدينة ليسافر الى باريس . فقال له يعقوب ، متى تعود الينا؟

اجاب ، ليلة مباشرة المشروع .

وسمعت مادلين هذا الجواب . فلما رجعت الى الحانوت قالت لابيها، عن اي مشروع تكلم المسيو بلترو ؟

اجاب ، عن امر ليس بذي بال . عن كتيبة يجمعها ويعدها للنضال .

قالت ، حذار يا ابت فاننا قوم صغار ، واراك تتعرض لامور هي من شأن رجال بلاط الملك فانك سيد عظيم . فانت تطبع كتب القوم وتبيعها ، مع ان كل ما تمتلكه من مال انما جاء من كتابات الكاثوليكيين لا من تلك الكتب البروتستانتية .

اجاب ، اصبت يا بنية ، ولا انكر ان ثروتي جاءت من نشر الكتب الكاثوليكية ، غير انها مصدر متاجرة ، ولكن لا يحق لي ان اعرض عن

اعتقادي الحديث . ولئن وجب عليّ ان اقضي في سبيل الانتصار له ، او افقد ثروتي ومكتبتي فاني مستعد . فلم تحر مادلين جوابا لانها هي نفسها كانت متعصبة للمذهب البروتستانتي .

ثم ان يعقوب لوم اشتغل قليلا في مكتبته ، ثم صعد مع ابنته الى الطبقة العليا من البيت وفيها غرفهما . وبعد هنيهة اطفىء نور المصابيح ، وساد السكون التام على المنزل .

★ ★ ★

اما جان بلترو فمضى يسير راكبا غير مسرع . وفيما هو خارج من مدينة اورليان ليسلك طريق باريس ابصر فارسين قد وصلا الى باب المدينة وطلبا الدخول ، فقال لهما الحارس ، ان الدخول ممنوع الا بجواز .

فاستاء احد الفارسين ، وقال لقد تأخرنا .

فاجابه رفيقه ، مهلا يا مولاي فالامر يسير ، وما علينا الا ان استأذن من ضابط الحراس بالمرور .

ـ لست اود ان يدري احد بوصولي الى مدينة اورليان .

ـ ولكن ما من وسيلة لنا يا مولاي غير هذه الوسيلة . وما اخالك تود ان تقضي ليلتك تحت السماء .

ـ افعل يا جيلو ما تراه مناسبا ، وانما استوثق من الضابط بالكتمان .

ولم يسمع بلترو محادثة الرجلين ، لكنه ادرك مرادهما . ودهش لما رأى الضابط يخرج من مكتبه مبادرا الى خدمة الرجل ، آمرا الحارس بفتح الباب .

فقال في نفسه ، يا للعجب من فارسين يأتيان الى اورليان ليلا وتفتح لهما ابوابها بغير جواز وبمجرد ان يعرفهما الضابط المتولي الحراسة .

واطرق بلترو يفكر . فلما مر الفارسان به عاد فلحق بهما . وسار الفارسان في الطريق الذي سار فيه قبلا عندما فارق بيت الكتبي ، فقال في نفسه ، اراهما ذاهبين الى الشارع الذي كنت فيه . ولا ريب عندي في ان هذين الفارسين من رجال البلاط . ويشبه احدهما ... ولكن لا !! فذلك غير ممكن . فانه لا يرحل عن بلوا ، ولا بد للملك من وجوده هنالك ...

واذا به قد اضطرب لان الفارسين وقفا بباب مخزن الكتبي يعقوب لوم ، فترجل اكبرهما عن جواده وساق رفيقه الجوادين الى زقاق قريب . وكذلك ترجل بلترو وربط جواده عند عطفة شارع ، وتمشى ملاصقا جدران البيوت حتى دنا من حانوت الكتبي فاختبأ عند باب هنالك وانتظر .

واحس بحركة خفيفة كأنها اشارة ، ثم اضاء نور على شرفة نافذة مادلين لوم ، وسقط سلم من حبال الى الشارع ، فقبض الرجل على السلم ووثب الى غرفة الفتاة مسرعا ، الا ان ضياء المصباح انار وجهه فعرفه بلترو ، فجعل يده على الجدار كي لا يسقط مغمى عليه ، ثم قال بصوت خافت : يا للداهية هذا فرنسوى دي جيز !

وثار الدم في وجه بلترو فجرد سيفه وركض الى البيت فتعلق بالسلم حتى وصل الى الشرفة وهم بدخول الغرفة ايضا واذا بالدوق قد خرج منها وقتئذ وضربه ضربة شديدة على رأسه ثم طرحه الى الشارع .

الفصل الرابع

(احد ابطال هذه السيرة)

كان « برنارفنيل » محاميا بارعا مقيما في باريس في بيت انيق . وقد ترك له والده اطيانا ومالا ، فزاد برنار المال والاطيان بجده واجتهاده.وكان من اهل الجد والاقدام ، متزوجا من امرأة فتانة المحاسن اسمها مرسلين الا انها كانت طائشة تحب الملذات والمسرات .

وكـان برنار قد ناهز الخمسين من عمره ، اما زوجته فكـانت دون العشرين سنا ، ولا ندري كيف رضي بالاقتران بها ، او رضيت هي بالاقتران به ، غير مراعيان ما بينهما من تفاوت في السن والخلق ، الا انه كان يهواها. وان لم تكن تهواه فلم يمنعها ذلك من تدبير شئون منزله كما يجب ...

وعلاوة على كل اختـلاف بينهمـا كانت هي كاثوليكيـة ، وهـو بروتستانتيا . وهذا الخلاف كان خطير الشأن في ذلك الزمن (وللاسف ما زال كذلك للان) .

ولبثت مرسلين عدة شهور تتضجر من الذهاب وحدها الى الكنيسةالى ان كان احد الايام اذ ابصرت فيالكنيسة شابا منالاشراف حسن المنظر يرنو اليها باسما ويقدم اليها الماء المقدس ، فقالت في نفسها : خير لي ان لا يكون زوجي معي . وكانت قد تلقت تربية حسنة ، فما لبثت ان تناست ذلـك

الشاب ولم تفكر فيه ، حاسبة ان الاشراف لم يخلقوا لمن كانت مثلها لانهم يميلون الى السلوان والنسيان ولا يعرضون عن سيدات البلاط الا حبا في التنقل او ضجرا منهن ، ثم لا يلبثون الا وقتا قصيرا حتى يرجعوا اليهن . فقالت في نفسها ، لئن قدر علي ان اتزوج ممن لا احبه فاني استطيع ان اختار لي حبيبا لا يجب ان يكون من طبقة الاشراف ...!

وفي ذات يوم ذهبت لتحضر صلاة العصر في يوم عيد ، ولما انتهت الصلاة همت بالانصراف لكي لا تدع زوجها ينتظرها طويلا ، وعندما اوشكت ان تطبق كتابها الصغير رأت ورقة زرقاء قد سقطت عليه ، وعليها شريط ذهبي وكلمات قليلة علمت انها من محب عاشق يطلب ودها .

فقالت في نفسها من يكون هذا الوقح الذي تجرأ على ان يكتب الي ؟ ولم تشأ ان تقرأ تلك الرسالة الغرامية لكنها ما لبثت ان قالت ، لا بد من معرفة ذلك المجرم لاعاقبه على اجترائه . ثم قرأت ما فيها واليك نصها :

« أيتها السيدة النبيلة .

« على مقربة منك ، في موضع خاف عليك ، انسان يرقب نظرة من نظراتك » .

فقالت لا شك انه غبي من اهل بلاط الملك ، ونهضت لتخرج من الكنيسة . فلما وقفت قرب جرن الماء المقدس اصفر وجهها ولم تجسر على التقدم لانها ابصرت فتى واقفا امامها باسطا اليها يده بذلك الماء ، فقالت في نفسها : انه لصاحب الرسالة التي قرأتها .

على ان ذلك الشاب لم يكن من اشراف حاشية الملك وانما هو طالب يتلقى العلم في كلية سوربون ، واسمه « جاليو دي نرسالك » . وكان طويل القامة ، هزيل الجسم ، صغير الرأس ، ازرق العينين ، اشقر الشعر ، وكأنه فتاة بحسن وجهه . وكان رفاقه في المدرسة يدعونه « الوجه الصبيح » وقد درس اللغتين اليونانية واللاتينية . وكانت اسرته تنوي الباسه طيلسان

الراهب ، او ثوبب الحاكم ، لان اباه مات في حصار « متس » وكان له اخوان قتلا في المبارزة . وكان اخوه الاكبر مقيما مع والدته في الريف يخاصم جيرانه ، فرأت الوالدة المسكينة ان تجنب ولدها الباقي لها حمل السلاح لانه اصغر بنيها واحبهم اليها ، فاشفقت عليه ان يصيبه ما اصاب اخويه من قبل . فعهدت بتربيته الى الاستاذ « برنابا مرفزان » من اساتذة كلية السوربون . وكان رجلا عالما الا انه سكير يحب اللهو والطرب . فلزمه « جاليو دي نرساك » وكان في بدء امره تلميذا مجتهدا ، غير ان مدة اجتهاده لم تطل اكثر من ثلاثة شهور . واحب جاليو دروس التاريخ وكره سائر العلوم . وكان في اكثر الاوقات يناوىء العسس ويعاكسهم ، ويبادر الى سماع الوعظ عندما يعلم ان هنالك فتيات حسانا من البروتستانتيات . ويزاول لعب الحكم بالسيف (المثاقفة) . وكان استاذه برنابا يغض الطرف عنه ، وفي بعض الاحيان يشاركه في مسراته ، الا اذا تهور فيهما تهورا كبيرا .

ولما رأى جاليو « مرسلين » شغف بها ، فهجر دروسه ولذاته وعكف على تتبعها ومراقبتها دون ان تشعر به . فمنذ ذلك اليوم صارت تراه في طريقها . وكان لطيفا رقيقا ، شديد الاحترام والحياء حتى عطفت عليه وجرأته على الاقتراب منها ، فأقسم لها يمين الوفاء حتى جعلها تحنث باليمين التي اقسمتها لزوجها ...

وكان يحدث في ذلك العهد امور دينية ذات شأن شغلت برنار افنيل عن سلوك زوجته . لان البروتستانت بدأوا يشرحون التوراة ، ويجدون فيها كل يوم ما يوجب القضاء على بلاط فرنسا ، والكردينال دي لورين . واخيه فرنسوى دي جيز . وكان رجال طائفة البروتستانت يجاهرون بما تكلم به المجتمعون قبلا في فندق حملة السلاح ملحين لا يجسرون على ايضاح وافصاح .

على ان برنار افنيل لم يكن على رأي القائلين باستخدام الشدة ، وانما يذهب الى ان الدين لا يقاوم الا بالشرع . ولكنه لم يتجرأ على مخالفة ذوي الافكار الثائرة . وكان ابناء الطائفة جميعا يضربون على وتر واحد .

وفي ذات يوم سمع خطب الوعاظ ، وخرج قاصدا بيته فاحس بيد وقعت على كتفه ، وسمع قائلا يقول . السلام عليك يا برنار !

فاجاب ، أأنت هنا يا لارنودي ، وقد كنت اظنك مقيما في طوران .

وكان برنار يميل كل الميل الى الرجال المنتمين الى امير كوندة المفضلين عنده . ولارنودي يحب برنار اعترافا بجميله ، لانه هو الذي ترافع في قضية عديله جسبار مرافعة استحق من اجلها امتنان لارنودي وان لم تجد جسبار نفعا .

فقال لارنودي ، لقد عدت منذ صباح اليوم الى هنا ، ولما كان منزلي مهملا في غيابي فكرت في الاقامة عندك بضعة ايام .

فاجابه ، انت صاحب البيت يا سيدي لارنودي ، فاهلا وسهلا ومرحبا بك !!

ــ شكرا لك ، ولكنني لا اسألك ضيافة بسيطة .

ــ تكلم ، اي حاجة لك ؟

ــ اني لفي حاجة الى استقبال رجل عندك ... والاجتماع به ومخاطبته سرا .

ــ قلت لك ان البيت بيتك يا لارنودي ، فافعل ما تشاء .

وسار الرجلان في طريق بيت برنار وهما يتكلمان في مواضيع مختلفة ليس لها شأن خاص ، محاذرين التكلم في المواضيع الدينية خيفة ان يسمعهما احد الكاثوليكيين ، فلم يتداولا في امر هام الا مساء عندما ذهبت مادلين تعد غرفة للضيف .

فقال لارنودي اذ ذاك : ايها العزيز برنار ان دياتنا تعدك من انصارها بل من اشدهم اخلاصا ... وقد أزف وقت العمل ...

فاعترت برنار هزة وقال : اني متأهب للمرافعة امام مجلس النواب ...

ـ ان مجلس النواب يبغضنا ، فصوتك فيه لا يسمع !

ـ اذن اية وسيلة تروم ان اتخذ ؟

ـ أي وسيلة ؟ وهل لنا غير القوة ؟

ـ اتدعوني الى مؤامرة ؟

ـ نعم ، وقد تهيأ كل شيء .

ـ ومتى تعلن هذه المؤامرة ؟

ـ في اوائل شهر مارس المقبل . ان بلاط الملك بين ايدي آل جيز ، وهم شر اعداء مذهبنا . فسوف نذهب الى البلاط وننقذ الملك منهم .

ـ وماذا تفعلون بآل جيز واعوانهم ؟

ـ لقد تهيأت اسباب التوفيق . ومن يدري ؟ فقد يسقطون قتلى .

فحدق برنار في وجه لارنودي مدهوشا وقال : أتتجرأون على مهاجمة الدوق دي جيز والكردينال دي لورين ؟

ـ ولماذا لا نفعل ؟

ـ انهما عمان للملكة ماري .

ـ ان ماري ستوارت امرأة اجنبية ، اما زوجها فرنسوا فهو مجرد من الارادة . وقد انتزعت السلطة من ايدي امرائنا الشرعيين . فمن واجبات اشراف الفرنساويين ان يقاتلوا في سبيل اعادة السلطة الى امرائنا .

فلم يجب برنار . ومما لا ريب فيه انه كان يحب مذهبه ويفضله على سائر المذاهب ، الا انه اكبر تلك المؤامرة وخاف منها لانه كان رجلا مسالما ذا ثروة كبيرة ، فبات يسأل نفسه عما يصيبه ويصيب زوجته مارسلين ، ووظيفته في مجلس النواب ، واملاكه اذا خسر الثائرون او المتعصبون ، او

اذا علم الدوق دي جيز بأن لارنودي بات ليلة في منزله ، وزاره فيه خفية شخص مجهول • ولم يفكر برنار في الاستعلام عن اسم ذلك الشخص المجهول لانه يعلم انه لا بد ان يكون عدوا للدوق دي جيز ، او هو شريف من رجال البلاط لا يروم ان يراه احد في باريس ، في حين انه يظن موجودا في طوران • فلما نهض لارنودي قال لبرنار ، اني ذاهب لابحث عن الشخص الذي يجب عليّ الاجتماع عندك ، فلا تدع احدا يقف امامه او يبصره عند مروره • فهل فهمت » ؟

فاحس برنار بالرعدة تسري في عروقه ، وفكر يقول ، ويحي لقد صرت من المتآمرين على السلطة الحاكمة دون ان اروم ذلك ، وهـذا بيتي صار ملجأ لزعماء المؤامرة • ويلاه ، لو درى مسيو دي جيز بذلك !

الفصل الخامس

(غرام وسياسة)

وفيما كان برنار افنيل يرتعد من مجرد تفكره في اغضاب آل جيز ومعاداته اياهم ، ابصرت زوجته مارسلين الفتى جاليو دي نرساك يتمشى تحت نافذة غرفتها وهو لابس افخر ملابسه ، متقلد خنجرا ، يختال عجبا كأنه قائد الحراس ، فاحمر وجه مارسلين واشارت اليه تحييه • ثم نزلت الى غرفة المائدة فالفت زوجها حائرا لا يدري كيف يفعل • واستشار امرأته كعادته فصاحت ، ايزور بيتك احد المتآمرين ، وتدع القوم يتفاوضون عندك في امر يضر بالدولة ؟••• الا ان في ذلك اضرارا بك من كل وجه ، وقد يودي بحياتنا معا ، فحذار !

فقال بصوت الخاضع الذليل : اذن ما رأيك ؟

قالت ، اين الكردينال دي لورين اليوم ، أفي باريس ؟

اجاب ، نعم • واظنه لم يرجع الى البلاط •

قالت ، اذهب واجتمع به لانه يريد لك الخير برغم مذهبك السيء ، واطلعه على المؤامرة ، فتنقذ املاكنا من الخراب ، وتنقذ نفسك من القتل والافلاس اذا لم يفلح لارنودي •

ـ ولكن كيف اصنع اذا درى لارنودي ؟

ـ ومن ذا الذي يخبره ؟..

ــ اصبت ايتها الحبيبة ، فسوف اذهب غدا فالقى الكردينال دي لورين

ــ قد يفوت الوقت غدا .

ــ اذن انت ترين ان اذهب الليلة الى قصر دي جيز ؟

ــ لا رأي لي ، وانما ابديت فكري لك .

ــ اصبت يا مارسلين ، فانت حكيمة في كل حال . والآن عليّ بعصاي وردائي . وفضلا عن ذلك ، أليس من واجبات رعايا الملك ان يطلعوه على كل مؤامرة مضرة بالدولة ؟ الا عفوا يا مارسلين فانني اتركك الان مرغما لانني ذاهب الى قصر دي جيز .

واستصحب خادمه ، وخرج من البيت ، فاصطدم عند العتبة بجاليو . وكان ينظر الى النوافذ غير مكترث لمن في الشارع . فقال المحامي . لا شك ان هذا الطالب سكران . فاجابه جاليو بقوله له ، انت احمق ، وجعل يحرك خنجره في غمده .

ولم يتجاوز برتار طرف الشارع حتى كانت مارسلين عند الباب يطفح وجهها بشرا . فتناولت يد الطالب وقالت له ، يا لك من غبي مغفل ! قال لماذا ؟

ــ لانك اتيت الى بيتي !

ــ أمن الغباوة والغفلة ان اجيء لاراك ؟

ــ لقد خاطرت بملاقاة زوجي !

ــ ان خنجري معي ايتها السيدة ، وهو طويل ماض ، وفيه من المضاء ما يكفي لشك رجلين معا .

ــ لا تكلمني عن الخناجر والسيوف يا حبيبي جاليو ، فانت باسل

كسائر رجال البلاط . هذا امر اعرفه ، ولكن ليس من شأنك القتال واستخدام السلاح .

ــ ومن يدري ؟ فانني كلما رأيت رجال السلاح مارين اشعر بالدمع يجري على خدي فما الكتب وعلم الحقوق من شأن امثالي ، بل هي من شأن الجبناء الرعاديد .. .وهل من حرفة يا مارسلين افضل من الحب والنضال ، او من النضال والحب ؟

ــ انت تخيفني بهذا الكلام يا عزيزي جاليو فلا تعده على سمعي لانني اخشى عليك الردى . فماذا فعلت اليوم ؟

ــ لقد تغديت عند استاذي وتركته ثملا بالخمرة التي ارسلت بها اليه والدتي .

قالت ، ثم ماذا ؟

قال ، ثم شهدت مبارزة اثنين من اصدقائي .

ــ ارجو ان لا يكون قد مات احدهما ؟

ــ بل احدهما (بارانس) مشرف على التلف .

ــ وارحمتاه للمسكين !

ــ الذنب ذنبه . فقد اصر على قوله ان ليس في الوجود امرأة شعرها اشد شقرة من شعر الحسناء مارجو ، وان شعر الفتانة « ليزة » ليس بشديد السواد . وكل الناس يعلمون ان شعر ليزة اشد سوادا من ظلام الليل .

ــ ومن تكون مارجو وليزة ايها الخبير بالجمال ؟

ــ لا تسألي عنهما فانهما من بنات الهوى . الا انهما ملكتان بين بنات طبقتهن ، كما ان كاترين وماري ملكتان بين نسوة البلاط .

قالت ، أتعرف بنات الهوى يا جاليو ؟

اجاب ، أليس على المرء ان يعرف كل شيء في الدنيا ؟ وذلك قسم من

اقسام دروسنا ، بل لعله اهم فصل منها برعت فيه .

ـ ثم مـاذا ؟

ـ ثم عدت الى الفندق فالفيت صاحبه غير من عهدت ، لأن المالـك القديم اثرى وارتحل . اما المالك الجديد فقد اتانا من مدينة نانت ...

ـ اتراه يكتم السر كسلفه ؟

ـ انه اصم كحجارة القبور .

ـ الخوف لا يفارقني يا عزيزي جاليو ، واخشى على الدوام ان يشتهر حبي لك ويبلغ الامر زوجي فيقتلني ويقضي على هنائنا وسرورنا .

ـ ومن ذا الذي يجيء باحثا عنك في منزل طالب علم ؟ لانك لا تخرجين من البيت الا للصلاة والاعتراف . فاحسبيني كاهنا ، فان السيدات ينتظرن عند الكاهن وقتا طويلا ريثما يجيء دور اعتراف كل واحدة منهن .

ـ لا تجدف ، لانني اتطير من هذا الكلام .

وسار الاثنان الى حجرة الطالب وكانت على بعد خطوتين مـن كنيسة السوربون . وكان صاحب النزل ينتظرهما على الباب وقبعته بيده ، فقالت مرسلين لعشيقها ممازحة : ما باله قد كشف اليوم رأسه ؟ ترى هل شعره جميلا كشعر الحسناء مارجو ؟

ـ يا لك من خبيثة فهل انت غيرى عليّ منها ؟

ثم مال الى صاحب النزل فقال ، ما اسمك يا صاح ؟

اجاب ، خادمك نيكول بوصه .

قال ، هات لحما باردا وفاكهة وخمرا جيدة الى غرفتي .

ـ سوف يرى سيدي رأيه في الخمرة التي وردت عليّ من غاسقونيـا منذ ثلاثة ايام .

وكان نيكول كاذبا لانه لم يكد يصل الى باريس ، ولم يرد عليه شيء من غاسقونيا كما زعم .

فقال جاليو ، انت تدري يا نيكول انني رجل محب للوحدة ، وان مـا من امرأة دخلت قبلا غرفتي .

اجاب ، اني اقسم على ذلك يا عزيزي جاليو .

ـ لست بحاجة الى القسم ، وانما تذكر فقط !...

وجعل جاليو يده على خنجره ، ثم لحق بمارسلين وقد سبقتـه الـى السلم .

ولنعد الى لارنودي . فقد ترك بيت المحامي بعد ان ثبت لديه انه مـا من رقيب في جوار البيت ولا من عين ترى رفيقه القادم ، فاتجه الى شارع « سن انطوان » فوصل الى باب عند منتهاه . وكانت هناك شرذمة مـن الفرسان ينتظرونه . فلما وقعت ابصارهم عليه تقدم اليه احدهم فحياه . فقال له لارنودي ، رعاك الله يا روبر دلاهاي ، اين الامير ؟

اجاب انـه هنا ، ولكننا لا نود ان ندعه يـذهب وحده معـك . ان الكردينال دي لورين لا يزال في باريس ، ونخشى ان تصادفه احد الاشراف من أعوانه .

قال ، ان الكردينال قد سافر في صباح اليوم يا مسيو روبر ، فما مـن خطر يخشى على الامير اذا اتى معي . وعندي منزل أمن في البلد ، امـا هذه المواضع الخالية فليست موضع أمن .

ـ اذن انا ذاهب لانبيء الامير بوصولك . وبعد بضع دقائق سارالامير مع لارنودي فسارا الى بيت برنار افنيل . فلما وصلا الى عتبة الدار قال الامير ، الا يرانا احد ؟

فاجابه لارنودي : لا !

قال : الا يرانا اهل بيت افنيل ؟

اجاب : لقد طلبت منه اخلاء البيت ، ولست اسمع صوتا ، فلا شك انه صرف من عنده .

ودخل الرجلان وصعدا الى المنزل المعد للارنودي . وخلع الامير رداءه وارتمى على مقعده وهو يقول : الا تعسا لامير مثلي ، دمه من دم الملوك ولكنه يضطر الى الاختباء كأنه مجرما . قاتلك الله يا مسيو دي جيز فانك تضطرني كل يوم الى ما لا يجمل بي .

فقال لارنودي : لا يمضي زمن قصير حتى يغدو المسيو دي جيز اسيرا عند مولاي امير كوندة . ثم خفض صوته وقال : الا اذا مات دي جيز قبل ذلك : وكان لويس دي بوربون امير كونده يومئذ في الثلاثين من عمره ومن يراه لاول مرة ويتأمل قصر قامته ، ودمامة خلقته لا يحسب انه بطل الحروب التي شهرها هنري الثاني ، والزعيم الحقيقي لاتباع مذهب كلفين ، والنبيل الظريف المحبوب من سيدات البلاط ، والرجل الذي يهاب لحدة فهمه كما يهاب لمضاء سيفه ، بل الرجل الذي كان اعداء الدوق دي جيز يعدونه خلفا لذلك الدوق . الا ان امارات العظمة والكبر كانت بادية على وجه الامير ، وهو برغم انحناء كتفيه اول فارس في الاقطار الفرنساوية اذا ركب فرسا .

وقال للارنودي : اما الان وقد صرنا الى هذه الخلوة افلا تحدثني بما جرى لك في سفرك ؟

اجاب : لقد وصلت يا مولاي الى مدينة نانت منذ ايام ، وفي وسعي ان اقول لك ان كل شيء قد تهيأ وتدبر .

ــ هل وصل نواب الولايات ؟

ـ نعم كلهم .

ـ ما عدد جنودنا ؟

ـ ثمانية آلاف او عشرة آلاف . وحدث ولا حرج عن حماسة زعمائهم وكرههم للدوق دي جيز .

ـ مما لا ريب فيه ان ذلك الدوق المختال لا يعرف للوقاحة حداً . ويكاد يوهم الناس ان منزلة قومه اشرف من منزلة الملوك نسباً . الا مهلا يا ابن عمي ، فقد يمكن ان تمتد الى السلطة ايدي النساء والاولاد ، ولكن لا يزال يوجد في اسرة سن لويس رجال . وانت يا لارنودي فاعلم انني لا احب الشدة والعنف .

ـ نحن آتون لنقدم ملتمسا الى الملك ...

ـ في أي يوم ؟

ـ في يوم ١٠ مارس (آذار) او ما يقاربه . ولكن هل يبقى البلاط في مدينة بلوا ؟

ـ الامر يسير على ما ارى . فانكم تصلون ليلا ، ولا يشرق الصباح بنوره حتى تقبضوا على ابن عمي دي جيز ، فتحسنون معاملته كما يليق . واذ ذاك اتولى قيادتكم ثم نرى في ارشاد الملك الى الصواب . اما كاترين والدة الملك فسوف تكون معي . نعم ان الملك لا يحبني ، الا انه يحب زوجته ، فلا يعصاني طويلا ... ثم ان اخي انطوان لا عزيمة له ، فسوف ابقى على امين الختم وابعد سن « اندري » . ولكن ما رأيك يا لارنودي ، هل تظن اشراف البلاط يخفضون رؤوسهم امام رجل احدب (يعني نفسه) ؟

فاجاب لارنودي ، يعلم اشراف البلاط يا مولاي انك سيد نبيل كريم باسل مخلص للملك .

قال ، انت تحب الاطراء يا لارنودي ، فانه لا يكفي لاخضاع بـلاط فرنسا ان يكون المرء كريما باسلا . وقس عليه بلاط الوالدة فلورتين . وثق ان لحسن صورة ابن عمي تأثيرا في القوم يفوق تأثير بسالته وكرمه . وكاترين لم تحبه لانه جندي باسل بل احبته لانه ظريف الهيئة حسن الرواء ، والنساء ، يا لارنودي ، في بلاط كاترين أعظم سلطة من الملك نفسه .

واجاب لارنودي ، نعم ، ولكن سلطتهن مقصورة على من يستسلمون اليهن ... فلم يجب امير كوندة .

فقال لارنودي بعد سكوت قصير المدة : اي شأن في الجيش يكون لبلترو ؟

قال ، اتعني دي ميرة ؟

اجاب ، نعم فهو الذي ارسلته اليّ الى نانت ليخبرني بانك ستكون في باريس في هذه الايام .

قال ، دعه يفعل ما يحلو له .

قال ، ألم يكن فيما مضى جاسوسا ؟

اجاب ، اعرف ذلك . واهل البلاط يحتقرون الرجل . على انه أسدى ايادي بيضاء في حصار متس . فهو من كرام الناس وشجعانهم .

قال لارنودي ، وهو يبغض الدوق دي جيز بغضا لا يساويه فيه احد من المتآمرين .

اجاب ، ذلك غريزي فيه . واظنه يقتله اذا تمكن من قتله . فراقبه عند القبض على الدوق فانني لا اروم سفك دمه . اما الان وقد اتفقنا على كل امر فاني مفارقك يا لارنودي .

ــ دعني اسير معك واتولى حراستك يا سيدي .

ـ بل البث عند صديقك افتيل ، فلست بمسافر الى بلوا غدا صباحا، ولي في باريس شغل خاص .

ـ ألا تنتهي من عشرة النساء يا مولاي .

ـ اسكت واسأل الله لي توفيقا .

فشيع لارنودي الامير الى باب البيت ، ونظر اليه وهو يبتعد ، فلما غاب عن نظره قال ، ان هذا الامير ما برح شجاعا يصفح عن اعدائه ويهزأ بالاخطار ! الا كن مطمئن القلب يا لويس دي بوربون فان اصدقائك ساهرون عليك . ولسوف يفتكون بالدوق دي جيز قبل ان يتمكن من قتلك .

الفصل السادس

(بلاط فرنسوا الثاني)

لما رجع المحامي برنار افنيل الى بيته لم يجد فيه زوجته فتعجب وصاح قائلا ، كيف تركت البيت الساعة وانا في اشد الاحتياج الى رأيها ؟ وبعد قليل عادت زوجته مارسلين وقالت ، لقد كنت في الكنيسة يا صديقي ، أسأل الله لك النجاح في سعيك . فما الذي قاله لك الكردينال ...؟

اجاب ، انه رحل اليوم .

قالت . رحل الى اين ؟

ــ لقد لحق ببلاط الملك ، فكيف العمل ؟

ولاح لمارسلين الهناء والحرية من خلال ستور هذا الحادث ، فلم تتردد بل قالت ، لا بد من سفرك الى بلوا فتلقى الكردينال هناك .

وفي اليوم التالي سافر افنيل فوصل الى بلوا في يوم احد . وكان الكردينال وسائر رجال البلاط في الكنيسة . فشاور افنيل قائد الحراس في امره فاشار عليه بالانتظار عند باب الكنيسة لعله يرى الكردينال وقت خروجه منها .

وما عتم ان انفتح بابها فانبعث من داخلها عطر البخور والطيوب وطرقت

اذنيه نغمات الارغن في اخر القداس . وقد علمنا انه كان بروتستانتيا فغمغم يقول ، قبحا لهذا المذهب ، الذي يشبه مذهب الوثنيين عبّاد الاصنام .

الا انه لم يتمكن من الاسترسال في تأملاته بشأن المذهب الكاثوليكي لان القداس كان قد انتهى وخرج اهل البلاط من الكنيسة ، فأبصر افنيل شابا لابسا صدرة بيضاء عليها صليب ، يتقدم وهو معجب بنفسه . وكان ذلك الشاب فرنسوا الثاني الابن البكر لكاترين دي مدسيس ، ولم يبلغ العشرين بعد . ومما يسهل تحققه انه كان العوبة بين ايدي رجلين حازمين هما فرنسوا دي جيز واخوه الكردينال دي لورين . وكان الملك متهلل الوجه في ذلك اليوم لانه قد مضى اسبوع كامل لم ير فيه ابن عمه امير كوندة . ولم يكن فرنسوا الثاني يحب ذلك الامير . ولسروره سبب اخر، هو انه امر باتخاذ الاهبة للصيد . وكان الصيد من ملذات الملك لانه يستريح في اثنائه من سماع الطعن على البروتستانتين والكاثوليكيين والثائرين والناقمين ، ثم انه يتمتع وهو في الصيد بصحبة زوجته الملكة ماري .

وكانت زوجته ماري ستوارت ملكة سكتلندا وفرنسا تمشي وراءه . وقد بهر حسنها الابصار وازرى بحسن كل فتانة من غادات البلاط . وكان شارل نسيبها يمشي الى جانبها ناظرا اليها نظرات ملؤها الاعجاب .

وكاترين دي مدسيس تمشي وراء كنتها مرتدية بالسواد . وكان سواد ثيابها وصمة في ذلك السناء والبهاء اللذين حولها . وما من احد يستطيع ان يحزر عمر كاترين . فقد كانت ذات حسن بقي فتانا لانها رشيقة القوام، لها جيد ناصع البياض ، ويدان طالما حسدتها كنتها ماري ستوارت على بياضهما وصغرهما . ثم انها كانت متأنقة في لبسها الاسود ، تنخفض ابصار عظماء المملكة امام بصرها . ولم تكن تدعى ام الملك ، بل الملكة الوالدة .

فتقدمت تمشي بين اجمل حاشية من حواشي الملكات في العالم . وبين نسائها « ديانا دي بواتيه » و « اميرة كوندة » و « دوقة دي جيز » و«مدام ديانا» ابنة هنري الثاني غير الشرعية ، وغيرهن من السيدات . اما الرجال فكانوا يمشون وراء كاترين ونسائها ، وفي مقدمتهم امراء لورين،والغطرسة والكبرياء ظاهرة على وجوههم ، وحركاتهم شاهدة بعظم سلطتهم . فلما رأى « افنيل » موكب السيدات والحاشية ضاع رشده فلم يتجرأ على مخاطبة الكردينال دي لورين . ولم يفق من ذهوله وخجله حتى ابصر بين الجمهور صديقا له اسمه للمان دوزي ، وكان سكرتير الكردينال ، فكلمه. وبعد هنيهة ادخله ذلك الصديق مكتب الكردينال ، وكان عنده اخوه فرنسوا . فقال افنيل ، ارجو عفوا من مولاي الكردينال ، فما اقدمت على مقابلته الا لامر خطير يتعلق بحياته .

ــ بحياتي أنــا ؟

ــ نعم ، وحياة مولاي الدوق .

فقال الدوق ، وهل يوجد من يتجرأ على مؤامرة ضدي ، بل ضدنا ؟

فاجابه افنيل ، نعم يا مولاي .

قال ، اذن ساصدر امرا الى ملازمي باعداد بعض المشانق للمتآمرين..

ــ وأسفاه ، ان بعض المشانق غير كافية .

ــ ما معنى هذا الكلام يا افنيل ؟

ــ ليست المؤامرة المدبرة مكيدة يسيرة يراد بها اغتيال ، وانما هي مؤامرة كبيرة .

ــ اظن ان القائمين بها من طائفة البروتستانت ، تلك الطائفة اللعينة التي تحاول رفع رأسها . الا فلتحذر !! ان رؤوس الرعايا اذا ارتفعت كثيرا امر الملوك خدمهم المخلصين بقطعها .

وقال الكردينال ، لا تنس يا اخي ان المحامي افنيل بروتستانتي •

اجاب ، اعرف ذلك حق المعرفة ، فهو الذي رافع في قضية جسبار ديهو عديل لارنودي المخلص لامير كوندة •••

وهنا تفرس في وجه افنيل وقال ، لعل امير كوندة في جملــة اولئــك المتآمرين ؟

اجاب ، اجهل ذلك يا مولاي •

قال ، عجبا لك يا افنيل وانت البروتستنتي التقي الذي هاجمني بلسانه مرارا كيف جئت اليوم تكشف لي سر تلك المؤامرة الموجهــة ضدي اكثر مما هي ضد الملك ؟

اجاب ، لا انكر يا مولاي انني بروتستانتي • الا انني ، قبل كل اعتبار اخر ، من رعايا جلالة الملك الامناء • ومن طباعي انني اكره العنف، ولذلك أنبأتك آسفا بما علمته ، فلا تسألني عن اكثر من هذا البيان ، فقد فعلت ما يجب عليّ والسلام •

وهم بالانصراف فقال له الدوق ، بل البث ههنا • ان في وجودك فــي باريس خطرا يقع عليك ، ثم انك لم تطلعنا على كل شيء • فمتى يكــون موعد هجوم المتآمرين •

ـــ في اوائل شهر مارس القادم ، يا مولاي •

ـــ اذن بعد ايام قلائل ؟

ـــ نعم يا مولاي وسوف يأتي المتآمرون الى بلوا ليقدموا ملتمسا الى الملــك •

قال ، ويومئذ يفتكون بي او يطلبون الى فرنسوا الثاني ابعادي • لعمر الحق ! ان الخطة حسنة • والآن سيذهبون بك يا افنيل الى منزل تقيم فيه وتتلقى اوامرنا •

ففكر افنيل في ان مارسلين لا بد ان تنتظره لكنــه قال في نفسه ، ان اسوار بلوا خير لها من الاسواق الكبيرة . ولئن طال زمن اقامته في بلــوا فلا يصعب عليه ان يبعث برسالة الى زوجته فيستحضرها ، فانقاد الى المسكن الذي امر له به الدوق دي جيز . ولمــا فارق الاخوين لبثا هنيهة وهمــا صامتان .

وكان فرنسوا دي جيز واخوه الكردينال دي لورين يومئــذ في اول شبابهما . تلقيا العلم واولعا بالمذهب الكاثوليكي وكانا باسلين حازمــين محبوبين من سكان باريس ، مكروهين في بلاط الملك . اما الملكة الوالدة فلم تكن تجرأ على مناوأتهما . واما الملك فكان امامهما خلوا من كل ارادة وعزيمة . وهما متحدان اتحادا عجيبا ، ساعيان على مهل الى غرض واحد، ولا يكادان يجسران على ان يبوح احدهما به للاخر . وقد صارت اليهمــا شؤون المملكة يأمران فيها وينهيان ويتناولان من خزائنها المال ، ويحكمان باسم ابن اخيهما الملك . ومما يزيد نفوذهما وعظمتهما اتحادهما . فــان ابيهما كلود دي لورين اوصاهما بالاتحاد وقال لهما ، ان الاسرة التي يتحد اعضاؤها وهم عديدون ، قد تدرك ابعد شأو . ولذلك كان غرض كل واحد او واحدة من اسرة لورين واحدا . هو تعظيم بيت لورين .

فقال الكردينال ، على م عولت يا اخي ؟

ــ على اجتذاب اعدائنا هؤلاء الى معركة طاحنة .

ــ لست اعني بكلامي لارنودي ، وان كان على ما ارى زعيم العصابات وكبير المتآمرين ، ولكن وراءه ابن عمنا امير كوندة .

قال ، لنضرب المتآمرين اولا ، ثم نرى كيف نتخلص من الامير . ولعلنا نجد من الاسرى من يخونه .

ــ واذا لم نجد فيهم خائنا او لم نجد بينهم متهما للامير ؟

ـ الا تحسب حسابا للاستنطاق يا اخي ، على اننا سوف نحصل من الملك على ما نبتغي ، والفضل يعود الى ماري ... فهل رأيت الملك لما كان يحملق اليها ببصره اليوم في الكنيسة ؟

ـ نعم ولا خوف علينا من هذا الهوى ، فان الطبيب (فرتل) اكد لي ان فرنسوا لا يعقب وارثين .

وفيما كان اميرا لورين يتكلمان بهذا الكلام عن بكر هنري الثاني وهو المحسن اليهما ، انفتح باب الحجرة التي كانا فيها وقال احد الحراس:الملك!

ودخل الملك فخاطب الدوق قائلا ، عجبا منك يا ابن العم ، ما اراك مستعدا للذهاب الى الصيد والقنص ؟

ـ اننا لا نذهب الى الصيد والقنص في هذا النهار ايها الملك .

ـ ولكنني اشعر بضجر وسأم اذا لم تكن معي ، ولئن لم تصحبني فان ماري تكتئب وتقطب وجهها .

ـ لا شك انني لم احسن الايضاح ايها الملك اذ قلت لك اننا لا نذهب الى الصيد والقنص في هذا النهار ، وانما اردت ان اقول ان البلاط بأسره لا يذهب .

ـ ما معنى هذا الكلام ، ألم اصدر امرا في هذا الصباح باتخاذ الاهبة؟ ألم يتلق ناظر الصيد ذلك الامر ايضا ؟

اجاب الدوق ، لا قدرة لنا على الصيد اليوم .

ـ ولماذا يا ابن العم المحترم ؟

ـ لان البرية لا امن فيها .

ـ أليس عندي حراسي ؟ وفضلا عن ذلك فمن يجترىء على مهاجمة ملك فرنسا ؟

ـــ ان اعداءنا لا يرهبون احدا ايها الملك .

ـــ أوضح ايها الدوق معنى كلامك ، فانني لا افهمه .

وقد هاج الحنق الملك لحرمانه لذة الصيد في ذلك النهار ، واخـذه ارتعاد ، واظلم وجهه الى ان قال الكردينال مستمهلا متأنيا في تلفظه : لقد اكتشفنا اليوم مؤامرة .

ـــ قال الملك ، ومن يدبرها ويديرها ؟

ـــ اجاب ، لم ندر حتى الان . فان للمتآمرين زعيما نجهله ، وهـم خاضعون الان لواحد من اشراف بلاط الملك .

ـــ من هو ؟

ـــ هو لارنودي على الغالب .

ـــ ان لارنودي روح ابن عمي كوندة ويده اليمنى !

ـــ لسنا نتهم امير كوندة ايها الملك .

ـــ وانك لمخطيء يا عماه لان ابن عمي كوندة مدبر تلك المؤامرة . ولا يخفى على ذلك . ولكن على اي امر عزمتما ، وماذا تصنع ؟ اني اراكمـا مطمئنين كانه لا خطر عليّ ! الا جرد سيفك يا عماه وهجوما على العدو !

ولقد احتدم الملك فأثر فيه احتدامه ، فترامى على كرسي وهو يلهـث تعبا ، ثم اصيب بحمى مفاجئة ، فظهرت على وجهه بقع صفراء ، وانسكب العرق من جبينه ، ولمعت عيناه وتاه بصره ، وجعل يده على سيفه وهـو لا يقوى على تجريده . فنظر الدوق واخوه الى ذلك الفتى العليل البدن ثـم همس الدوق في اذن اخيه يقول ، اذا اشبه بنو « فالوى » هـذا الشاب الضعيف فان سلالتهم تنقرض في القريب العاجل .

وقال الملك فرنسوا الثاني : ماذا تفعل ايها الدوق ؟

ـــ نرتحل عن بلوا .

ــ أتتقهقر امام اعدائنا ؟

ــ كلا ايها الملك ولكن نخادعهم ، والحرب خدعة . ولا بد ان يصلوا بعد ايام الى اسوار بلوا ، فلا يجدون فيها احــدا منا فيفسد قسم مــن تدبيرهم . واذ ذاك يلحقون بنا الى امبواز لاننا سائرون اليها . ومعلوم ان امبواز محصنة ، وفيها يسهل علينا الهجوم فنسحق المتآمرين سحقا قبــل ان يتمكنوا من الوصول الينا .

ــ انقبض على الامير ؟

ــ انا لا تزال تجهل ايها الملك توليته رئاسة القوم .

واذ ذاك سمعوا وقــع حوافر خيول في ايــوان القصر تحــت نوافذ الكردينال ، فاطل الملك من النافذة ورفع صوته مناديا ابن عمه امير كوندة لانه رآه تحت النافذة وقد وصل ساعتئذ من باريس وقد نهكه التعب . فدخل وانحنى امام الملك ، فقال له بلهجة تشف عن تهكم : لماذا تركتنــا ، فلا تجد الآنســة دي ليمول كافية لمكثك في بلاطنا ؟

اجاب ، لقد كنت في الصيد ايها الملك مع بعض رجالي ، وفكرت في ان وجودي عندك لا يفيد ...

قال ، انت واهم يا ابن العم ، ومنذ الان لا تفارقنا .

فخفض كوندة رأسه ونظر الى وجه الدوق فرأى فيه شيئا من السخر وقال في نفسه ، لعل الملك وعميه عارفون بقدومي الساعة من باريس .

والتفت الملك الى فرنسوا دي جيز وقال له ، مر بالتأهب للسفر ، فصاح كوندة ، أنرتحل عن بلوا !

اجاب ، نعم يا ابن العم ... فهل في ذلك ما يحبط مقاصدك ؟.. انــا مسافرون في هذا المساء .

ــ لست ادري حتى الان يا ابن عمي اي جهة نقصد ، ولــكن سوف تصحبنا فترى . ومضى الملك وهو محتدم حانق .

الفصل السابع

(في امبواز)

وفي اليوم التالي كان بلاط الملك في امبواز • وقد جهل رجال الحاشية ووصائف الشرف والملكتان السبب الذي من اجله ارتحلوا عن بلــوا • واراد آل جيز والملك ان يفتضح المتآمرون ، اما امير كوندة فلم يكن الكلام في هذا الشأن من مصلحته ، واما المحامي افنيل ، فلم يكن يجسر عــلى الخروج من المخدع الذي اختص به •

فلما كان يوم ١٠ مارس (اذار) شعر القوم بحركة او حادثة خطيرة ، الا انه لم يتبين لاحد ما هي •

اما المتآمرون ، فكانوا يأتون عصابات تؤلف كل منها من خمسمائــة رجل الى ستمائة • يتوافدون من البرية مختبئــين في الغــابات والقصور والفنادق • وهي عصابات غريبة لانها مؤلفة من جنود ، وعامة ومقــاتلين وبروتستانتيين وقرويين ، جاء اكثرهم في الموعد المضروب مغمضي الاعين ، حاسبين انهم انما اتوا ليقدموا ملتمسا الى الملك : والرؤساء وحدهم كانوا يعلمون ان القصد من ذلك المسعى قهر الدوق دي جيز • وهؤلاء لم يروا الا التظاهر بغرض صالح • اما لارنودي فكان حاضرا في كل مكان يرى

في الطرق والفنادق وفي مقدمة كل عصابة ناقلا الى الرؤساء اوامره الاخيرة . الا انه كان قلقا لانه لم يتلق نبأ من امير كوندة ، ومع ذلك فقد حسب ان الحذر قضى على الامير بالسكوت ، وان لا بد ان يلقاه وقت دخول المدينة مستعدا لتولي رئاسة المتآمرين . ولقد اخل بخطته انتقال الملك ورجاله من بلوا الى امبواز ، الا انه تحاشى الخلل بسرعة .

ففي مساء يوم ٩ مارس (اذار) لم يكد يدخل الفندق الذي اتخـذه مقاما متوسطا حتى التف برداته واضطجع قرب الموقدة ويده على قبضـة سيفه والاخرى على غدارته . فنام ساعات ولم يستيقظ الا عندما اطفـأ صاحب الفندق انواره استعدادا لاغلاقه . واذ ذاك ابصر لارنودي في زاوية من مخدعه عينين محدقتين فيه ، فقال في نفسه : لقد وقع بصري قبلا على هاتين العينين .

وكان كثير الارتياب ، شأن من يهم بامر خطير ، فاتجه الى تلك الزاوية من الحجرة حاملا مصباحا ، ثم وقف وقال هذا بلترو !

اجاب ، نعم انا ذاك يا مسيو دي لارنودي . ألم تكن تتوقع ان تراني؟

قال ، بلى ، ولكن في غير هذا المكان . وانني كنت احسبك الان فـي امبواز .

اجاب ، اصبت ، وكان ينبغي ان الحق بالبلاط ، الا ان المسيو دي جيز امر باقفال الابواب قبل الوقت المعتاد ، فاضطررت الى المبيت هنا .

فتفرس لارنودي في وجه الرجل وصاح ما دهاك وما هذا الـذي في رأسك .

اجاب ، انه تذكار من الدوق دي جيز .

قال ، هل دس عليك من يقتلك ؟

ــ كلا لم يدس عليّ احدا بل تولى الامر بيده ، ولئن لم يفلح فليس

الخطأ خطأه .

ــ حدثني بذلك يا بلترو .

ــ قصتي قصيرة . كنت اهوى فتاة حسناء ، فتنت مدينة اورليان ...

ــ قال لعلها ابنة الكتبي لوم ؟

ــ نعم ، وابوها صديقي كما تعلم . فلما عدت من مدينة نانت ، اردت الاجتماع بهما . وفي ذلك المساء بعينه قضت الصدفة بأن اقتفي خطوات الدوق دي جيز ، وكان ذلك ساعة هممت بمغادرة اورليان . فتبعته حتى رأيته وقف بحانوت الكتبي يعقوب لوم ، وابصرت سلما من الحبال تدلى اليه من شرفة مادلين ، فتسلق الدوق على الحبل وصعد الى حجرة تلك الفتاة التي كنت اهواها ...

قال لارنودي ، قبحه الله من فاسق !.

قال بلترو ، الا تذكر يوم سألتني في نانت عما اذا كان يوجد سبب شخصي يحملني على معاداة الدوق دي جيز واجبتك انني انما ابغضه لانه عدو مليكي ومذهبي . فالان انا ابغضه لانه عشيق مادلين . واسأل الله ان يبقى على حياته الى ان التقي به واقتله بيدي .

ولكن كيف جرحت ؟

ــ تبعته وما كدت اصل الى الشرفة حتى انفتح باب غرفة الفتاة مادلين ، ثم شعرت بالم شديد في رأسي فسقطت من الشرفة الى ارض الشارع ، ولبثت ممددا هناك حتى الصباح . فلما فتح يعقوب لوم مكتبته ابصرني فادخلني بيته ، وعالجتني مادلين من غير ان تتكلم ، ولم اخاطبها بكلمة لانني لم اقو على توبيخها . ولا شك عندي ان الدوق اغراها وخدعها وقال لها انه من رجال البلاط دون ان يعرّفها بنفسه .

قال لارنودي ، ان مصابك يا بلترو يشدد حبل ولائنا واتحادنا . وانما

نحن ، انا وانت ، لا غرض لنا من حياتنا الا الانتقام لانفسنا !

ــ هذا صحيح •

ــ لقد اقسمت لي اذ كنا في مدينة نانت على ان تنتقم لي اذا مت قبلك انتقامك لاحد اقربائك •

ــ اني لا ازال على عهدي وقسمي •

ــ شكرا لك ولست ادري هل نفلح في مشروعنا ام لا ، غير ان نفسي تحدثني بالخيبة • فاذا هلكت •••

ــ اكون انا حاضرا يا مسيو لارنودي •• اما انا فاشعر انني لا اموت الا بعد ان ينتقم لي •

وخرج الرجلان من الفندق للاهتمام بمعدات الهجوم •

★ ★ ★

وبعد رحيلهما ببضع دقائق وقف بغل وحصان بباب الفندق ، وكان على البغل امرأة ، اما الحصان فكان يمتطيه شاب • فترجل الشاب واقبل على المرأة فمد اليها يده ليساعدها على النزول • ثم طرق باب الفندق وطلب غرفة وسريرا وعشاء • فتذمر صاحب الفندق ودمدم ساخطا على الذين يسافرون ليلا الا انه لما رأى دينارا وهاجا يلمع بيد الشاب ذهبت عنه كشرته • وبادر الى الطبقة السفلى من الفندق ليأتي بالنبيذ المطلوب • فلما خلا الشاب الى المرأة قال لها ، قاتل الله زوجك ايتها السيدة ! كيف رأى استقدامك من باريس وقد كنا فيها على اتم نعيم وسرور • وايم الحق لقد كان في وسعنا ان ندعه وشأنه بضعة اسابيع ايضا •

قالت ، لقد اخبرتك يا جاليو ان لهذا الامر علاقة بحياتنا وثروتنا، فان زوجي سافر من باريس مسرعا مبادرا الى البلاط فمنعوه من العودة، فطلب

اليّ اللحاق به ، فهل في ذلك ما يدعو الى العجب ؟

اجاب ، لقد كان يجب على زوجك ، ايتها السيدة ، ان يفكر في ان السفر لا يخلو من خطر اذا كانت الطرق مزدحمة باللصوص ... ولم نصادف منذ هذا الصباح الا سكارى وجنودا مسلحين واشرارا كان ملك اسبانيا محاصر مدينة متس [1] .

قالت ، يظن زوجي ان معي خدما امناء . ولكن هل خفت ايها الطالب من الرجال المسلحين الذين رأيناهم في طريقنا؟

اجاب ، انا خفت ؟. انا جاليو دي ترسالك اخاف ! وحدق في وجه مارسلين ثم قال ، اني اجهل الخوف ولا افهم معناه لكنني اعجب لاجتماع الرجال الذين صادفناهم في الطريق واكثرهم مدجج بالسلاح ... وبعضهم يقرأ التوراة .

قالت ، لعلهم من البروتستانتيين .

اجاب ، ما احسب هؤلاء الوعاظ يتقلدون السلاح ويسيرون الى امبواز وقد انتقل اليها بلاط الملك ، فهم لا يجرأون .

قالت ، لا تنظر اليّ يا جاليو هذه النظرات . فانا اعرف انك باسل ، ولكنني اتوسل اليك ان تدع خنجرك جانبا اذا نشب القتال غدا ...

ـ وهل ينشب القتال غدا .

ـ انى لي معرفة ذلك .

---

(١) ورد ذكر حصار متس مرارا ولذلك رأينا ان نذكر شيئا عنه . فمتس مدينة فرنسية على بعد ٣١٦ كيلومترا من باريس . استخلصتها فرنسا من شارلكان سنة ١٥٥٢ على عهد فرنسوا الثاني . وحاصرها شرلكان فدافع عنها فرنسوا دي جيز احسن مدافعة . اما الان فهي من المدن الالمانية ، اذ تخلت فرنسا عنها بعد حرب السبعين ، ثم استعادتها بعد ذلك .

ـ اذن فلماذا تكلميني عن ذلك •

وجاء صاحب الفندق باللحم المقدد والخمر فذاقها جاليو وقال ، انهـا خمرة جيدة وسوف اهدي اليها استاذي برنابا ••• ولم يكد يتم هـذه الكلمات حتى ضرب باب الفندق ففتحه صاحبه ودخل رجل باذن احمـر الوجه صغير العينين • فما كاد يراه جاليو حتى صاح ، هذا استـاذي ! فاجابه ، نعم استاذك ايها الجاهل ! قال ، هذه كلمة لا اطيق سماعهـا يـا برنابا ، فارجع فيها والا تكدرت منك •

اجاب ، اني رجعت فيها عن طيبة خاطر •

قال ، والان اجلس ايها العالم الشهير قريبا منا ، وحدثنا فانني لـك سامع • واسمح لي بان اعرفك باجمل امرأة جلست الى وجهك القرمزي لاول مرة •

قال ، كيف لحقت بي ؟

اجاب ، اني اكتريت بغلا الا انه لطيف فيلسوف •

ـ لقد أثر فيّ هذا البرهان الذي يدلني على ولائك • فاشرب يـا استاذي ، والذي اراه ان النعاس قد تغلب عليك ••• بل ارى البهيم قـد نـام •

وكان برنابا قد اطبق عينيه وفمه ملآن بما دسه فيه من طعام • وكانت الصبية قد لزمت الصمت امام الاستاذ • قالت ، اني لاخشى ان يكون قد عرفني • فاجابها لا تخافي • وهبي انه عرفك فهو كتوم ، وقلما يهمه النظر الى وجوه النساء لانه لا يحب الا الكتب والخمر والطعام •

ـ وهل يحبك انت ؟

ـ على سبيل العادة ، فهو قد تبعني لانه اعتادني • وعلاوة على ذلـك فانه من ألطف الندمان وان تجاوز الخمسين ، وعنده حكايات مطربة عـلى

الدوام ، وكيس ملآن قد ينفعني عندما افارقك .

ـ أتروم ان تفارقني يا جاليو ؟

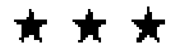
ـ واأسفاه انك تصبحين بعيدة عني حالما تدخلين امبواز . اما الان وقد وصلت اليها فلا حاجة بك الى رفيق . فما رأيك اذا رجعت الى باريس؟

ـ هل اشتقت الى ليزه ومارجو ؟

ـ لا ، ولكن لافكر فيك هنالك . اما اذا لبثت وحيدا في امبواز فاني سأتحرش بالحراس واقاتلهم تلهيا .

ـ لا حاجة بك يا جاليو الى مثل هذا التلهي ، فان المرأة لا يصعب عليها ان تلقى من تهواه عندما تشاء . وانا اهواك كما تعلم .

وهكذا بقيا يتحدثان حتى سمعا غطيط برنابا فتنبها الى ان وقت الرقاد قد حان . فاضجعا وافاقا على دوي الطلقات النارية . وكذلك افاق برنابا من نومه ، الا انه بقي متمسكا به برغم رأي صاحب الفندق ونصحه له بالنهوض .



اما لارنودي وبلترو فقد راقبا التأهبات . وكانا قد ركبا جوادين ودارا دورة حول امبواز . واجتمع المتآمرون في الطرق منتظرين بذاهب الصبر طلوع النهار ليدخلوا المدينة . وبعد ان تحققا ان كل شيء قد اعد كما ينبغي ارادا ان يتعرفا احوال المدينة ، فابصرا بعض الحراس عند جدرانها يتمشون كعادتهم والابواب مفتوحة كالعادة ايضا والسكينة سائدة على المدينة . وابصر بلترو نورا من خلال نافذة من نوافذ القصر الذي يقيم فيه الملك وبلاطه ، فقال ، لا شك ان أمير كوندة ينتظرنا .

فاجابه لارنودي ، وعسى ان لا يكون هذا النور في غرفة الدوق دي جيز ، وان لا يكون ساهرا يترقب .

ثم رجعا فالفا ثلاث كتائب ، وجعلا عند كل باب كتيبة ، ووقف لارنودي في اشد المواقف خطرا عند احد الابواب . وعهد الى بلترو وبول دي رشيان بالوقوف امام البابين الاخرين ، ثم تقدموا .

وكان حاكم امبواز ، وهو الدوق دي نيفار ، داخل السور يراقب ، فدخل وقتئذ على الملك ، وصاح ، لقد تقدموا ايها الملك !!

قال الملك ، لا شك انهم ابناء مذهب كلفين ، وزعيمهم لارنودي .

اجاب ، انا نجهل ذلك ايها الملك ، ولا ندري سوى ان العدو يدنو منا

قال ، اذن فجردوا السيوف واهجموا على الهاجمين فهم الد اعداء مملكتنا !

واستيقظ القصر من رقدته اذ ذاك ، ودخلت احدى الوصائف على الملكة الوالدة تقول لها ان العصابات المسلحة هاجمة على المدينة وانهم من البروتستانتيين .

ثم خرج الملك وعيناه حمراوان يكاد الدم يفيض منهما وسيفه مجرد بيده وهو يقول ، اني لا ارى ابن عمي كوندة ، فاين هو ؟

فاجابه امير كوندة وكان يرى ويسمع قال ، اني اعددت امضى السيوف لمقاتلة اعداء الملك .

وهو لم يكن يجهل ان كل شيء يظهر في بلاط الملك فقضى ليلته عند عشيقة له في القصر ليبعد عنه الظنون . فقال الملك ، ان اشياع مذهب كلفين هاجمون علينا وهم بضعة آلاف تجرؤا على مليككم فلا بد من انقاذ العدل .. والمأمول من عمنا الحبيب الدوق فرنسوا دي جيز ان يسير بكم اليهم .

وجرد الاشراف سيوفهم ، فقال الملك مخاطبا امير كوندة ، على ابناء امراء البيت المالك ان يكونوا حضورا ساعة الخطر ، وسوف يوليك عمنا الدفاع عن احد الابواب .

فاجابه امير كوندة ، انني اتمنى ايها الملك ان اموت في سبيل خدمتك!

الفصل الثامن

(القتــال)

في ذلك الوقت نشب القتال وعلا دوي الرصاص الذي نبه جاليو دي ترسالك ، ومارسلين ، وبرتابا . وللحال غصت شرف الاسوار بالمقاتلـين ، وتساقط الرصاص مطرا على لارنودي ورجاله ، وخر القتلى ركاما . الا ان ذلك الموت الزؤام لم يثن المتآمرين ، بل زحفوا الى الامام حتى وصلت كتائبهم الثلاث الى خنادق المدينة ، واذا بالابواب قد انفتحت فجأة وخرج منها الفرسـان جماعات كثيرة فهجموا على المحاصرين ، وكان هؤلاء قــد نهكتهم مشقات السفر ورقودهم ليلة ملتحفين السماء ، وقلما توقعوا لقاء عدو حازم فتفرقوا في الحال . وكان الـدوق دي جيز في مقدمة اولئـك الفرسان الذين هاجموا لارنودي ورجاله . فعزم لارنودي على ان يقاتــل متقهقرا مع رجاله ، فلم يلق السلاح ولم تتمكن الكتيبتان الاخريان اللتان يقودهما بلترو ودي رشيان من الثبات امام جنود مستريحين ، فتقهقـروا كذلك . ووقف جنود الدوق متعجبين من سرعة انتصارهم غير عالمين ان معظم المتآمرين انما توافدوا لرفع ملتمس الى الملك . وكان وقوف جنود الدوق دي جيز سببا في اتحاد المتآمرين والتفافهم حول لارنودي فقال لهم: لا شك انه كان بيننا خائن سوف نحاكمه فيما بعد ، اما اليوم فليس امامنا

الا القتال متراجعين ، فليصرف كل منكم جنوده مجتنبا لقاء جنود الملك ، وسوف نلتقي الليلة في ضواحي بلوا ، وسيظن الدوق دي جيز اننا انهزمنا واذ ذاك تندير .

وكان لارنودي يتكلم بلهجة تبعث الطمأنينة في النفوس ، الا انه احس بان الهزيمة تامة فلم يتجرأ على التلفظ باسم امير كوندة ، وهو لا يدري اذا كان قد تخلى عنه او قبض عليه فهو سجين ... واقبل فرسان الملك ووصل بعضهم شاهرين سيوفهم وكانوا عشرين فارسا .

فتواثب بعض السكارى الى لارنودي واصطفوا حوله لعلمهم ان لا بد من وقوعهم اسرى ، ففضلوا السقوط في القتال على عذاب الاستنطاق . فودع لارنودي اصدقاءه وألجأ بلترو ودي رشيان الى الرجوع ، مبينا لهم ان وجودهما مع الجند مما لا بد منه خوفا من الهزيمة . وكان الفرسان العشرون لا يزالون على بعد خمسين خطوة من لارنودي .

واذا به قد ابصر الدوق فصاح الرجال ، اطلقوا النار على الدوق !

اما الدوق دي جيز فنادى فرسانه قائلا الى الامام ! اقتلوا البروتستانتيين !

ولم يصب الرصاص الدوق ، فقال لارنودي ، قتله الله الا يصيب اللعين الرصاص ! الا اطلقوا النار يا قوم مرة ثانية .

ثم تقهقروا شيئا فشيئا حتى وصلوا الى الفندق .

فصدعوا بالامر ، ولما انقشع الدخان ظن الفرسان ان جنود لارنودي قد اخلوا لهم الطريق فقال احدهم ، وهو البارون دي برداليان من رجال الدوق ، تبا للجبناء فقد هربوا :

فاجابه الدوق ، كلا لم يهربوا فقد ابصرت لارنودي في طليعتهم ، ولارنودي لا يهرب دون ان يقاتل بسيفه .

وقبل ان يصل الفرسان الى مقربة من الفندق اعترضتهم مركبة يجرها جنود لارنودي •

وكان المقيمون في الفندق يراقبون المعركة بقلق ، وقد وقفت مارسلين الى كوة تنظر منها الى القتال والفتى جاليو دي ترساك بقربها يتلظى شوقا الى مساعدة لارنودي • اما صاحب الفندق فقد آوى الى زاوية يبكي ويلعن رجال الحرب • وكذلك الاستاذ برنابا فقد توسل الى تلميذه طالبا اليه ان يرافقه الى الطبقة السفلى من الفندق ظنا منه ان رصاص المتقاتلين لا يصل الى تلك الطبقة • وقعد هناك يطالع اشعارا من نظم سنيكا موضوعها احتقار الخطر •

وامر الدوق دي جيز برداليان بان يدور حول الفندق ويهاجم مؤخرة لارنودي • ولحق بالفرسان بعض حملة البنادق من جنود الملك فمروا بين الخيل ، وبات هكذا لارنودي بهذه الحركة التي اتاها برداليان محاطا بالسيوف والبنادق •

وشاهد جاليو دي ترساك كل ذلك فقال ، لا شك ان هذا الشريف شجاع ، وحرام ان يقتله الجنود دون ان يساعده احد • فتشبثت مارسلين به تقول له بحقك يا حبيبي جاليو لا تذهب •

قال ، لا تحاولي ان تمنعيني بل البثي ههنا ولا خطر عليك • اني عزمت على القتال •

وفيما كان جاليو نازلا سمع طلق البنادق وقد خر رفاق لارنودي قتلى الا انه هو بقي واقفا مستلا سيفه منتظرا من يهجم عليه • فناداه جاليو ، صبرا ايها الرجل الشجاع فاني آت لنصرتك !•••

ووثب وثبة صار بها الى جانبه واختطف سيفا من يد رجل بروتستانتي كان مع لارنودي وصرخ في وجوه فرسان الدوق قائلا ، ويحكم يا لئام الا تخجلون وانتم عشرون من مهاجمة شريف واحد ؟

فاستضحك الفرسان الا انهم لم يأتوا بحركة • وكانت الطريق ضيقة ومن يتقدم يخاطر بجواده ونفسه • وصاح الدوق ، بادروا الى قتل هؤلاء البروتستانتيين !!

فأجابه جاليو ، اما انا فلست منهم ايها المولى •
قال ، اذن ما شأنك معهم ؟
اجاب ، اني اقاتل مع الاضعف وهو من تروم اغتياله •
ثم خفض صوته وقال لارنودي ، ان جوادي في فناء الفندق فخذه واهرب من الباب الخلفي اذ ليس عنده احد فتنجو ، اما انا فانني فتى ولا يفتكون بي •

الا ان لارنودي لم يتمكن من الجواب على هذه الكلمات لان البارون برداليان حمل بندقيته واقبل ، فاطلق النار على صدره فسقط صريعا على جثة لافين صاحب سره وكان قد جرح قبل ذلك واغمي عليه • اما جاليو فما برح مجردا سيفه شاتما الفرسان ، فقال الدوق دي جيز هاتوا هذا الغلام الى امبواز •

ولكن لم يكن انجاز ذلك الامر من الهنات الهينات • ففيما كان الدوق دي جيز يطارد الهاربين هجم البارون برداليان على جاليو ، فما لبث البارون ان اصيب بجرح في كتفه من سيف جاليو • فامر رجاله باطلاق النار على خصمه ، الا ان جاليو كان مغرما بضرب السيف كارها للطلقات النارية ، فدخل الفندق واقفل بابه فوجد مارسلين امامه تتوسل اليه وهي تكاد تموت رعبا • فسار بها الى بستان الفندق وكان جواده هناك فركبه واركب مارسلين امامه •
وفيما كان برداليان يقتلع باب الفندق مع رجاله فر جاليو من باب البستان •



وهكذا كان هلاك المتآمرين على يد الدوق دي جيز فامتزجت دماؤهم بمياه نهر اللوار ودام الذبح والتقتيل حتى امتد ستر الظلام . وبان الجنود يسوقون الاسرى الى المدينة افواجا ...

اما امير كوندة فلم يفارق الموضع الذي اقامه فيه الدوق دي جيز بأمر الملك ولم يتجرأ على مخاطبة اولئك الاسرى لانه كان يتوق الى معرفة ما جرى للارنودي ولا يدري هل قتل وضاع كل امل . وفيما هو يفكر ابصر جاليو دي نرساك مقبلا وامامه مرسلين على الجواد منقبة الوجه . فلما اقترب جاليو سدد اليه احد الحراس بندقيته وقال له أأنت من انصار القداس ام من انصار الوعظ .

والمراد بانصار القداس الكاثوليكيون وبانصار الوعظ البروتستانتيون

فارتبك جاليو من هذا السؤال لكنه وقف وصاح ، ليحيي الملك !!

واذ ذاك رأى فارسا اعرج يأمر الفرسان وينهاهم وهو لابس افخر اللباس فعلم انه امير كوندة ، فصاح ايضا ، ليحي الامير !!

فرفع رأسه وقال ، دعوه يدخل .

فقال الحارس ، لعله يا مولاي احد المتآمرين ؟

وهكذا دخل جاليو المدينة مع مارسلين زوجة المحامي افنيل . ولم يكد يسير قليلا حتى سمع وقع خطى وراءه فانثنى فرأى الامير يشير الى زقاق فدخله فتبعه اليه وقال له ، أتدري ماذا جرى في الطريق ؟

اجاب ، لقد قدمت البلد ونزلت في اول فندق الى يسار المدينة . وايقظني في الصباح دوي رصاص البنادق فابصرت جنودا وقرويين مسلحين وهم قاصدون الى المدينة وما لبثوا ان دحرهم فرسان طلعوا عليهم فجأة .

ــ هل رأيت قائد اولئك القرويين والجنود ؟

ـ رأيت شريفا باسلا قد سقط وقت تقهقرهم ولا ادري اذا كان رئيسهم

ـ صفه لي .

ـ انه طويل القامة ، على وجهه امارات العزم ، اسود الشعر يخالطه بياض ...

فخفض كوندة صوته وقال ، لعله هو ... فهل مات ؟

ـ نعم عند قدمي .

ـ هل كنت في جملة المقاتلين .

ـ لا ولكنني رأيت ذلك الشريف الباسل وحيدا يقاتل عصبة فنزلت من الفندق لمساعدته عليهم .

ـ وكيف نجوت منهم .

فضحك جاليو وقال ، لقد كانت نجاتي بأعجوبة .

ـ مع صاحبتك هذه ؟

ـ نعم .

ـ ما اسمك .

ـ جاليو دي نرساك طالب في كلية السربون .

ـ اذن تعال غدا يا مسيو دي نرساك الى القصر واطلب مقابلتي فيه فقد اكون محتاجا اليك .

ـ ليت لي نصيبا في خدمتك يا مولاي ، لان نفسي لا تميل الى تلقي العلوم ودرس اللاهوت كما يروم اهلي .

ـ أتفضل تقلد السيف ؟

ـ نعم يا مولاي .

ـ اذن الى الغد .

ـ الى الغد يا مولاي .

واوصل مارسلين الى زوجها في القصر ، اما هو فاتجه الى فندق ودخله فأكل وشرب وقعد يفكر ، فخطر في باله استاذه برنابا فقال ماذا جرى له يا ترى ؟ وكان جاليو يحب برنابا فلم يتمالك ان فارق الفندق ومضى يبحث عنـــه ..

قلنا ان ذلك الاستاذ اختبأ وقت المعركة في الطبقة السفلى . فلما سمع الجنود يقولون « اين ذهب الطالب اللعين . فلا بد من قتله » ! قال برنابا في نفسه ، لقد امنت عليه الان . وصبر حتى خلا الفندق من الجند فصعد اليه ، ولما رآه صاحبه قال له ، أأنت هنا ؟

فاجابه ، اني اجتنب كل فرصة تسنح لسفك دماء الناس ، فأين الطالب الفتى ؟

قال ، لقد مضى دون ان يدفع الي مالا فلا بد من ان تدفع انت . بل تدفع عن سائر الناس . فان مركبتي تحطمت وبابه اقتلع وجملة ما اطلبـه منك عشرة ريالات ... فلا تخرج من هنا الا بعد اداء هذا المبلغ .

وكان القدر كبيرا والاجرة كثيرة بالقياس الى مبيت ليلة على كرسي في بدروم الفندق الا ان برنابا دفع المبلغ لشدة مسالمته وقال ، هل تدري الى اين اتجه صديقي الفتى ؟

اجاب ، اظنه مضى الى امبواز .

قال ، شكرا لك .

وسار برنابا فالتقى بجاليو عند ابواب المدينة فهنأه بالسلامة ثم قـال له ، ما هذا الجنون الذي دهاك ؟ اتلقي بنفسك الى التهلكة ؟

اجاب ، سوف تلومني فيما بعد يا استـاذي ، اما الان فانت جائـع عطشان ، الا اذا كنت قد تناولت شيئا من المخزون في الطبقة السفلى التي كنت فيها .

قال ، لم أذق طعاما منذ صباح اليوم ، فهل تعرف فندقا صالحا ؟

وبعد نصف ساعة كان برنابا يلتهم دجاجة وينظر مليا الى زجاجة امامه من خمر بورجونيا . فقال لتلميذه هل عقدت النية على ترك المدرسة ؟ فاجابه ، نعم يا استاذي . قال ، لما ذاك !... اجاب ، لانني اريد ان اكون من رجال الامير كوندة . قال ، أتعني ذلك الاحدب ! واي نفع لك من خدمته ؟ اجاب ، نعم انه احدب ولكنه اشجع من الدوق دي جيز عم الملك، ومحبوب من نساء البلاط جميعا ...

وقال برنابا ، ان المرأة مخلوق بديع يوجد في ابخرة الخمر المعتقة كما يوجد في اروقة قصر اللوفر . ألم تفدك مني القدوة الصالحة ؟ ألم تنفعك آرائي السديدة حتى اردت الرجوع عن العيش الرغيد ، عيش العلماء ؟ تقر عيناك بالاضجاع على الثرى البارد حينما اكون متمددا على سرير جيد وفراش لين ؟ ايطيب لك القتال وتلقي ضربات السيوف حينما اكون مستلقيا على كرسي واسع مريح من خشب السنديان اطالع قصائد وتزار ؟ انت تعلم ان التعرض للحرب والنضال يقضي عليك احيانا بالامتناع عن الاكل او باتخاذ خبز القروي قوتا ، في حين ان مائدتي مغطاة على الدوام بغطاء ابيض كالثلج ، عليه قناني الخمر المعتقة والثمار الناضجة واللحوم الطيبة وغيرها من المآكل الشهية ، فهل تستطيع يا جاليو ان تهجر ذلك كله وتقاسي شظف العيش ؟

قال جاليو ، اصغ اليّ يا استاذي لاني اريد ان استرشد برأيك . قال تكلم . قال ، اني اهوى امرأة حسناء منذ بضعة شهور . قال الاستاذ ، قد عرفتها فهي زوجة المحامي ! قال لقد سمعت كلامك يا استاذي دون ان اسبقك بالكلام ، فاسمع كلامي الى اخره . اني اهوى امرأة حسناء كتب اليها زوجها وهو في امبواز يستقدمها اليه فصحبتها الى هنا ، ونزلنا في فندق ، واستيقظنا عند الصباح على وقع الرصاص ، فبادرت انت الى القبو

مختبئا فيه ، ولبثت انا عند النافذة ، فشهدت قتالا بين جماعة من الفرسان، ورجل واحد ، فاسرعت اليه لاسعفه .

فقال برنابا ، وأخطأت يا جاليو اذ ان الاقوى يستحق الاحترام .

قال جاليو ، ان الرجل قتل امامي واراد قاتله الفتك بي فضربته بسيفي واحتجبت عنه . قال الاستاذ ، واحسنت باحتجابك فقط ، قال جاليو ، ولما وصلت الى امبواز امر امير كوندة بدخولي البلد وطلب مني ان اذهب الى القصر ، فالقاه فيه . فوعدته بما شاء ، وتوسلت اليه ان يستخدم سيفي . قال ، ومتى تمضي الى القصر ، اجاب غدا . وان طالبا صغيرا مثلي لا يقوى على مقاومة مثل ذلك الشريف الذي جرحته اليوم . اما اذا كنت من رجال امير كوندة فلا يصعب عليّ الدفاع عن نفسي . قال برنابا ، هذا كلام يقارنه الصواب يا بني ، ولكن بقي امر لم تفكر فيه ، هو ان والدتك لا توافق ابدا على احترافك حمل السلاح ...

قال ، ولكنك ستكتب اليها يا استاذي .

قال ، أأكتب اليها انك تروم استبدال طيلسان الراهب بتقلد السلاح!.

اجاب ، نعم يا استاذي الحبيب . نعم ، تكتب اليها ذلك حبا بي ، وتؤكد لها انني احسنت عملا .

قال ، كيف ذلك وانا لست على رأيك ؟...

اجاب ، دعني ايها العزيز املي عليك الرسالة التي ستكتبها الى والدتي . واما انت فما عليك الا ان تذيلها بتوقيعك .

قال ، وانا فماذا اصنع عندما تصير واحدا من رجال البلاط ؟

اجاب ، ازورك مرة في كل اسبوع وكلما زرتك تعد طعاما فاخرا وشرابا طيبا في اقداح من افخر البلور .

الفصل التاسع

(جيز وكوندة)

وفي اليوم التالي كان البارون دي بردالياك ، من رجال الدوق دي جيز ، وهو الذي ضربه جاليو بسيفه ، طريحا على مقعد امام نافذته في القصر يلعن سوء حظه ، فابصر شابا قد دخل القصر وهو متهلل الوجه . وفيما كان يسأل نفسه اين لقي ذلك الشاب رآه قد مال اليه وحياه تحية حسنة وقال له ، عفوا يا سيدي ، هل لك في ان تدلني على مسكن امير كوندة ؟ فاجابه، اصعد في السلم الكبير الذي تراه هناك ، فان منازل الامير في الطبقة الاولى

قال ، اني خادمك يا سيدي واشكرك كثيرا .

ـ ليس في الامر ما يوجب الشكر ، ولكن ، هل لك في ان تشرفني بمعرفة اسمك الكريم ؟.. اجاب ، اسمي جاليو دي ترساك يا سيدي .

قال ، وانا اسمي البارون دي بردالياك .

قال ، ارجو ان تعدني في جملة اصدقائك ايها البارون .

وبعد هنيهة صاح البارون ، يالله هذا هو الطالب الذي ضربني بالامس وألجأني اليوم الى ملازمة هذا الكرسي . الا انه كان بالامس لابسا ثوب طالب من مدرسة السوربون ، اما اليوم فهو يلبس لباس ظرفاء البلاط ويذهب ليلقي امير كوندة . فالمسئلة غامضة .

وكان جاليو قد وصل الى منازل الامير وهو لا يدري ماذا يفعل . وكان الامير يروح ويجيء في غرفته وقد علم ان لارنودي مات وان المتآمرين تفرقوا ، فكان ينتظر بذاهب الصبر ان يرى الملك ، ليتحقق انهم لا يتهمونه بالاشتراك مع المتآمرين . فلما وقع بصره على جاليو قال له ، ادخل ايها الطالب ، اجاب ، اني اتيت عملا بامر مولاي . قال ، هل تعرف اسم الرجل الشريف الذي سقط قتيلا امامك امس ؟ اجاب ، لقد بلغني اليوم انه يدعى المسيو دي لارنودي . قال ، ولماذا دافعت عنه ؟ اجاب ، لانه كان واحدا يقاتل عشرين .

فنظر الامير الى جاليو مدهوشا فقال له ، اذن انت فتى شجاع كريم .

اجاب ، اني من الاشراف يا مولاي ، وكل الذين دعوا باسمي شرفوه باعمالهم . قال ، ان البارون دي بردليان حانق عليك . اجاب ، لست اعرفه . قال ، هو الذي جرحته امس .

فضحك جاليو . فقال الامير ، اراك راغبا في دخول البلاط وقد استبدلت ثوب الطالب بثوب اخر . اجاب ، لولاك يا مولاي لربما تم قتلي على يد جنود الدوق دي جيز ، فدعني اصير من رجالك !

اجاب ، لقد سرني ذلك منك يادي ترساك ، ولكنك تدري انني لست ذا سلطة كبيرة ، وانك ربما اضطررت الى القتال لاجلي ؟

ــ انما اردت الانضمام اليك يا مولاي لرغبتي في القتال .

فقال الامير ، اني ذاهب للتسليم على الملك فاذا صحبتني ربما التقيت بالبارون دي بردليان ، فلا ارى لك ان تفارق مسكني . وسارجع لالقي اليك بعض الايضاحات .

ومضى الامير الى الرواق الاكبر وقد اجتمع فيه البلاط . فلاحظ لساعته اعراض رجال الحاشية عنه كأنهم خافوا الافتضاح اذا اقبلوا عليه،

واذ ذاك نادى الحاجب بقدوم الملك .

فتقدم فرنسوا الثاني تتبعه الملكة الوالدة وعماه الدوق دي جيز والكردينال دي لورين ، وهما على بعد قليل عنه ، فقال الملك ، لقد رأيتم العصاة ايها السادة يرفعون علم الثورة ويمشون الى امبواز . وانما تفرقوا وانهزموا بحسن فراسة عمنا العزيز ، الدوق دي جيز ، وبالتدابير التي اتخذها . وقد اسرنا منهم عددا كبيرا ، ولسوف يستنطقون حتى نعرف منهم اسم زعيم الثورة . لانهم اذا ثبت ان قائدهم كان يدعى المسيو دي لارنودي ، وهو الرجل الذي كان ابن عمنا كوندة نصيره في كل زمان ومكان ، فمما لا ريب فيه ايضا ان ذلك الرجل لم يتجرأ على مباشرةمشروعه لو لم يجد عضدا اعظم منه .

وهنا رشق الملك امير كوندة بنظرة بغضاء . وكان الامير يسمع وكأن الحديث لا يعنيه . وتحولت اليه الانظار ، واتسع نطاق الفراغ بينه وبين بطانة الملك ، فقال الملك ، ان خادمنا الامين البارون دي برداليان قد تمكن من قتل الثائر لارنودي والحاقه باخيه جسبار . ولما رأينا جرأة بعض رعايانا قد تعاظمت ، لم نجد بدأ من توسيع سلطة عمنا دي جيز وهو الذي دافع عنا ببسالته المشهورة . وقد كتبنا له براءة في هذا اليوم ، وخولناه بها النيابة العامة على مملكتنا فرنسا ، وامرنا رعايانا الامناء المخلصين بان يساعدوه على اعدائنا واعداء ديننا .

واقبل الملك يتحدث مع عمه دي جيز عاطفا عليه ثم دخل حجرته بعدما اعلن انه ذاهب للتنزه في البرية بعد ظهر ذلك اليوم .

فلما ارتفعت الشمس في قبة الفلك خرج الملك ، وتبعه بلاطه فاجتاز الموكب ساحة البلد وارتفعت اصوات المرتاعين لانهم ابصروا في تلكالساحة آلات الاعدام ، والحراس يقودون اليها الاسرى ، ويقتلونهم دونمحاكمة .

فقال الملك ، ان الجلاد قد عانى اليـوم تعبا فمر باعطائه خمسين دينـارا مكافأة له •

وقيل للجلاد ان قتل الناس من غير محاكمة خارج عن القانون• فاجاب، انهم لصوص ، ونحن نقتلهم بقطع رؤوسهم كما تفعل بالاشراف فلا يحـق لهم ان يشكوا •

وقال الدوق دي جيز للملك فرنسوا الثاني : كذلك يهلك اعداء مذهبنا واعداء الملك !

وتجرأ أمير كوندة وحده على الكلام فصاح ، ان هذه المذبحة فظيعة جدا !!

وكان بلاط الشوارع مصبوغا بالدم ، والجثث مطروحة في كل مكان• وقد انتهزوا من ظلام الليل فرصة فذبحوا عددا وفيرا من الاسرى • ولمـا خرج الموكب من المدينة وامكن ان يروا قسما من اسوارها دنت كـاترين من ابنها وقالت له ، انظر ايها الملك !

وارته الاسـوار وقد اتخذ الجلادون شرفاتها لحبال الشنق ، فـابصر جثثا قد جردت من الملابس تتأرجح في الفضاء •

وحجبت الملكة الوالدة وجهها براحتيها وهي تكرر قولها ، انظر ايهـا الملك !!

فقال لها ، الا ينبغي ان نعاقب الثائرين يا اماه ؟

فاجابته ، ولكنهم على كل حال رعاياك ، ولسوف تحتاج الى سواعدهم في يوم نضال •

قال ، ان اشرار الرعايا لا يصلحون للجندية •

ولقد توسلت الملكتان الى الملك كثيرا طالبتين اليه ان يأمر بالكف عن ذبح الناس ، فلم تفلحا الا في اليوم التالي • فلم ينج من القتل الا عـدد قليل من هؤلاء التعساء •

الفصل العاشر

(موعد غرام يتحول الى بعثة سياسية)

ولما رجع الملك من نزهته قصد الدوق دي جيز البارون دي برداليان ليشكره على قتله ارنودي فالفاه كثير الامتنان من انعطاف الملك فرنسوا الثاني ومدحه اياه . ثم قال له الدوق ، اخبرني ماذا فعلت بالطالب الذي ضربك بسيفه ؟ قال ، ان اللعين قد فر مني ، ولكنني سأدركه في القريب العاجل لانه موجود هنا في القصر .

قال ، وكيف ذلك ؟

اجاب ، انه عند الامير !

فبهت الدوق دي جيز وصاح ، اذن فقد كان ذلك الفتى من رسل الامير كوندة ! الا قل لي يا برداليان ، اقادر انت على المشي ؟

اجاب ، نعم اذا كان القصد منه خدمتك وخدمة الملك !

قال ، اذن تعال معي وعجل .

فسار به الدوق الى حجرة فرنسوا الثاني وكرر على سمعه شكوكه فتململ الملك ، واجاب ، سوف نتكلم عن ذلك غدا يا عماه ، اما في هذه الليلة فانني اروم محادثة الملكة . ولك ان تقيم حراسا على ابواب امير كوندة ريثما نرى .

وفيما كان الدوق وبرداليان خارجين من حجرة الملك ابصرا شابا مر بهما وهو يحاول ان ينزل قبعته على وجهه فقال برداليان بصوت منخفض ، هذا هو يا مولاي .

وكان الشاب جاليو ، وهو مبادر الى موعده من مارسلين ، فاختبأ الدوق والبارون في موضع مظلم ثم تبعاه فنزل جاليو الى سلم الحراس والقى كلمة المرور وخرج من القصر .

فقال الدوق لبارداليان ، الا تخاف من جرحك ؟

فاجابه ، اظنه يندمل تماما اذا تمكنت من امساك هذا الفتى الابله .

قال ، لا ينبغي لنا قتله ، ولكن يجب ان نعرف المكان الذي يقصده .

وسار جاليو الى الفندق والرجلان يتبعانه فلقي استاذه برنابا فقال له، اني بحاجة الى غرفتك يا استاذي .

ـ الا تزال مشغولا بالحسان يا ايها التلميذ الصالح ؟ ما اظنك الا مقتولا ذات يوم بكيدهن .

ـ بل ذات ليلة .

ـ بل ذات ليلة . ولكن ماذا افعل انا اذا تركت لك غرفتي ؟...

ـ تشرب زجاجة ، وتنام .

ـ أأنام على المائدة ؟

ـ بل حيث تشاء . ولكن عجل هذه حبيبتي اقبلت !

وعاد يستقبل مارسلين فاصعدها السلم قبل ان يتمكن الدوق والبارون من التفرس في وجهها . بل لبث الرجلان يرصدانه في زاوية القاعة حتى نزل ومارسلين . وكان برنابا قد تنبه اليهما وهو متظاهر بالنوم ، فانذر جاليو وقال له ان هذين الرجلين جاسوسان فحذار منهما .

فارتعد جاليو خيفة ان يكون احد الرجلين افنيل زوج مارسلين . فلما

لم يخاطباه اطمأن قلبه وقال في نفسه انهما يرصدان غيري . الا انه عقد النية على ان يطلهما في الطريق من الفندق الى القصر . وادركت مارسلين مراده فلم تتلفظ بكلمة . وسارا معا وكان الرجلان يتبعانهما . وتبين لجاليو انهما لا يتحولان عن اللحاق به فلم يجد بدا من ان يلجأ الى ايسر الوسائل ، وهي ان يقصد الى القصر ويفترق عن مارسلين قبل الوصول الى بابه فتدخل وحدها ثم يدخل وحده كأنما لا احد يتبعه .

وقال الدوق ، اظنه قد وقع بين ايدينا في هذه المرة .

واوسع الخطى ليدخل القصر وقت دخول جاليو ، الا ان هذا سمع وقع خطى الرجلين وراءه فما كاد يبلغ فناء القصر حتى اختبأ وراء عمود ، وكانت مارسلين قد وصلت الى مخدعها من غير عائق . واخذ الدوق وبردااليان يبحثان عن جاليو ويسألان الحراس ، فلم يعرفا عنه شيئا وطافا في فناء القصر مرارا ثم اتجها الى السلم واذ ذاك ترك جاليو مخبأه واقتطع قطعة من ردائه ، فلف بها حذاءيه لكي لا يسمع لخطاه صوت . وتبع الدوق والبارون بردااليان حتى رآهما وقفا بباب امير كوندة . وابصر احدهما يلصق عينه بثقب الباب وسمعه يغمغم ويقول ، لا صوت ولا ضياء فقد احتال الخبيث علينا ونجا منا .

واستمرا سائرين في الرواق حتى وصلا الى باب عنده حارسان ، فقال الدوق ، هل رقد الكردينال ؟ فاجابه احد الحارسين بقوله كلا يا مولاي . فدخلا غرفة الكردينال . وصبر جاليو وقد سمع قول الحارس «يا مولاي» مخاطبا الدوق ، وابصر الرجل الاخر يرفع يده الى كتفه متنهدا متوجعا فعلم انهما الدوق وبردااليان . وبعد هنيهة رأى الحارسين قد غلبهما النعاس ، فلم يتردد بل مشى ولا صوت يسمع لقدميه لالتفاف حذاءيه بالنسيج حتى وصل الى الباب فرآه غير موصد بمفتاح . وحمله الفضول على فتحه فسمع صوتا واسم امير كوندة يتردد في اثناء الحديث ، الا انه لم يفهم مسا

يقال • فدخل واقفل الباب وجعل خنجره بيده واتجه الى ستر من القطيفة يفصل بين الايوان الذي وصل اليه ، والحجرة التي صدر منها الصوت • وهنا وقف مرهفا للسمع اذنيه • وكان الدوق وبرداليان يحدثان الكردينال بما رآيا ، فقال الكردينال ، الراجح ان ذلك الشاب جاسوس للامير ، وان المرأة التي اجتمع بها في الفندق احدى وصائف كاترين وانها استخدمتها للمراسلة بينها وبين امير كوندة • والان شكرا لك يا برداليان فاذهب لان لي حديثا طويلا مع الدوق • وعند ذلك صاح الدوق بحدة يقول ، ما بالك يا اخي • وهل من حاجة بنا الى برهان اخر يشهد باحترام الامير • الرأي عندي ان نضرب اعداءنا قبل ان يشتد ساعدهم ويصيروا قادرين علينا فيضربونا •

ـ ان ناظر اختام الدولة والقائد الاكبر لضابط الملكة لا بد ان يكونا من اعدائنا ايضا •

ـ لنضرب اولا ابن عمنا كوندة ، اما الاخران فسوف نهتم بهما فيما بعد • ولئن كنت على رأيي دعني اشكوه غدا في مجلس الملك فيدعوه اليه ، واذ ذاك يسهل علينا القبض عليه • ومعلوم ان جميع رجاله مبتعدون الان عن البلاط •

ـ هذا هو الرأي الصواب • فانا انتظر كاترين واسبر غوريتها • ولئن رأيت فيها اقل رغبة في تعضيد الامير هاجمناه كما تقول •••

ـ الى الغد يا اخي • ومضى الدوق •

وقد تأثر جاليو من سماعه هذا الكلام ، وكان من اسرار الدولة وقتئذ ، وفيما هو يهم بالانصراف انفتح باب خفي في الجدار فبادر الى الاختباء مرة ثانية وراء ستر القطيفة • ثم ابصر امرأة ، واذ ذاك قام في سريرته نضال انتهى بقوله لنفسه ، اذا انطوى حديث الكردينال مع هذه

المرأة على غرام ومطارحة ، غادرتهما وشأنهما ، واذا كان فحسواه سياسة لبثت اسمع خدمة لمصلحة الامير . وتلقى الكردينال تلك المرأة بقوله، لقد كنت اخشى ان لا تأتي الليلة .

فاجابته ، ان في محادثتي لرجل فاضل مثلك سروري الاوفر ، ولا سيما اذا شاورتك في ما يعرض لي ويؤثر فيَّ من الافكار .

فرفع الكردينال صوته وقال ، كنت خائفا ان لا تأتي ايتها السيدة لان اسقف شارتر (١) في المدينة على ما قيل لي .

ـ واي شأن لي مع اسقف شارتر ؟

ـ لقد احببته ايتها السيدة .

ـ هل تظن ذلك ايها الكردينال شارل ؟ ولعلك على صواب . انما تذكر امرا هو انه لا ينبغي للعاقل ان يناقش الحساب امرأة على ماضي حياتها .

ـ لو علمت بانك مقيمة على حبه حتى اليوم لسعيت الى قتله .

ـ بغير محاكمة ؟

ـ بغير محاكمة .

ـ انعم بها من وسيلة حسنة للتخلص من الناس . ولكن لما ذلك ؟

ـ لانني اهواك ايتها السيدة ، وانا غيور !

ـ هذه اشياء هائلة تبوح لي بها ، فهلا لاحظت ولدي وعبوسه اليوم؟

ـ ان حبه للدين يهيجه كثيرا .

ـ ان اخاك استخدم ذلك الحب الديني للفتك بجميع اصدقاء ابن عمي امير كوندة . وهو عمل غير حميد !

ـ بل هي حرب صالحة ، فهل تحبين امير كوندة ؟

---

(١) كان شائعا عن كاترين مدسيس انها كانت تهوى ذلك الاسقف .

ــ كلا ••• وهل اهتم بالسياسة ؟ اني لا افهم شيئا من انظمة الحكم ، ولكنني رأيت الدم المراق غزيرا •

ــ انه دم اعداء الكاثوليكيين •••

ــ بل دم الفرنسيين يا كردينال ، ولو كنت في مكانك لاشرت على الملك بالرأفة •

ــ اتراننا نتكلم الآن في السياسة •

ــ لا ، ولكنني امرأة فانا اتكلم بما يشعر به فؤاد المرأة •

ــ اتروسين ان اعضد الامير ؟

ــ ولماذا تسألني هذا السؤال بشأنه دون سواه ؟ فهل يخشى عليه من احد ؟ ولقد تلفظت كاترين دي مديسيس بهذه الكلمات دون ادنى اكتراث، فقال الكردينال في نفسه ، انها لا تعرف شيئا ولا ترتاب في شيء •

وقالت كاترين ايضا ، دعنا من هذه الشؤون السياسية ولنتكلم كلام الفلاسفة الحقيقيين عن خبث الرجال وغدر النساء •••

وهنا لم يشأ جاليو ان يسمع اكثر مما سمع فخرج على مهل فمر بين الحارسين الراقدين ، وقصد الى منزل امير كوندة فاطلعه على ما جرى امامه فقال له ، هل انت على يقين ؟ فاجابه ، على اتم يقين يا مولاي • قال، اذن غدا اكون سجينا ؟

اجاب ، نعم الا اذا سافرت يا مولاي •

قال ، وماذا قالت الملكة الوالدة عندما كلمها الكردينال عن مهاجمتي ؟

اجاب ، لا شيء يا مولاي بل رأيتها تبتسم كانها سمعت حديثا عن حلية نفيسة •

فقال الامير في نفسه : أتتركني هي ايضا ، وهل نسيت ان مرافقتنا واحدة • الا تبا لهذا البلاط اللعين ، بلاط المكر والماكرين !

واذ ذاك سمع جاليو صوتا خفيفا فمال الى الموضع الذي صدر منه الصوت فابصر ورقة صغيرة فالتقطها وقدمها الى الامير قائلا : هذه الورقة لمولاي ولا ريب . فتناول امير كوندة الورقة وطالع فيها هذه الكلمات :

« حذار لنفسك واهرب اذا قدرت ! « كاترين »

فتهلل وجه الامير وقال : لقد اخطأت في ارتيابي بكاترين ، فهي مخلصة للاسرة المالكة . اذن الى الغد يا ابن عمي دي جيز ، وانت يا جاليو اذهب فنم هنيئا فلست تدري اذا كنت تنام غدا .

قال : انني ارحب بالقتال منذ الآن .

واضطجع جاليو في غرفة مجاورة لغرفة الامير .

الفصل الحادي عشر

(مجلس الملك)

ولما استيقظ جاليو كانت الشمس قد دخل نورها مخدعه ، ففتح عينيه وسمع قائلا يقول له ، يلوح لي يا عزيزي جاليو انك تحب الفرش الوثيرة التي في بلاط الملك ؟

فادار وجهه فابصر البارون دي برداليان عند مدخل الغرفة ينظر اليه نظرة الساخر المتهكم ، فلم يقطب وجهه بل اجابه • اني على الدوام احب الفرش الوثيرة •

ــ رأيي انك لا تزدري فرش الفنادق •

ــ نعم اذا كنت على سفر • ولكن يلوح لي انني تشرفت قبل الان بلقائك •

ــ صدقت ، فانك رأيتني ثلاث مرات •

ــ ألم استعلم منك عن طريقي حين وصولي الى القصر ؟

نعم ، وهي مرة واحدة فقط •

ــ لست اذكر غيرها •••

ــ عجبا لمن كان في سنك ويفقد ذاكرته !

ــ لعل ذلك من التربية والعادة ، ولكن تفضل بالدخول الى هنا .

ــ كلا فاني لا استطيع التقدم .

ــ واي مانع يمنعك ؟

ــ اني مقيم هنا على حراستك ولا يحق لي الدخول على منزل الامير .

ــ مقيم على حراستي انا ؟ فهل صرت من القواد العظام حتى صرت انت حارسا عندي ؟

ــ ربما كان ذلك .

ــ تكرم بالايضاح ...

ــ ان الملك امرني بالوقوف هنا لامنعك من الخروج وهكذا لم يبق لك من رجاء في مواعدة وصائف الملكة ولا في التنزه في المدينة .

ــ انت يا سيدي تنم على وصائف الملكة ...

ــ وكيف ذلك ، فهل نسيت ايضا موعدك ليلة امس ؟

ــ موعدي ليلة امس ؟

ــ لا تمزح فقد خرجت امس من القصر .

ــ انا ؟

ــ اني رأيتك بعيني .

ــ أهذه احدى المرات الثلاث التي رأيتني فيها ؟

ــ نعم ايها الطالب .

ــ انت واهم يا سيدي فلست طالبا وانما انا موظف عند الامير.ولكن هل لك في ان تخبرني عن الموضع الاخر الذي اجتمعنا فيه ايضا ...اجاب: حبا وكرامة ... كان التقاؤنا على الطريق الذي بين باريس وامبواز قرب فندق في ساعة قتال ورصاص البنادق يتطاير في الفضاء .

ــ اتلك هي المرة الثالثة ؟

ــ نعم وفيها تلقيت منك ضربة سيف على كتفي • واشار برداليان الى كتفه •

ــ يسوءني كثيرا ما اصابك ولكنني لا اتذكر انني لقيتك في ذلك الموضع او غيره •

ونظر الى برداليان نظرة ساذج حتى جعل هذا يسأل نفسه عما اذا كان واهما • اما جاليو فادرك انه لا يفيده في ذلك الحال الا الاحتيال وقد اقيم الحراس على حجرة الامير بامر الملك ، وليس لدى الامير احد ينصره او يدافع عنه •

فقال ، اذا اعتبرنا ما نحن فيه الان فاننا سجينان ، انا ومولاي الامير ، وانت السجان ؟ أفتأذن لي بانباء سيدي الامير •

ــ لقد انبيء الامير •

ــ من أنبأه ؟

ــ انا يا سيدي ، وقد مضى زمن وانا اقرع بابك هذا حتى اضطرجناب الامير الى ان يفتحه بنفسه وانت نائم ملء جفونك •

ــ ذلك من فضل الشباب •

ــ ذلك من نتائج التعب • وليس بمنكر على من يجول في الاسواق ليلا ان يتعب •••

ــ صدقت ، الا انني نسيت ذهابي بالامس الى مقابلة غرامية • ولكن بحقك يا مسيو برداليان ، الا ما انبأتني عن تلك الحبيبة ، اتراها حسناء ؟

ــ اظنك تسخر بي يا رجل ، فحذار !!

فكاد يرميه جاليو بكلمة لاذعة الا انه امسك عنها ونهض غير مكترث واخذ يتمشى في المخدع حتى وصل الى النافذة ففتحها ليستنشق الهواء • لكنه تعجب لما رأى فرقة من حملة البنادق تحت النافذة • وفي ذلك الوقت رفع امير كوندة الستر عن بابه ونادى جاليو واجتذبه الى وسط غرفته

وقال : تكلم واخفض صوتك ، فقد سمعت ما قلته لهذا البارون اللعين ، واني لراض عنك ...

ــ لقد فعلت ما قدرت عليه .

ــ هل تظن انك افلحت في تحويله عن اعتقاده ؟

ــ لست على يقين ، وانما اظنه قد تزعزع اعتقاده شيئا .

ــ تذكر ما اوصيك به الان ، فاذا سئلت قل انك انما دخلت البلاط بناء على طلب رفع الي من والدتك ، واني عرفت والدك فيما مضى ، واتخذتك وصيفا لي حافظا ولاءه . واما مشاجرتك في الفندق ، وقد افلحت فيها ، فانكرها بتاتا .

ــ سمعا وطاعة يا مولاي .

ــ واعلم ان لا قيمة هنا لغير البسالة والدهاء ، فيجب على المرء ان يحسن ضرب السيف وتدبير الحيلة . ولا تعرض عن وصائف الملكة فهن ثرثارات لا يكتمن سرا عمن يحسن ملاطفتهن ومداعبتهن . وقد بدأت امس بما يعجب ويدهش ، فاستمر على ذلك .

ــ شكرا لك يا مولاي .

ــ واختر من اسلحتي السيف الذي تجده افضل السيوف ، ومن خيلي الجواد الذي يسمع صوتك . واحش غداراتك على الدوام ، فلسنا هنا في موضع دعة وامن ، ولكننا سنقصد النافار [1] في القريب العاجل . فهل تعجبك الاسفار وملاقاة الاخطار ؟...

ــ اني لها يا مولاي .

ــ اني ذاهب الى مجلس الملك فاتبعني وجرد سيفك نصف تجريد من غمده ، والبث مستعدا للدفاع عني عند اول دعوة مني . واتجه كوندة الى باب مخدعه دون ان يظهر عليه شيء من الاهتمام بحاله كسجين . فقال له

(١) النافار مملكة قديمة على سفحي القسم الشرقي من جبال البيرينه .

الباروン دي برداليان ، عفوا يا مولاي ، فانني على الرغم مني لا استطيع ان ادعك تخرج من هنا ، لان الاوامر التي لدي بهذا الشأن شديدة •

فاجابه الامير ، لئن حاولت منعي من الخروج فانت تلجئني الى قتلك

فأثر هذا الكلام في الباروン ، الا انه قال ، ومع ذلك فانني لا آمن غضب الملك اذا تركتك تخرج •

ــ قل غضب الدوق دي جيز لا الملك • الا فاعلم يا هذا ان امراء البيت المالك لا يطيعون غير الملك ، وقد تركتك تمثل في هذا الصباح روايتك المضحكة اما الان فارجو منك ان تترك بابي هذا • على انني ذاهب لالقى فرنسوا الثاني وقد اذنت لك بان تكون من حراس الشرف فتلحق بي •

واجتاز الامير اروقة القصر بعظمة حتى وصل الى قاعة المشورة فقال ، افتحوا ايها الحراس !

فاجابوه ، ان جلالة الملك مجتمع على عميه آل جيز •

قال ، افتحوا ايها الحراس !

فاجابوه ، لقد تلقينا امرا بان لا نفتح لاحد •

فلم يجب كوندة لكنه التفت الى جاليو وقال له ، تقدم ايها الشريف ، ما دام هؤلاء القرويون الغلاظ لا يفعلون ما يجب عليهم فافعل انت •

فتقدم جاليو ففتح الباب ودخل كوندة الايوان الذي اسموه قاعة المشورة وقال للحاجب • انبىء الملك بقدوم الامير دي كوندة ؟

فتردد الحاجب الا ان نظرة الامير كانت فصيحة فلم يتمالك ان زحزح الستر ونادى بصوت يضطرب فقال ، مولاي امير دي كوندة !

فامتنع المتحدثون عن الكلام ، ونظر الملك والدوق دي جيز واخوه الكردينال والملكة الوالدة الى القادم ، متعجبين لانهم حسبوه سجينا يحرسه الباروン دي برداليان •

فصاح الامير بكبر : يلوح لي ان حضوري يضايقكم !

فاجابه الملك بلهجة الغضب قال : لقد كنا نظن يا ابن العم انـك فـي مسكنك !

وكان عما الملك يحدثانه منذ الصباح بما عرفاه في ذلك الليل ويحاولان ان يستصدرا منه امرا نهائيا بالقبض على امير كوندة . وكـادا يحصلان عليه عند دخول الملكة الوالدة الا انها جعلت تلقي الاسئلة عليهما ، وتورى وتلمّح حتى منعت ابنها من التوقيع على ذلك الامر . ولما حضر الامير تحير اعداؤه فقال متمهلا . مما لا شك فيه ان ابن عمي دي جيز كان يفضل ان لا اجيء الى هنا ، الا انني علمت بان جلالتك عقدت مجلسا . ولما كنت مـن امراء البيت المالك ، وكل مجلس لا يمكن انعقاده بدوني ، اتيت لابسط رأيي الحقير في هذا المجلس الكبير ، ولأؤكد اخلاصي لجلالة الملك .

فـتبسمت كاترين وادرك كوندة انها نصيرته في ما يروم فقال ، على ان لدي شؤونا خطيرة اردت ان احدثكم عنها ، وارجو من جلالة الملـك ان يدعو الى هـذا المجلس المسيو دي مونمورانسي [1] في هـذا الصباح ، وسيدعى الى هنا .

فتبسم الاخوان تبسم اكتئاب ، وهمس احدهما في اذن الاخر يقول ، لقد فسد تدبيرنا .

فأجابه ، ان هذه المرأة اقوى منا يا شارل فلا بد من اهلاكها وفي اثناء ذلك تناولت كاترين يدي ابنها ملاطفة وهو لا يحفل بتلك الملاطفة لانه لـم يحب امه قط . وزال ما كان له من العطف عليها منـذ ما تزوج مـاري ستوارت . فكان يرى في والدته حماة زوجته وعدوة عمي حبيبته .

واذ ذاك فتح الباب ودخل القاعة مونمورانسي ، فانحنى امـام الملـك

---

(١) مونمورانـسي اسم اسرة فرنـساوية شهيرة . والمسيو دي مونمورانـسي هذا من اشهر رجالها لانه كان ماريشال فرنسا اي اكبر قوادها .

وكاترين وسلم على الدوق دي جيز واخيه باحتقار ، ودنا من امير دي كوندة ثم قال ، هل دعوتني ايها الملك ؟

ــ لقد دعوتك لاقف على رأيك بشأن المؤامرة الفظيعة التي كدنا نذهب ضحاياها .

لقد اجتزت البلاد ايها الملك ، واجهل ما هي المؤامرة التي تتكلم عنها جلالتك وانما عرفت ان التأديب كان هائلا وان وقت الرفق والرأفة قد ازف .

فعض الدوق دي جيز شاربه واخذ ينظر الى ضفاف اللوار ، فقال مونمورانسي ، هل عرفتم زعماء المؤامرة ؟

اجاب الملك ، نعم .

قال ، وهل من الممكن معرفة اسمائهم ؟

فلم يجب الملك ، غير ان امير دي كوندة استل سيفه من غمده وجعله على منضدة ، والقى قفازه الى جانب السيف .

فصاح الملك ، ما معنى هذا ؟

قال امير كوندة ، لقد مضت ثلاثة ايام وحولي جواسيس مجهولون يرقبون حركاتي وسكناتي ، والشكوك الدنيئة حائمة حولي ، واعدائي الخائنون لا يهابون مهاجمة امير من بيت الملك ولا يرهبون لويس دي بوربون (يعني نفسه) وهم جبناء ، يمنعهم جبنهم من الهجوم نهارا وعلانية، فيعمدون الى السعي والنميمة سرا لاهلاكي . وقد رأيت في صباح هذا اليوم حراسا وقوفا عند بابي وتحت نوافذي ، كأنني من المجرمين . ولقد سألت يا مسيو دي مونمورانسي عن زعماء المؤامرة واسمائهم ، فانا اجيبك انه لا يوجد شاهد واحد يدل على اولئك الزعماء . ولقد اجتهدوا كل الاجتهاد في حمل الاسرى المساكين على الاعتراف كذبا بما لا يعرفون ،

وقد تلفظ بعضهم باسماء ضخمة ، وانما كان ذلك تخلصا من عذاب الاستنطاق الهائل ، وعلى هذه التهم توكأ اعداؤنا ليدخلوا على الملك الشك في اخلاصنا . اما هؤلاء الزعماء الذين لم يشأ جلالة الملك ذكر اسمائهم فاني اذكرها لك يا مسيو دي مونموراتسي ، او انا اذكر لك من يتهمونه خفية ، فأولهم انت !!

قال مونموراتسي ، أنا !... ومن ذا يتجرأ ؟...

أجاب امير كوندة ، ما من احد هنا الا ويتجرأون عليه . أجل ، انهم يتهمونك انت ثم يتهمون زعيم المستشفى ، ويتهمون معكما الامير لسويس دي بوربون .

قال مونموراتسي ، انت ايها الامير ؟

اجاب ، نعم انا . ولم يتجرأ احد حتى الآن على التكلم امامي عن هذه الوشاية الدنيئة . ولكنني مطلع على ما يجري في البلاط . ومن يدري ما يكون لو لم اقدم الى هنا للدفاع عن نفسي ؟... كان يمكن ان يسفك الليلة دم امير ينتمي الى سن لويس ! على انني ايها السادة اجهل ، واود ان اجهل ، مصدر هذه التهم . ولكن اذا تجرأ احد على اعادتها فانا اسأل جلالة الملك ان يتكرم عليّ فيأذن لي بقتله في مبارزة . هذا سيفي وهذا قفازي اطرحهما امام السامعين !...

وكان لهذه الكلمات وقع خطير على السامعين ، فتناولت الملكة الوالدة مسبحتها وبادرت الى عد خرزاتها ، واصفر وجه الملك اصفرارا شديدا وظهرت عليه بقع صفراء هي آثار مرض اتصل اليه من مولده . واما مونموراتسي فلم يكد يتمكن من اخفاء سروره ، لانه كان الد عدو لآل دي جيز ، واما الدوق واخوه الكردينال فلم يعرفا ما يفعلان . فقد استرد امير كوندة في ساعة ، ما كانا يظنان انه اضاعه . ورأى الدوق دي جيز انه

يستحيل الاعتراض ، فعوّل على اتخاذ خطة المسالمة ريثما يتمكن من سوق الامور الى الجهة التي يرومها ، فنهض وقال ، ان هذه التهم ولا شك دنيئة فظيعة ••• واحسبها تحط من قدري كما تحط من قدر ابن عمي الامير ، ولئن وجب قتال لاجلها ، فلا يكون من شهداء لويس دي بوربون احد قبلي لانني اعد هذا الدفاع شرفا لسيفي •

ودنا الدوق دي جيز من امير كوندة ، فلم يسع هذا الا الاعتراف بدهاء ابن عمه فقال له ، اقر لك بان كلامك لا يدهشني ، وهو ما ينتظر سماعه من بطل مثلك ، فانا اشكر لك هذه المؤازرة •

قال ، ألم يكن ذلك من واجباتي ؟

فاستطار الفرح كاترين وقالت ، بل ذلك من واجبات كل خادم للملك •

وهكذا حصل امير كوندة على ما اراد فخرج من قاعة المجلس رافع الرأس تيها ، فوجد عند الباب خادمه الامين جاليو يحدث برداليان ويقول له ، نعم اني لم اتقلد سيفا من زمن الا قريب ، ولم يعلمني استاذي الا المصارعة ، فان بقيت مصرا على منازلتي فاننا سنضطر الى ترك سلاحنا جانبا والمصارعة حتى يفوز اقوانا جسما •

اجاب ، اذن انا انتظر حتى تتعلم استعمال السلاح لان المصارعة ليست من شأني •

ـ هذا هو الرأي الصواب ايها البارون • افتأذن لي بمفارقتك •••؟

ـ بل انا اصحبك ، لان حياتك عزيزة لدي •

وهنا قال امير كوندة ، لا حاجة لي بهذه الخدمة منك يا مسيو دي برداليان ، واشكرك على مصاحبتك اياي •

فاشار الدوق دي جيز الى برداليان يأمره باللحاق به ، وابتعد الامير

مع جاليو فقال برداليان للدوق ، لا يهنأ لي عيش حتى اقطع اذني ذلك الفتى المغفل .

ــ ألم تفتح معه باب الخصام ؟

ــ ذلك مستحيل فهو لا يسمع الا ما يعجبه سماعه ، واذا سمع كلمة مؤلمة اخذ يدمدن .

ــ لعله جبان ؟

ــ كلا ، ولكن لا بد له من سبب يحمله على اجتناب المشاجرة في هذا الوقت ، ولعل لديه امرا من مولاه الامير !

ــ عليك بمراقبة المولى والشاب فقد اخطأنا مرماهما اليوم ولكننا سنصيبهما في وقت غير بعيد .

الفصل الثاني عشر

(كيف فاز امير كوندة مرة ثانية على الدوق دي جيز)

ولما رجع امير كوندة الى منزله بادر الدوق دي جيز الى ملاقاة الملك مرة ثانية فرآه يرتعد من تذكر الحادث الذي وقع امامه • وكان مونمورانسي قد مضى والكردينال ممتعض ينظر الى السهى صامتاً يسأل عما حمل اخاه على الرجوع عن عدوه • اما كاترين فكانت تتظاهر بانها تصلي •

فلما جلس الدوق قرب اخيه قال له ، هل لك في ايضاح معنى خروجك من هنا الساعة ؟

فاجابه ، لقد سرنا في طريق غير قويمة ، ولذلك لم يكن بد من الرجوع

قال كيف ذلك ونحن واثقون بانه كان زعيم المؤامرة ؟

وقالت كاترين ، انه من امراء البيت المالك في فرنسا !

قال الكردينال ، ليس في نظر العدالة امير او كبير !

فقال الدوق ، اصبت يا اخي ولكن ليس ذا وقت التعرض له • فهل ابصرت النار التي اتقدت في عينيه والطمأنينة التي لاحت عليه وهو يتكلم ؟ وقد يكون موته سبباً في فتنة عامة ، وفي تصديق المنشورات والكتب

المهيجة التي تطبع وتنشر في كل يوم ولا تتضمن الا الطعن على آل جيز . فهم يتهموننا باننا نروم ملاشاة الدم الملكي ...

قال : انت تبالغ يا اخي !

اجاب : انا ابالغ ؟.. خذ وانظر !..

والقى الدوق على المنضدة كتابا صغيرا على الصفحة الاولى منه هذه الكلمة : « النمر » . مطبوعة بالاحمر وتحت هذه الكلمة صورة « ارمة » بيت جيز فقال : اليك ما يكتبونه ضدنا .

فنظر الكردينال في الكتاب وصاح غاضبا : من اين هذا ؟

فاجابه الدوق : من اورليان .

ـ اتعرف اسم الكتبي الذي تجاسر على طبعه ؟

ـ كلا غير ان فيالار تلقى اوامري بهذا الشأن وسيقبض على الكتبي ويشنق غدا . ومن سوء الحظ ان الوشايات والسعايات تنتشر بسرعة ، فقد وزعت ألوف من هذا الكتاب ، فلا بد لنا من ان نبرهن لاعدائنا ان هذه المطاعن افتراء وكذب . اما امير كوندة فسوف نلقاه عندما تقوى جيوشنا . وكن مطمئن القلب يا اخي فذلك امر لا تطول مدته .

وكانت كاترين تسمع هذه المحادثة وهي صامتة والملك يصغي دون مشاركة في الحديث مع ان الاسئلة تتعلق بتاجه ، وذانك الرجلان قابضان بايديهما على نصيب المملكة ، ولم ينبهه من ذهوله الا الامل بالقبض على امير كوندة فقال : نعم لا بد من مراقبته ومتى قدرنا على القبض عليه ومحاكمته و ...

وهنا هاجه الغضب فنهض وتمشى الى النافذة وقال : الهواء الهواء والا اختنقت !..

فوثبت كاترين الى ولدها وقد ادركت مراده الا انه لم يستنشق الهواء حتى تراجع الى الوراء وسقط مغشيا عليه . وفيما كانت والدتــه تنهضه دنا الدوق والكردينال من النافذة فتقهقرا في الحال لان الهواء كان يحمل رائحة خبيثة فاسدة صادرة من الجثث التي اسرع اليها النتن وكانت مـلء شوارع المدينة ورائحتها ملء الفضاء فيها وفي ضواحيها . وقد شنق يومئذ من البروتستانتيين عدد كبير في كل مكان حتى في جوار القصر وقرب النهر .

وبعد هنيهة استفاق الملك فكانت اول كلمة نطق بها قوله ، هيــا بنــا نسافر !

فقال الدوق ، الى أين ؟

ــ الى شنونسو او الى بلوا او الى حيث تريدون فان الرائحة هنا لا تطاق .

وقال الدوق ، ولكن متى يكون السفر .

اجاب الملك في هذا اليوم بعينه ، فلست اريد المبيت ههنا . فتدبروا يا عماه ، ان هذه الرائحة تؤذيني .

وخرج ووالدته كاترين تسنده .

وبعد بضع ساعات كان البلاط يسير الى شنونسو وحملوا الملك على محفة وقد اصابته حمى شديدة وقال الطبيب قرئل ان الخطر ينذر حياتــه اذا بقي في امبواز .

وتبع آل جيز الملك وهم حانقون لان سفره حبط تدابيرهم واخبر امير كوندة بما جرى وكان قد خرج راكبا جواده فقال انه لا يرجع الا في المساء، وذلك لان سفره اعاد اليه حريته ، وعرف الاخوان ان الامير لــم يتردد طويلا في ما عزم عليه ، وانه اما ان يكون قد سافر الــى باريس او الــى

النافار ، وكان في هذه المملكة اخوه انطوان دي بوربون ذا الشأن والسلطة والاميرة دي كوندة • وانه متى ابتعد عن البلاط امكنه ان يهيء فتنة جديدة ويجمع جنوداً • فلما وصل الدوق دي جيز والكردينال الى شنونسو ارسلا الى امير كوندة رجلا اسمه دي جنليس لكي يكون جاسوسا عليه ، فلم يرض كوندة ان يقابله الا في اليوم التالي ، فقال له جنليس ، لم اشأ يا مولاي رجوعا الى البلاط قبل ان اعلم اذا كان لديك ما تقوله لجلالة الملك•

فاجابه ، لا شيء عندي سوى انني الحق بالملك عند تمكني من ذلك • اذا رام الاطلاع على خبري فقل له انني خادمه المطيع الخاضع ونسيبه الودود ، وانني برغم التهم التي رميت بها عنده سوف يرى مني اخلاصا دائما ، الا اذا اكرهني على اعتناق غير مذهبي ، فانا لا اسمع قداساً واحتج على الاكراه في الدين •

ـ هذه انباء سيئة ليتك تعهد بها الى غيري •

ـ حبا وكرامة يا مسيو جنليس • ولئن لم تبلغ رسالتي فانا سابلغها بنفسي ، وآمل ان القي اخي ملك النافار ، ولست القاه الا بعد الاستئذان من ملك فرنسا •

وبعد رحيل جنليس ، نادى امير كوندة جاليو فقال له ، ان الوقت لا يتسع للحديث ، وقد فهمت كنه ما ينويه ابن عمي دي جيز • فهو يروم ان يقتادني الى باريس وهو فيها السيد المطلق والآمر المطاع ، او الى مجلس النواب وله فيه الكلمة العليا • وقد خسر ابن عمي المعركة الاولى منذ يومين ، فخير لي ان اتمهل لاتمتع بفشله وانتصاري • فهل تود يا جاليو ان تقابل بردالیان مرة ثانية ؟

اجاب ، لا يلذ لي شيء مثل ان اتحفه بضربة ثانية من سيفي لعله يتأدب معي •

ـ اياك والمبارزة في هذا الوقت ، وانما يجب ان تعلن على رؤوس الاشهاد انك راحل الى باريس لتلتحق بالبلاط ثم تسبقني يوما واحدا .

ـ وبعد اليوم الواحد ؟

ـ متى انقضى النهار ولم تجدني اتيت تظهر الدهش والتعجب ، فيسالونك عني ، فتمازح برداليان حتى يلوح لك ان دائرة المزاح قد ضاقت ، فتسافر لاحقا بي الى غسقونيا .

ولقد انجز جاليو الامر فوصل الى شنونسو ، وكان الملك قد عزم على الوقوف فيها اياما قبل الاستمرار الى باريس . فظل جاليو ثلاثة ايام يجاوب رجال البلاط عن مولاه امير كوندة . ولما رأى ان المستفهمين قد قل وثوقهم بكلامه عزم على السفر . الا ان مارسلين وعدته بليلة في حديقة شنونسو ، فسار الى الموعد ولقي حبيبته في خميلة ملتفة وهي ترتعد فرحا وخوفا الا ان سرورهما باللقاء لم تطل مدته لان حملة البنادق احاطوا بالخميلة من كل جهة وكان فيهم الدوق دي جيزوغيره من رجال الدوق . فقال الدوق ، هل تحققت يا برداليان دخوله هذه الخميلة الكثيفة ؟ فاجابه، نعم .

قال الدوق ، سدوا المنافذ ! وهل عرفت السيدة التي سبقته الى هنا ؟

ـ كلا فانها كانت مبرقعة .

ـ لا جرم انها صاحبته التي اجتمع بها في الفندق . اذن فنحن نكرههما على ان يسلمانا رسالة كاترين المكتوبة الى امير كوندة ، فاني على يقين من ان الملكة الوالدة تراسل الامير ، وان جاليو هو الرسول .

ثم رفع الدوق صوته وقال ، اقبضوا على الاثنين !

وسمع جاليو هذه الكلمات فقال في نفسه هيهات ... يا مارسلين تنبهي

جيدا الى ما يجري . متى سمعتني اصرخ « الي ايها البواسل » اهربي الى ناحية القصر ، لان الطريق تكون وقتئذ خالية لك .

وضاقت دائرة المهاجمين شيئا فشيئا وقال الدوق ، اخرجا والا فالنار !!

الا ان جاليو كان يحاول ان يعرف عدد خصومه فتحقق ان مشيين من المماشي الثلاثة المؤدية الى الخميلة قد وقف فيهما بعض الاشراف متقلدي السيوف وحملة البنادق ، وان الثالث ليس فيه الا اثنان من حملة البنادق . فقال في نفسه ، اذن ويل لهما . وفي اسرع من رد الطرف وثب عليهما فطرحهما على الارض بضربتين من قبضتيه قبل ان يتمكنا من العلم بوجوده . وصاح لساعته ، الي ايها البواسل » !!

فتواثب الدوق ورجاله مزدحمين في المشيين ، وفي اثناء ذلك كانت مارسلين قد انسلت الى طريق القصر . ومن سوء الحظ ان المهاجمين سمعوا وقع خطى مارسلين فحاولوا اللحاق بها ، غير ان المسافة التي بين ذلك الموضع والقصر كانت بعيدة فقالوا سوف نقبض عليها قبل ان تصل . وهو امر عول جاليو على ان يمنع وقوعه . ولما وصل الدوق ورجاله الى المشى القوا جاليو شاهرا سيفه ، فقال برداليان ، هذا هو !

فقال الدوق ، افعل به ما شئت يا برداليان ولكن لا تقتله .

فاجابه جاليو ، شكرا لك ايها الدوق ، فان انعطافك ملأ فؤادي سرورا .

ثم جالد برداليان بسيفه حتى ادناه من وجهه واضطر الدوق الى مد يده ليمنع صاحبه . واذا بالرجال الثلاثة قد اخذوا يتجالدون بالسيوف وجاليو يتقهقر شيئا فشيئا وكان قد استند الى شجرة وامن ان يضرب من خلف ، فاكتفى بان جعل يسدد سيفه الى صدر الدوق تارة والى صدر

بردالیان تارة اخرى بسرعة مدهشة حتى لم يجسر احد منهما على الدنو . وما زال يدافع عن نفسه ويمانع حتى خذلته قواه وايقن ان مارساين نجت، ثم خذلته ساقاه فانحنى فاصابته ضربة من سيف الدوق جرحته . واقبل الرجال فامسكوه . وقال له الدوق ، ان هـذا الفتى شيطان فـي صورة انسان .

قال بردالیان ، انه قتل اثنين .

قال الدوق ، ولو انه التقى بكل منا على حدة لجرحنا نحن الاثنين .

فضحك بردالیان وقال ، انظر الى صدرتك يا مولاي فانها مخضبة بدمك .

قال الدوق ، كصدرتك انت . فانظر اليها .

فقال بردالیان ، نعم ، ولكن هذه الجروح خدوش .

وذلك ان جاليو اصابهما بجراح خفيفة تدل على حذق وبراعة كبيرة في لعب السيف . فقال بردالیان ، هذا هو الذي ضربني بسيفه تلك المرة قد تحققت من معرفته اليوم .

ولما وصلوا الى القصر بحثوا في جيوب جاليو فلم يجدوا معه رسالة. وتكلم الدوق عن استنطاقه فظن جاليو ان وقت الاستنطاق قريب فتظاهر بالاغماء ، فطرحوه في سجن عند قنطرة جسر ، وفي اليوم التالي عصبت جراحه ، وجيء به الى الدوق دي جيز فرآه جاليو غاضبا لان دي جنليس جاسوسه وافاه بانباء سيئة . وذلك ان امير كوندة وصل الى بلوا فأنبأ حكام المدينة انه لاحق ببلاط الملك . لكنه لم يبتعد عن اسوار المدينة الا قليلا حتى انحرف الى طريق اخر وصحبه رجل اسمه روبر دلاهاي فاعمل في شاكلة جواده المهماز سائرا في طريق بواتيه . وقال جانليس ايضا ان الامير لقي في بواتيه شريفا لا يزال يجهل اسمه فصحبه الى غاسقونيا .

فكان الدوق تلقاء هذا الخبر السيء ، خبر نجاة عدوه ، يروح ويجيء في الحجرة . واحس جاليو بالهلاك فقال في نفسه ، اتظاهر بالبلـه ، واذا بالدوق قد تمشى اليه وقال له ، أهكذا تخدعنا يا رجل ؟ اجاب ، انـا يا مولاي ؟ قال ، نعم انت . هيا فاعد على سمعي الايضاحات الحقيقية التـي تلقيتها من مولاك ؟ اجاب لقد امرني الامير بأن اسبقه وانتظره في البلاط . ورفع جاليو بصره الى السماء .

فقال الدوق ، ألم تكن تدري بانه ينوي نية اخرى ؟

قال ، وهل كان ينوي غير ذلك ؟

اجاب ، بلا شك لانه سافر الى غسقونيا .

قال ، سافر الامير ؟.. سافر بدوني ؟.. اواه ، لقد كنت اتمنـى ان اصحبه في سفره ! تلفظ بهذه الكلمات بلهجة صدق واسف حتى نظر اليه الدوق متذهلا وقال ، قسما بشرفي لست ادري اذا كان هذا اللعين صادقا او كاذبا فلم يبق الا الجلاد ... عليّ بفيالار (اسم الجلاد) .

وللحال اقبل فيلار وكان مشهورا بالقسوة ، فارتعدت فرائص جاليـو لما رآه فقال له الدوق ، اتعرف هذا الرجل ؟

اجاب ، لا يا مولاي .

قال ، انه سجين لا يريد الكلام ، فعليك ان تحل عقدة لسانه !

وفيما كان فاليار يدنو من جاليو دخلت الملكة الوالدة حجرة الـدوق فقالت له ، ان ولدي يروم الرجوع الى باريس ويطلب اليك ان تأمر بالتأهب للرحيل .

اجاب سمعا وطاعة يا سيدتي فغدا نسافر .

فقالت ، من هذا الشاب ؟

اجاب ، سجين قبضنا عليه امس انا والمسيو دي برداليان • وهو شاب ذو علاقات بوصائفك •

قالت ، ما اسمه ؟••

اجاب ، اسمه جاليو دي نرساك •

ولم يكن جاليو قد تكلم بعد الا انه امل خيرا من قدوم الملكة فرفع بصره اليها مستعطفا وقال ، اسمي جاليو دي نرساك ، من رجال الامير ، وهم عازمون على تعذيبي •

قالت عازمون على تعذيبك !•• ألم تكن مع الامير عندما سافر ؟

اجاب ، نعم يا سيدتي •

قالت ، وهل يتأخر مولاك عن الحضور ؟

فقال الدوق ، نعم يتأخر ولا شك لانه فر الى غسقونيا لعلمه بانهمجرم، وارسل الينا وصيفه هذا ليخادعنا به • ولا نريد هذا الغبي ان يتكلم فعهدنا الى فيلار بحل عقدة لسانه •

وكان فيلار قد لصق بجاليو وامسك يده ، فتقدمت اليه الملكة ونظرت اليه وقالت ، مسكين !

ثم خفضت صوتها وهمست تقول للجلاد ، لك خمسون دينارا اذا ادعيت ان آلات التعذيب ليست عندك •

وقال الدوق ، خذ الفتى فاننا لاحقون بك •

اجاب نعم ، ولكن ليس في طاقتي ان افعل شيئا هنا •••

قال ، لمــاذا ؟

ــ لاننا رحلنا على عجل من مدينة امبواز ، فغادرت فيها آلاتي •

ــ أليس لديك شيء منها ؟

ـ كلا يا مولاي ، ولا يسعنا استنطاق هذا الشاب الا حين وصولنا الى اورليان اثناء ذهابنا الى باريس . فعض الدوق شفتيه ولم يدر في خلده ان الجلاد كاذب لانه قضى زمنا طويلا في خدمة الدوق وكان فيه امينا فاكتفى بان لعن قلة توفيقه . فقال الدوق لجاليو ، صبرا ان العذاب لا يفوتك .

اجاب ليس لدي ما اقوله يا مولاي في اورليان ولا ههنا زيادة على ما قلت .

الفصل الثالث عشر

(ما وراء طبع الكتب الهيجة من الخطر)

كان الاستاذ يعقوب لوم يتمشى في حانوته في اورليان مسرورا ، ولاحظته ابنته فلم تر على وجهه امارات الانزعاج كالعادة فقالت له ، ها قد طابت نفسك يا ابت فلست اراك مكتئبا ٠

ــ نعم يا ابنتي ، فانني اليوم اشد سرورا مني بالامس ٠

ــ أكنت مغموما يا ابت ولم تخبرني ؟

ــ لم اكن مغموما ولكن القلق ازال سروري ٠ الا تذكرين ذلك الكتاب الذي سلمني اياه بلترو ؟

ــ نعم هو كتاب عنوانه « النمر » كتب ضد الدوق دي جيز ٠

ــ نعم ٠ وقد توسلت الي كي لا اطبعه ، الا انني طبعته خفية عنك ، وكان شديد اللهجة والطعن حتى جعلني افقد راحتي ٠ وكان يخطر لي على الدوام ان احد رسل الدوق قد يعثر عليه في مكتبتي ٠

ــ لقد اتيت امرا ادا يا ابت ٠

ــ لا خوف يا بنية ، فلم يبق عندي الا رزمة واحدة من هذا الكتاب وسوف يأتي صباح اليوم رسول من عند امير كوندة ليأخذ تلك الرزمة ٠ فاذا جاء غدا احد من رجال الدوق الى هنا لم يجد عندي شيئا ٠

واستمر الكتبي يصف الكتب والاوراق ، وانهمكت مادلين في شغل البيت . الا انهما سمعا وقتئذ ضجة في الشارع ، واحسا بقوم مقبلين الى الحانوت .

وكان في المدينة رجل اسمه ماتيو ، ينوب عن الجلاد فيلار في مهمة التعذيب . وقد تلقى امرا بالبحث في مكتبة يعقوب لوم عن الكتب . فاتجه بجماعة من رجاله الى حانوته فدخله فرأى اصفرار الاموات على وجه يعقوب ، فقال له ان اصفرارك يدل على احترامك وعلى ان ضميرك غير مستريح .

فاجابه لوم ان ضمير الرجل الصالح المستقيم مستريح على الدوام .

فرفع ماتيو كتفيه واخرج كتابا من محفظة معه واطلع الكتبي عليه قائلا له : أتعرف هذا ؟

فادرك لوم انه هالك .

فقال ماتيو ، اتعرف هذا الكتاب ؟ انك لا تريد مجاوبتي على سؤالي ، فابحثوا يا رجال .

ولم تطل مدة البحث لان احد الرجال وجد الرزمة في احدى زوايا الحانوت فحملها الى ماتيو ، فاخرج هذا منها مائتي نسخة شبيهة بالنسخة التي كانت معه .

فرفع يده على كتف لوم وقال ، اني انوب عن الملك والدوق دي جيز واستاذي فيالار في القبض عليك !

فاجابه الكتبي ، لا يصيبنا الا ما كتب الله لنا !

وللحال اخذ الرجال بتلابيبه واوثقوا يديه وعزموا على اقتياده الى القصر . وانفاذ العدل في القصر اسرع واعجل من انفاذه في سجن المدينة .

وكانت مادلين تتأمل ما يجري مرتاعة ، والدمع يهطل على وجنتيها • فلما امر ماتيو باقتياد ابيها ترامت على قدمي ذلك الجلاد الشقي وقالت ، كلا يا سيدي حاشا لله وللمروءة ان تفعل • اناشدك الله لا تحرم ابنة من ابيها ، واتوسل اليك ان تتركه لي فليس لي احد سواه وهو قومي واسرتي ••

فقال ردوا هذه الحسناء !

قالت اذن اتأذن لي بان ارافقه واشاطره الاسر فاذا مات اموت معه •؟

قال ، بل البثي في بيتك ، فليس لدي امر بالقبض على غير ابيك ، فلا اسوق احدا سواه •

ودفع الفتاة عنه بعنف فسقطت على قدمي ابيها مغمى عليها • فانحنى لوم وقبل ابنته ثم اتجه الى الباب وقال بصوت هادىء : اني مستعد فلنذهب •

وانتشر خبر القبض على يعقوب لوم ، فكان وقعه على جماعات البروتستانت وقع الصاعقة • اما الكاثوليكيون ففرحوا وطربوا واخذوا يتكلمون عن ثروة الرجل • ويقولون ان مصدرها نشر الكتب المهيجة • ورأوا اعدام الرجل عدلا وانصافا • واستطالت الالسنة على مادلين فذكروا قصة الرجل الذي وجد صريعا تحت نافذتها • وفيما كانت الفتاة المسكينة تصلي عند المساء في حجرتها اسمعوها الكلام القارص والاهانات الجارحة، فلم تنم ليلتها • ولما كان الصباح قصدت القصر وهي ترجو ان يؤذن لها بمقابلة ابيها وتوديعه ، فمنعها الحراس • فقالت لهم ، انه ابي يا قوم ! ان السجين ابي ، واريد ان اراه فاي خطر يخشى مني وانا امرأة ولا سلاح معي • فلماذا تطردونني ؟

فاجابوها اذهبي فالقي الملازم ماتيو فهو الذي يتولى شنق ابيك غدا وفي اليوم التالي اجتمع جمهور غفير في ساحة اورليان وظلت مادلين

ليلتها تسمع وقع المطارق على الخشب . فلما كان الصباح رجعت الى القصر عازمة على انتظار والدها . وللحال انفتح الباب الكبير ومر امامهما موكب من الحراس والجند والجلاد ماتيو يمشي وراءهم ويجيل بصره الوحشي في الجمهور ، وقد البسوا يعقوب لوم ثوبا اسود واحدق به اعوان الجلاد .

فتخطت مادلين الصفوف وارتمت على صدر ابيها ، فاراد ماتيو التفريق بينهما غير ان بقية رحمة منعته من ذلك ، فرافقت الفتاة اباها حتى المشنقة وهي تنظر الى وجهه ، وكانت تمشي على مهل شاعرة بان كل خطوة تدنيها من الساعة الهائلة ، ساعة تغدو ابنة يتيمة . اما يعقوب فلم يتكلم ، بل تهيأ لان يموت موت الشجعان دفاعا عن مذهبه . ففكر في الشهداء الماضين وفي سيره على خطتهم واقتدائه بهم .

ولما آن وقت افتراق مادلين عن ابيها تولاها الضعف والجزع فقال لها، لا تجزعي يا بنية فموعدنا السماء .

فقبلته لاخر مرة وركعت على الارض مخفية وجهها بين راحتيها. فتلفظ الجلاد بكلمات مؤداها مجازاة الخائنين بما يستحقون من عقاب عادل . فهتف الجمهور وصاح يقول ، ليمت عدو الدين !! وليمت عدو الدوق دي جيز !

وهنا قال الجلاد لماتيو ، تعذرني يا كتبي جهنم اذا لم انجز فيك امر الدوق دي جيز لانه امرني بشنقك على خشبة عالية ، ولكن الوقت لا يتسع للبحث عن شجرة فانا اشنقك بالحديد .

وطوق عنقه بطوق من حديد وضغطه به فازهق روحه كما فعل بجسبار عديل لارتودي فيما مضى .

فلبثت مادلين وقتا طويلا في ذلك المكان ، ولما خطر لها الانصراف وجدت بلترو بقربها وكان قد سافر ليلته بطولها ليرى صديقه في اواخر حياته ، فامسك بيد الفتاة ومشى واياها الى البيت ، فقالت له اليك كل ما نمتلكه من مال فادفعه الى اولئك الانذال حتى يأذنوا لك بنقل جثة ابي.

فاجابها سافعل يا مادلين .

قالت ، شكرا لك يا بلترو فاني لم ار سواك في وقت الشدة .

ودفع بلترو ثلاثين دينارا حتى تمكن من اخذ الجثة ودفنها . وعاد الى مادلين فسار بها الى المدفن وجاء بقسيس ليلا فصلى على الميت . ثم ان مادلين اكرهت صديقها الوحيد بلترو على المبيت عندها تلك الليلة فقال لها، لست قادرا على قبول هذه الدعوة خيفة ان ينثلم صيتك .

فاجابته بكآبة ، ان المدينة كلها تحسبني فتاة ساقطة ، فلا صيت لي ... وغدا تتكلم عن الماضي .. وعن المستقبل .

وفي اليوم التالي نزلت مادلين الى الحانوت فابصرت فيه كل ما يذكرها بأبيها فبكت بكاء شديدا ولحق بها بلترو فمدت اليه يدها وقالت له ، انت اخي فانا احبك حب الاخاء ويحق لك ان تطالبني بايضاح عما مضى .

قال ، بالله ولم الكلام عن اشياء مضت ؟

قالت ، يجب ان تعرف كل شيء ، ولا بد لي من عفوك . فقد كنت تهواني ، وحملني جنوني على ان احتقر هواك ، الا ان ذلك لا يمكن تلافيه .. كنت اهوى الملازم فرنسوا ، وهو الذي كاد ان يقتلك في احدى الليالي والقاك تحت نافذتي .. وكنت اجهل انك الرجل الذي وثب اليها من الشارع .

فسبقها الكلام قائلا ، هل تعرفين يا مادلين اسم الرجل ؟

اجابت : اسمه فرنسوا ... وهو ملازم ... وقد وعدني ...

قال : يا لك من فتاة مسكينة !... لقد وعدك بان يقترن بك ؟ ... أليس الامر كذلك ؟

وفي تلك الدقيقة سمعا قرع الطبول في الساحة ، وارتفعت اصوات الناس ، فارتعد بلترو وصعد الى شرفة البيت فتبعته مادلين فابصروا جمهورا من الاشراف لابسين افخر الملابس وهم يتقدمون المركبات الى ساحة اورليان .

فقالت مادلين : ما هذا ؟ أليس بلاط الملك ؟

اجابه : نعم يا مادلين ، هذا موكب الملك فرنسوا الثاني ، فانه راجع الى باريس مارا باورليان .

واذا بمادلين قد مدت يدها الى احد الفرسان وقالت لبلترو بصوت خشن : من ذاك الفارس ؟

فلم يحر جوابا .

قالت : تكلم بحق السماء !

اجاب : هو فرنسوا دي جيز .

قالت : يا للداهية .

وسقطت على الشرفة من غير حراك لانها عرفت به الملازم فرنسوا . فوثب اليها بلترو وحاول تنبيهها واعادة رشدها اليها وكان يغمغم الكلام قائلا : ويل لك يا دوق فرنسوا ، وويل لقومك لان كل ما جرى يستحق القصاص :

الفصل الرابع عشر

(ليلـة جميلة)

كان الدوق دي جيز قد عزم على الوقوف في اورليان ليأمر باستنطـاق جاليو دي ترساك ، وكان معنى الاستنطاق في ذلك الزمن تعذيب المتهـم بآلات التعذيب . ولكن لما ذكر للدوق اسم الكتبي الذي شنـق بالامس اوسع الخطى خائفا ان تجمعه الصدفة بمادلين . فاكتفي بان امر بردالـيان بشدة مراقبة سجينة . ولقد كان سفر السجين على مركبة مقفلة محوطـة برجال مسلحين تلقوا امرا بقتل السجين ان هو حاول فرارا . وفيما كانوا خارجين من اورليان قال جاليو لبرداليان ، اني ارى لك وجها باسما بشوشا وطلعة بهية ...

ــ هب الامر كذلك .

ــ ان توفيقك ينسيني حبيبتي الحسناء وكان جاليو يحاول بمثل هذا الكلام ان يحمل سجانه على الثرثرة والهذر لانه رآه يطالع تذكرة . وقال في نفسه لعلها تذكرة غرامية ضرب له فيها موعد ، فاذا ذهب اليـه تمتـع جاليو بحريته ساعة من الزمن .

وفيما كان جاليو يأكل طعامه عند المساء احس بورقة في اللقمة فارتعد ولما اشعل الحراس مصابيحهم انتهز تلـك الفرصة فقرأ في الورقة هـذه الكلمات .

« كن مستعدا في هذه الليلة ، انا نسعى لك » .

فقال في نفسه ، هذه رسالة من الملكة الوالدة لان ورقها معطر وكتابتها دقيقة . واطل من المركبة فابصر البارون ما زال يقرأ تذكرته . وكانوا قد وصلوا الى موضع يقال له ارتناي . ودخل بعض الاشراف بيوتا فيه ترجى منها حسن الضيافة ، واما القسم الاكبر منهم فتهيأ للرقاد في المركبات . ولم يشأ جاليو رقادا من غير ان يخاطب برداليان ويتمنى له الهناء التام في ليلته فقال له اسأل الله لك يا عزيزي برداليان احلاما تبرز فيها لك حور الجنان متبرجات متزينات ، فقد عزمت على الرقاد .

وبعد هنيهة تمدد جاليو على وسائد المركبة واخذ يغط غطيط المستغرق في نومه . ولبث برداليان بقربه ساعة واخذ يشدد التنبيه على رجاله بالمراقبة والحراسة . ثم بادر الى موعد ضربته له احدى وصائف الشرف في التذكرة الآتي نصها :

« عزيزي البارون

« متى وصلنا الى ارتناي ، وانطفأت الانوار ، ونام سجينك ، تعال اليّ وقف تحت نافذتي فاني اود سماع كلماتك الغرامية » .

« اناييس »

فلما مضى برداليان فتح جاليو عينيه وجعل ينظر الى الطريق وكان عنده اربعة من الحراس ، رابعهم زعيمهم . وكان يتمشى الثلاثة وهم يتحدثون اما الزعيم فكان واقفا وحده يترنم بانشودة غرامية ويقول في نفسه ، قاتل الله الوحدة !

وكأنما اجاب الله دعاءه فمرت به وقتئذ ماشطة الملكة وهي فتاة ايطالية اسمها « جذابة » فقال لها الى اين ؟ اجابت ، اني اتنزه ايها الزعيم

واقتطف الازهار . قال : الا تخافين من التنزه ليلا ؟ اجابت : انا اخاف ؟ انت تدري انني لا اخاف الرجال . قال لا يليق بك يا جذابة ان تسيري وحدك ليلا فبحقك الا ما اذنت لي بصحبتك ؟

وبهت جاليو لما رأى تلك الايطالية قد تناولت يد الزعيم فقال في نفسه: ان جذابة هذه سريعة الانقياد !

ولم يكد ينطلق الزعيم والايطالية حتى اقبل خادم يحمل زجاجات ملأى . فقال له احد الحراس : الى اين ؟ فاجابه : اني ابحث عن جنود البارون برداليان . قال : لقد وصلت : فنحن جنوده . قال : لقد سرني ذلك لان ساعدي يكاد ينكسر من ثقل هذه الزجاجت . احقا انكم جنود البارون ؟ اجاب : نعم : فما الذي تحتاجه منهم ؟ اجاب : ان البارون ارسل اليكم هذه الزجاجات .

ــ ايروم حفظها لدينا ؟ اجاب الخادم : بل ارسلها لتشربوها .

ــ غدا ؟ اجابه : بل الليلة . فان البارون طروب . وقد ود ان يطرب جنوده مثله . ثم انه اعطاني هذا النرد .

قال احد الجنود : هذا يصلح للعب وليس لدينا نقود . فقال الخادم : ولقد ارسل اليكم نقودا كذلك : لكل منكم ستة دنانير .

فاجابه الجندي : ليس ذلك الكرم من عادات سيدنا البارون : فهل لك في مشاطرتنا اللعب والخمر ؟

ــ حبا وكرامة يا اصدقائي :

وكان جاليو يرى ويسمع فظن ان حورية من حور الجنان اتت هذه المعجزات لنجاته . وللحال شرب الجنود الخمرة : وتفرقت الدنانير بين ايدي الرجال من رابح وخاسر : كما تفرقت الخمرة في الرؤوس فاسكرتهم .

فقال جاليو في نفسه ، لم يبق الا ان انتظر الدفعة الاخيرة ، وما وراءها الا جواد وسيف ونقود ... يا لله ! افي يقظة انا ام في منام ..؟. ذلك لانـه أبصر امرأة تتمشى على مهل ، فمرت على مقربة من الجنود وقد اخذهـم النعاس ، ففتحت باب المركبة وامسكت يد جاليو وقالت ، تعال !

فارتعد جاليو وقد عرف الملكة الوالدة فتبعها من غير ان يتلفظ بكلمة، فخرجا من ارتناي ، وتجاوزا الحراس بعد ان القت الملكة كلمة المرور . فقال لها جاليو ، الى اين ايتها السيدة ؟

اجابت ، اخفض صوتك يا غلام فان الجواسيس حولنا وقد يسمعنـا سامع .

ولم يتجرأ جاليو على الكلام ، فسارا حتى ابتعدا عن ارتناي ، وجاليو يعجب بتلك المرأة التي تتحمل مشقـة السير اكثر مـن كل وصيفة مـن وصيفاتها ، واذا بوقع حوافر جواد قد طرق آذانهما فقالت الملكـة ، قـد وصلنـا !

وكان للطريق عطفة وقف عندها رجل بيده زمام جواد مسرج ، وعلى سرجه سيف طويل وغدارتان وخنجر ، فصاح جاليو ، انك انقذتنـي يـا سيدتي ، فشكرا لك من صميم فؤادي .

قالت ، وكيف جرحك ؟

اجاب ، انه شفي تماما الآن .

قالت ، قد يسيل دمه من حركة الجواد ، فخذ هذا المرهم انـه يتمـم الشفاء .

اجاب ، ازيدك شكرا يا مولاتي واسألك ، اي حاجة لك ؟

قالت ، ان امير كوندة ينتظر وصولك .. فـلا تنكر عليّ امرا قـد

حزرته • فخذ هذه الرسالة اليه ولا تسلمها لاحد سواه • فاذا تبعك احد فاعمل في شاكلة جوادك المهماز ، وتحت السرج نقود كافية لشراء جواد اخر • واياك ان تدع الرسالة تسقط منك او تصير الى يد سواك •

اجاب ، سوف اهلك يا سيدتي قبل ان اسلمها الى احد •

قالت ، وتسلم الامير هذه الرسالة التي كتبتها الآنسة دي ليمول •

وكان ضوء القمر مشرقا على وجه الملكة ، ودهش جاليو من حسنها فقال ، اني لك يا مولاتي روحا وجسدا • بل انا مستعد لان اموت في الدفاع عنك • ولكن اود ان لا اموت دون ان اتزود بنظرة من وجهك

فتبسمت الملكة وحلت من عنقها تصويرة مصغرة لطيفة ، دائرها مرصع بالحجارة الكريمة ودفعتها الى جاليو • فتناولها منها ولثم يدها ثم وثب الى جواده • فتأملته الملكة هنيهة واشارت اليه اشارة وداع وقالت ، ادعو لك بالتوفيق ، فتشجع !

وللحال اختفى جاليو وعادت الملكة الى ارتناي وهي تقول ، عسى ان تكون انابيس قد تمكنت من حجز البارون عندها •

وكانت انابيس قد اجتذبت البارون بردايان الى الجهة الاخرى من القرية وتمكنت من استبقائه لديها حتى انتصف الليل • فشيعها الى بيتها وهو يقول لها ، ما احلى هذه الليلة يا حبيبتي !

فقالت له كفى يا بارون تغزلا ، فلي حاجة اليك •

ـ تكلمي •

ـ لقد عهد اليك الدوق بالقيام على حراسة شاب جميل المنظر •

ـ نعم ، هو جاليو دي ترساك رسول امير كوندة !

يقال انه صبيح الوجه •

ــ قد يخطىء القائلون .

ــ ويقال انه حلو المعاشرة ، بارع الظرف .

ــ ذلك ضلال .

ــ وانـه شجاع !

ــ بل يحسن الدفاع عن نفسه اذا هجم عليه مهاجم ليقتله . فما مرادك من هذه الاسئلة المتوالية ؟

ــ اود ان ارى سجينك غدا .

ــ ما هذا الخاطر الذي خطر لك ؟

ــ عدني بذلك يا بارون .

ــ وهل استطيع ان ارفض .

ومضت الى موضعها بين وصائف الملكة . وعزم بردالیان على الذهاب الى فراشه للرقاد لكنه رأى ان يرقب سجينه قبل ذلك . ولما تبين له من بعيد ان انوار الحرس مطفأة تولاه شيء من القلق . ثم تحول قلقـه الى انزعاج لما لم يجد زعيمهم قرب المركبة . ولما اقترب وابصر جنوده نائمين ملء جفونهم في وسط الطريق وبجوارهم زجاجات الخمر الفارغة والنرد هاج هائجه حنقا . ودخل المركبة فلم يجد جاليو فيها ، فضرب برجله احد الجنود وبعد عناء ايقظه وقال له ، ماذا تفعل يا حيوان ؟

فنهض يمسح عينيه ويقول اني ... انام ...

قال تنام وتغفل عن الحراسة ، والسجين ؟

فكرر قوله ، الحراسة والسجين ؟ ثم تساقط على الارض من شدة السكر . فاضطر بردالیان الى ايقاظ كل جندي واحدا بعد واحد وتنبيههم جيدا حتى وقف الثلاثة امامه وهم يترنحون سكرا . فقال لهم وصوته

يرتجف غضباً : ما معنى هذه الزجاجات الفارغة ؟

فاجابوه ، انها زجاجاتك ايها المولى !

قال ، وكيف ذلك ؟

قالوا ، انها تلك التي ارسلت بها الينا مع الخادم .

قال ، انتم مخطئون ولا يزال السكر آخذاً منكم . فما هذا الكلام ؟

فاجابه احدهم ، هو الحقيقة .

قال ، اين زعيمكم ؟

اجابوا ، زعيمنا ؟. .

وقال احدهم ، لست ادري اذا كان ينبغي ان اتكلم .

قال برداليان ، ويك تكلم والا قتلتك !

اجاب ، ان زعيمنا ذهب مع امرأة !

قال ، من تلك المرأة ؟

اجاب ، اسمها « جذابة » .

قال لعنة الله على الايطالية اللعينة ، اني وقعت في الشرك !

وللحال عقد برداليان نيته على امر ، فبادر واخبر احد رجال الدوق دي جيز ان سجينه قد تمكن من الفرار ، ولم يزده بياناً سوى انه سيلحق به . ثم غادر جنوده ، ولم يكونوا في حالة صالحة للمساعدة ، فاختار ستة آخرين واركبهم افراساً ووثب واياهم في طريق اورليان وهو يعتقد انجاليو قد سافر الى غسقونيا .

الفصل الخامس عشر

(صديق لجاليو)

كان الفندق الذي اقام فيه برنابا ، استاذ جاليو ، من احسن الفنادق . فلم يأسف على فراق تلميذه في بادىء الامر لانه اعجب بطعام الفندق وشرابه . غير انه ما لبث ان ادركه الملل وتولاه الضجر والسأم فعول على الرجوع الى باريس ، وخامره شيء من القلق لان تلميذه كان قد وعد بان يعرج على امبواز قبل ان يلحق بامير كوندة . فجلس عند المساء قلقا ولم يشعر بشهية الطعام . وانه لكذلك واذا بتلميذه جاليو قد ظهر عند باب الفندق محجبا بالعرق والغبار . فهجم عليه برنابا بلهفة واشتياق . فبدره بقوله ، الطعام قبل كل شيء !

وجلس الاستاذ والتلميذ الى مائدة في غرفة برنابا ، لان جاليو لم يشأ ان يتعشى في القاعة العامة . فلما شبع جاليو وارتوى قال لاستاذه ، سل الآن ما بدا لك . قال ، حدثني بخبرك واكفني مؤونة الاستفهام . ماذا وقع لك بعدما تركتني للوحدة والوحشة ؟ اجاب ، كيف تذكر الوحدة والوحشة وانت في فندق انيق قد اشتهر في بلاط طوران بمطبخه وحلواه وخموره . قال ، لقد تركتني يا ناكر الجميل ولو لم تعد لانتقلت من الحياة الى الموت .

اجاب ، لو وقع ذلك لكان الخطب جللا . فقد سافرت مع الامير حتى

اوصلته الى البلاط وانتظرت ، ولما رحل الامير ولم يرجع قبض عليّ دي جيز وحبسني ، ولولا الملكة كاترين لاسلمني الى الجلاد ، وهو فاليار شر الجلادين . قال ، ألم اشر عليك بان تبقى في مدرسة السوربون بدلا من السقوط في مفاسد البلاط ومهالكه ؟

اجاب ، ليس ذلك بالامر الذي يستحق الذكر بعدما انقذتني كاترين مرتين . الاولى في شنونسو والثانية في ارتناي .

قال ، ان كاترين هذه ملكة عظيمة .

اجاب ، منذ ليلتين نصبت شركا على يد خادمة ايطالية لسجّاني،وسكر السجانون الاخرون ، ثم اقبلت الملكة بنفسها عليّ .

قال ، الملكة بنفسها ؟

اجاب ، نعم ، فتناولت يدي واعطتني جوادا وذهبا وسيفا وغدارتين وخنجرا نفيسا ورسالة الى امير كوندة ، فانا سفير يا استاذي . وقد بحت لك بسري فاقسم لي على ان تموت قبل ان تبوح به .

فانشرح صدر برنابا لسرور تلميذه ، ورفع زجاجة خمر بيده وقال ، اني اقسم لك . ثم قال ، ان هذه الملكة بديعة ، ولا ادري لماذا يفضل عليها الملك فرنسوا الثاني دوقة من فالنتين ، وآل مدسيس اقدم نسبا ..؟ قال جاليو ، بل يقال ان اسرتها قد تعاطت التجارة قديما . اجاب ، كلا يا بني .

وهنا اخذ الاستاذ يسرد على تلميذه نسب اسرة مدسيس باسهاب ، حتى قال جاليو ، تالله لئن لقيت الملكة كاترين لاطلعتها على تاريخ قومها .

فطفق برنابا يفيض في شرحه حتى غلب النعاس جاليو ، فحمله كانه يحمل طفلا صغيرا ووضعه على فراشه وقعد الى جانبه لكي يرقب يقظته ، الا انه ما لبث حتى نام مثله . وفيما كان جاليو يرى في حلمه مارسلين

والملكة كاترين ، ضرب باب الغرفة ضربات متوالية عنيفة ، فصاح الاستاذ، مهلا بحق السماء ! فعندي غلام نائم • فقيل له ، افتح ! قال ، من اتسم ؟ قيل ، افتح باسم الملك !!

فنهض جاليو وبادر الى النافذة ليثب منها الى الارض ويفر ، فابصر تحتها ثلاثة رجال يحملون الحراب فقال ، ويلاه لقد فسد كل تدبير • ولكن لماذا تركتني انام يا استاذي ؟ فاجابه ، لقد كنت نائما نوما عميقا •

وتكرر النداء من الخارج فعرف جاليو صوت البارون دي برداليان • فتناول رسالة الملكة ودسها في ردنه حتى يبتلعها بسهولة عند الحاجة • ثم حشا غدارتيه وعلقهما في نطاقه ، وشهر سيفه الطويل واعد خنجره ، ثم طلب الى برنابا ان يختبىء في احدى الخزائن •

وكان برداليان ورجاله بالباب يصرخون ، افتح الباب ! واستمر ذلك بضع دقائق ، ثم انكسر الباب تحت صدمات المهاجمين ، فابصر جاليو جماعة من الرجال قد ملأوا الدهليز ، وكان احدهم يحمل مصباحا فاطلق عليه جاليو النار فخر صريعا وانطفأ مصباحه معه • وكان جاليو قد لاحظ جهة الباب فطرح عنده كل ما امكنه طرحه من صحون وزجاجات وكراسي حتى قال برداليان ، ما احسب الذين في داخل هذه الغرفة اقل من عشرين رجلا•

الا ان جاليو لم يقتنع بفوزه الاول • ففيما كان برداليان نازلا ليعد هجمة ثانية جذب السرير الى امام الباب ، وكان يأمل بذلك ان يتمكن من طلقة نارية ثانية ، الا انه لم يكن قد حسب حسابا لمن في الخارج • ففيما كان يسدد غدراته الى احد رجال برداليان سمع النافذة وراءه تفتح ، فانثنى واطلق النار على راس احد الجنود وكان قد صعد الى الشرفة وسدد اليه الطلق • وهكذا قتل جاليو رجلين الا انه لم يبق له الا سيفه وخنجره•وفيما كان جاليو يطرح قتيله من الشرفة كان برداليان قد قلب السرير والامتعة

وتقدم الى عدوه ومعه اربعة رجال . ومعلوم ان البارون تلقى امرا بان لا يقتل جاليو بل يقبض عليه حيا . وقد ظن جاليو ان ساعته الاخيرة قد دنت . وركع برنابا يصلي في مخبأه . فاستند جاليو الى الجدار بعدما اجتذب اليه خوانا وكرسيين ، وجعل يمد سيفه الطويل الى الرجال فلم يجسروا على الدنو منه برغم حرابهم . فاضطر برداليان الى الهجوم عليه بنفسه قائلا لرفاقه ، اهجموا عليه انتم من جانبيه .

وللحال ناله جاليو بضربة سيف على كتفه اليسرى . وقال له ، لقد ظننت ان هذه الكتف تحسد تلك .

فصرخ برداليان من شدة الحنق والكمد وهجم على عدوه وقلده رجاله حتى ضايقوا جاليو مضايقة ظن معها ان هلاكه محقق ، ومع ذلك فلم يصب الا بخدوش هشمت ساعديه وكتفيه فتجلد . ثم دنا احد الجنود رافعا حربته ، واذا بجاليو قد طعنه في عينه بخنجره فارتمى المسكين من غير حراك على الخوان فانقلب معه وزال حصن كان جاليو يحتمي به . فلما رأى سائر الرجال خلو الساحة تقدموا ، فصاح بهم برداليان لا تقتلوه وانما اضربوا ساقيه .

فارتعد جاليو لعلمه بما وراء نجاته من عذاب يلقاه من يد الجلاد ، واشفق برنابا على تلميذه فاضطرب وهو في مخبأه اشد اضطراب ، وللحال خطر له خاطر عجيب ، فقبض على زجاجة خمر وخاطبها بقوله انطلقي ايتها الزجاجة المحبوبة رسولا الى هؤلاء الرجال المسلحين فابلغيهم ان في الخمر منافع للناس ، واطفئي انوارهم وانقذي تلميذي العزيز .

ثم صوبها الى البنادق الثلاث فرماها بالزجاجة ، فانصب ما فيها على ذبال البنادق فتقهقر الرجال الثلاثة مذعورين ولجأوا الى الباب فاعترضهم

رجل طويل القامة وقال لهم ، الى الوراء ايها القتلة ، يا من لا يستنكفون من مهاجمة شريف واحد وهم عشرة .

ثم قال لجاليو ، مهلا ايها البطل اني نصيرك .

وكان جاليو في اشد الاحتياج الى هذه المساعدة لانه كاد يفقد حواسه. وتأخر برداليان لينظم القتال تنظيما اخر فانتهز جاليو هذه الفرصة فتخلص من الرجل الاخير حامل الحربة ، وكان نصيره الجديد قد طرح اثنين من حملة البنادق فبقي برداليان بين سيفين ، فلاح له ان اجله قد دنا ، وخطر لجاليو ان يرديه قتيلا الا انه ابى ان يقتله ومعه رجل اخر ، فقال له ، سلم نفسك ! اجاب ابدا ! قال ، اذن نأخذك اسيرا .

ولم يكن برداليان قادرا على مقاتلة ذينك الرجلين ، لان صديق جاليو الجديد كان ماهرا مثله في ضرب السيف فما لبث ان اصيب بجرح وسقط مغمى عليه فانثنى الطالب الى منقذه وصاح يقول ، لست اعرفك ياسيدي، وانما اعرف انني لولاك لكنت قتيلا . فحياتي لك واسمي جاليو دي نرساك من رجال امير دي كوندة .

فاجابه ، ان الامير جندي شجاع ، وقد قاتلت تحت امرته . ويعجبني انني اسديت يدا الى واحد من رجاله البواسل واسمي ترولوس دي‌مزغونة

فتأمل الرجلان وقتئذ ساحة القتال فابصر الجثث مبعثرة والكراسي مقلوبة وصاحب الفندق بالباب حاملا مئزره باحدى يديه ماسحا بالاخرى عينيه ، ورأس برتابا بارزا من باب الخزانة وقد تنهد وقال ، يا له من منظر فظيع !

فقال صاحب الفندق ، ومن يدفع لي ثمن ذلك كله ؟

فعطف جاليو على البارون وفحص جراحه فلم يجد فيها جرحا مميتا .

فوضعوا الجرحى على الفرش ، ونقلوا القتلى ، واعد صاحب الفندق لائحة بمبلغ كبير تمكن جاليو من دفعه من مال الملكة الوالدة . فخلا الصديقان وبرنابا فقال جاليو ، اي جهة تقصد يا سيدي اشمالا ام جنوبا ؟ فاجابه ، كنت ميمما بلاط فرنسوا الثاني في طلب التوفيق فهل لك في مساعدتي ؟

فاجابه ، نعم ولكن الامير ورجاله ليسوا على وفاق مع بلاط الملك في هذه الآونة . واني ذاهب الى غاسقونيا لالحق بالامير .

قال ، لست ارى الطرق طرق امان ، فهل لك في استصحابي ؟

اجاب ، حبا وكرامة ، ولكن ذلك السير يرجعك الى الوراء .

قال ، لا يهمني ذلك . فانت تعرّف الامير بي فيذكر انني كنت من المقاتلين تحت لوائه ثم نرجع معا الى البلاط . فما رأيك ؟..

وتصافح الرجلان ، فقال برنابا ، وانا فماذا افعل ؟

فاجابه جاليو ، انشىء خطبة بليغة عن القتال الذي شهدته ، وفصّل فيها كل ما رأيته من بداءة المعمعة حتى وصول دي مزغونة ، وقد كان سيفه آية النصر لنا .

فقال مزغونة ، ولماذا لا تسافر معنا ايضا ؟

قال ، الى غاسقونيا ؟

اجاب جاليو ، نعم فان الفراخ هناك طيبة ولحمها طري والخمرة جيدة وشربها لذيذ ، والفتيات حسان فاتنات .

ــ اذن فقد وجدت ضالتي .

قال جاليو ، وما رأيك اذا لحق بنا اعداؤنا ؟

قال ، ما اظن هذا البارون يستطيع لحاقا بنا فهو لا ينهض عن فراشه الا بعد ايام طويلة ، وانا اعرف الطرق فلا ادع احدا يهتدي الى آثارنا .

قال جاليو ، اذن هيا بنا نسافر . وهكذا سافر الثلاثة ...

الفصل السادس عشر

(في التصويرة التي نبهت فضول دي مزغونة)

وصل جاليو وترولوس الى قصر يقال (لـه يو) فاستقبلهما الامـير احسن استقبال ، وبعد ان اخبره جاليو بما وقع له قال الامير ، استريحـوا الآن انت وصديقك ، واصبروا .

فاعجب برنابا بهذا الجواب . وكان برنابا انعمهم بالا واحسنهم حـالا لانه عكف على طعامه وشرابه وود انفاق العمر بين الطاس والكاس في ذلك الموضع الذي رآه اشبه بجنة عدن .

اما ترولوس وجاليو فقد تمكنت بينهما اواصر المودة وتوثقـت عرى المصافاة والمصادقة . وكان ترولوس على مذهب البروتستانيين ، فـانضم الى رجال امير كوندة . وقد سر ذلك الامير لانه عرفه من انصاره في حصار متس . وكان هذا الشاب في نحو الخامسة والثلاثين ، طويل القامة ، حسن المنظر ، كثير التفكير والتأمل . فهو في ذلك على عكس ما اتصف به جاليو الفكه الخلق الحلو المعاشرة . الا ان بين الصديقين جامعة اخرى هي البسالة الحقيقية وحب التعرض للمخاطر . وكان يلذ للامير التنزه معهما على ضفاف نهر الغاق او في الوديان التي تحدق بها هنالك الجبال الشامخة . فلمـا كان ذات يوم قال الامير لجاليو ، ما اراك تحب بلادنا وجبالنا لانك لا تكلمني عنها ... فاجابه اني لمعجب بها كل الاعجاب لانها جنة الـله في ارضه .

ومتى وصلنا الى بلاط الملك سمعت مني وصفها البديع . وقـال الامير لبرنابا : وانت فما رأيك ايها الاستاذ ؟ فاجابه : من لي بصرف العمر فـي هذا البلد السعيد ؟

وبعد صمت قصير المدة قال الامير لجاليو : ما رايك في مهمة تـذهب بها الى البلاط ؟ فصاح جاليو : اني للمهمات يا مولاي فان شئت سافرت الليلة ! قال : وانت يا دي مزغونة ؟ اجاب : ارجو ان تأذن لي فاصحب صديقي . قال لقد تبين لي ان جمال هذه البلاد لم يؤثر فيكـما ... اذن تسافران غدا .

فاظلم وجه برنابا : الا انه لم يجسر على اعتراض . فقال الامير الا انكما اجزلتما الولاء لبرداليان وعاملتماه بكرم الخلق ولا بد من ان تجتمعا بـه هنالك ... فاجاب جاليو : ليتنا نستأنف القتال معه . فضحك الاميروقال: لست ارتاب في ميلكما الى مبارزته ، ولكنني اود ان اعرضكما لغيره ، فاسمع يا جاليو . ان الملكة الوالدة قد اخذت تشعر بضعف العزيمةوالعجز عن مقاومة آل جيز وحدها . وفي الرسالة التي وصلت اليّ منها على يدك تعدني بالمساعدة لدى الملك اذا رضيت بالرجوع الى البلاط . وفيما كنت افكر في السفر بعثوا الي بالماريشال سنت اندريه جاسوسا يرصد حركاتي وسكناتي فرابني امرهم . ومعلوم ان مجلس الاعيان يجتمع قريبـا فـي فونتنبلو ، ولكنني قبل ان اذهب الى هذا الاجتماع اردت الاطلاع على ما ينويه البروتستانتيون اهل البلاد الشمالية ، فارسلت اليهم رسولي لاساج فذهب فاوصل الرسالة . ولما عاد بالاجوبة تمكن فيالار الملازم عنـد آل جيز من القبض عليه واطلع الدوق دي جيز واخوه على الرسائل التي كتبها اليّ اشراف البلاد الشمالية . وكان بينها كتاب من قائد الجيـوش هنـاك يعرض به عليّ مساعدته وكذلك كان بينها كتاب من الفيكونت شارتر ليس

عليه توقيع غير حروف متفرقة ولم يكن في الامكان معرفة التوقيع لولا ان المسكين عندما كانت تهواه كاترين قبلا كان قد كتب اليها ابياتا لطيفة مـا برحت تضعها بين صفحات كتاب صغير للصلاة تحمله كل يوم • فلما قابل آل جيز بين الخطين تحققوا ان صاحب الكتاب هو الفيكونت شارتر : وفي ذلك الكتاب يقول الفيكونت شارتر « اني مخلص لك اخدمك جهـدي وانصرك على كل مخلوق ما عدا الملك والملكة الوالدة وابناء البيت المالك في فرنسا » فقبض آل جيز على السفيكونت شارتر وطرحـوه في قلعـة الباستيل • وقـد امرت كاترين على اثر ذلـك بان يمكّن السجين مـن استنشاق الهواء النقي في فناء القلعة • فعليـكما ان تسافرا غدا الى باريس وتحاولا انقاذ ذلك الرجل الكريم الذي عقد اعداؤنا نياتهم على اهلاكه •

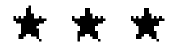
قال جاليو ، ثم ماذا يا سيدي ؟

اجاب الامير ، ثم تنتظراني في ضواحي البلاط وتنبّآ كاترين بقـرب وصـولي •

ولقد فرح الصديقان بهذه السفرة ، اما برنابا فكان لا يفتأ بذكر النعيم الذي فارقه ويقول ، لقد كنا بخير وسلام في غاسقونيا •

فلما وصلوا الى باريس نزلوا عند نيكول بوصه ، ولما رأى برنابا وجه نيكول العريض والمائدة الفاخرة التي اعدها نسي احزانه فاكل برنابا حتى امتلأ جوفه فقال له نيكول ، الى اي جهة اميل يا ترى ؟ الى جهة الامير ام الى جهة آل جيز ؟

فاجابه برنابا ، الى جهة النقود يا صديقي •



ولما امسى المساء خرج جاليو مع ترولوس قاصدين الى ناحية الباستيل

فاقتربا من القلعة ، فقال ترولوس لصديقه ، قد يكون هلاكنا في هذه المهمة التي نباشرها الآن . وقبل العمل اود منك ان تطلعني على سر .

اجاب ، تكلم يا صديقي فليس لي سر اكتمه عنك .

قال ، ما هذه التصويرة التي معك ، لعلها من حبيبتك مارسلين ؟

اجاب ، لا ...

ــ انما عنيت التصويرة التي رأيتها مرارا على صدرك وقت الرقاد ، فهل جاءت من امرأة تهواها ؟

ــ كلا فلست مجنونا لاهوى ملكة .

ــ أملكة هي ؟

ــ نعم ، لانّ عليها صورة كاترين دي مدسيس ، تناولتها من يدها ليلة هربي من ارتناي ... ولكن ما بالك ؟.. وما هذا الاصفرار الذي بـدا على وجهك .

ــ يا للداهية ، ان ما انا فيه فظيع !.. آه ، انني مجنون يا صديقي فما حم واقع ولا مرد له ولا دافع !.. لقد مضى زمن وانا ارى هذه الصورة ، فانا اهوى الملكة . وكنت غيورا منك . كنت اضطرب من هاتين العينين . ويزعجني التفكر فيهما كلما اويت الى فراشي ! وخيل لي انني اخون صداقتنا بحبي للمرأة التي تهواها انت . اما الان فقد علمت انك لا تهواها بل علمت ان التي اهواها هي والدة الملك !.. الا تمسا لي !.. بمثل هذا الغرام يهلك رجل مثلي ...

ولم يكد جاليو يتعجب من شيء فقال ، ولماذا يهلك به رجل مثلـك ؟ وهل تيأس من تلك المرأة التي تقدم على كل شيء ؟..

فوصلا الى الباستيل واخذا يبحثان عن موضع فناء القلعة وهو الموضع الذي اشار اليه الامير في حديثه وقال ان الفيكونت شارتر يخرج اليه للتنزه

في كل يوم فردهما الحراس فابتعدا على ان يرجعا ليلا وكان الظلام شديد الحلك حين رجعا . فزحفا على ضفاف خندق حتى بلغا المكان الذي تجري منه الى السجن المياه فقال جاليو : انما ندخل من هنا . فالبث في موضعك لارقب الموضع فانني اود ان افحص الممر الذي اشار اليه الامير في ايضاحاته الخاصة .

ونزل الى الماء فسبح فيه فوصل الى قبة ترتفع قدمين فوق الخندق ، وقد غطس بدنه في ماء ووحل . فعثر بباب من حديد كالشباك فقال، واعجبا من باب متين كهذا يكون في مجرى المياه . ولكن من حسن الحظ اننا قادرون على اقتلاع بعض قضبانه الحديدية . قال هذا الكلام واقتلع قضيبا الى جانب القفل بخنجر معه حتى تمكن من مد يده وادارة القفل فدار الباب على رزاته وانفتح . فمر جاليو سابحا حتى انتهى به العوم الى فناء مزروع اشجارا ، وكان ذلك المكان متنزه الفيكونت شارتر فقال جاليو، اذا اعددنا ثلاثة افراس عند باب سن انطوان ، واتخذنا الخناجر ، تم لنا النجاح . ثم رجع الى الموضع الذي غادر فيه صديقه فالفاه ينظر الى السهى مسترسلا في تأملاته فقال له : حسبك يا هـذا فما عشق الصور بمحمود . قال : لا تمزح ولا تهزأ بي فاني عاشق حقا . قال : اذن كان الاجدر بك ان لا تمد يدا الى انقاذ الفيكونت شارتر . فقد قيل انها كانت تحبه . قال لا تكلمني عن ماضي تلك المرأة يا جاليو فانني قد تناسيته . وانا اهواها ولا غرض لي من حياتي الا ان اخدمها واموت في سبيل هواها ...

فقال جاليو : لعمر الحق هذه اول مرة افلحت فيها كاترين بان كانت السبب في هوى مجرد عن الاغراض .

قال ترولوس : وعن الامل ايضا ؟

وقال جاليو : ولم ذلك ، او لست شريفا مثل الفيكونت شارتر الذي

عزمنا على انقاذه ؟.. الا فاذكر ذلك يا ترولوس كل شيء ممكن حدوثه في بلاط فالوا !

★ ★ ★

وبعد يومين قبيل الفجر كان حراس الباستيل يوزعون على اسواره ، وحاكمه يلقي بعض الاوامر . فهم جاليو بمباشرة العمل فاوقفه صديقه وقال ، بل اود ان القى الرجل واراه قبلك . فنزل ترولوس الى ضفاف الخندق ووصل الى الفناء الذي كان الفيكونت يتنزه فيه . والمجرى الذي وقف ترولوس عنده كان محجوبا بالاشجار الغضة فانتظر عنده ولم يره احد ، ومن ذا الذي يخطر في باله ان في العقلاء من يتجرأ على انقاذ سجين من الباستيل عند طلوع النهار . فلبث ترولوس منتظرا حتى ازفت الساعة التاسعة فانفتح باب الفناء وخرج الرجال يتقدمون سجينا تلوح على محياه امارات النبل والذكاء . فقال ترولوس في سره هذا هو صاحبنا الفيكونت شارتر .

ثم انزوى الحراس الى زاوية وتركوا السجين يتنزه كما يشاء فمر المسكين مرارا امام الاشجار الغضة ثم ارتمى على مقعد هناك واذ ذاك سمع وراءه قائلا يقول ، اتسمعني يا سيدي ؟

فاهتز الفيكونت ، وبعد هنيهة جعل يده على فمه وقال ، هل جئت لتنقذني ؟ فاجابه ، نعم . قال ، قل ما اسمك ؟ اجاب ، لست تعرفه . قال ، من مرسلك ؟ اجاب ، امير دي كوندة .

فنهض الفيكونت ودنا من حراسه فرآهم منهمكين في لعب النرد . فعاد الى مكانه قرب الشجر وقال لترولوس ، كيف يتسنى لك انقاذي ؟ فاجابه، وراء هذه الاشجار ساقية ماء يفضي منها الى خندق ، فاتبعني ، ولسوف

تتخلص بسهولة من كل من يحاول اللحاق بنا ، وقد جئناك بسيف ، فاذا اجتزنا الفندق قصدنا باب سن انطوان وهناك خيلنا تنتظر لنهرب .

فلمعت عينا السجين من الامل بالنجاة . ثم غمغم يقول ، ماذا افعل بهذه القيود ؟ قال ، اليك منشارا اتيت به فاذا تمكنت من كسر احدى حلقات قيودك قبل الوقت المعد لنزهتك عدنا اليك غدا .

وناوله ترولوس منشارا جمله الفيكونت في ردنه . غير ان الباب انفتح وقتئذ وطلعت منه امرأة لابسة السواد فنهض السجين لاستقبالها ثم لما عرفها سقط على مقعده يقول بصوت خافت : رباه هذه كاترين ! كاترين هنا !

وغمغم ترولوس يقول ، هذه هي !.. واحر قلباه ، ما اجملها !..

فتقدمت الملكة يصحبها حاكم الباستيل ، وكانت تقول له لقد فهمت مرادي . اذا تقدم احد رجال البلاط وانا ههنا فلا تدعه يدخل . قال سأصدر الاوامر بهذا الشأن .

ومضى حاكم الباستيل والجنود معه ، فخلا المكان للملكة كاترين وعشيقها القديم . ولم يتلفظ الفيكونت بكلمة لانه لم يدر معنى تلك الزيارة . فسكت منتظرا سماع كلام الملكة فقالت له ، اكنت تعد مؤامرة على الملك ايها الفيكونت ؟

اجاب ، انا يا سيدتي ؟ اني لا ازال اجهل السبب الذي من اجله امر الدوق دي جيز بالقبض عليّ .

قالت ، لقد امر بالقبض عليك لانك اعددت مؤامرة مع الامير .

اجاب ، ذلك مستحيل ، فاين البرهان ؟..

قالت ، البرهان كتاب منك .

قال ، مني انا ؟

اجابت ، نعم وجدوه مع رسول اسمه لاساج •

قال ، لست اعرف ذلك الرسول ، ولا يمكن ان يوجد معه كتاب مني •

قالت ، الا تزال ماهرا في المخادعة الا تذكر مخادعتك اياي مع احدى وصائفي ؟

قال ، من منا نحن الاثنين خادع الاخر ؟

قالت ، كفى ولا تهن والدة الملك !

اجاب ، اذن اخبريني لماذا اتيت تكدرين صفو وحدة السجين ؟

قالت ، انما اتيت لاراك • وهل تسأل النساء عن الاسباب التي تدعو الى تفكيرهن ؟ لقد خطر لي المجيء الى هنا فاتيت •

اجاب ، ما دام الامر كذلك فقد خطر لي الآن انك انت الآمرة باتشالي من قصري وطرحي في هذا السجن الهائل •

قالت ، اقسم لك على ان ذلك لم يكن بامر مني يا شارتر •

ولكن كيف تمكن دي جيز من مطالعة رسالة لم اكتب منها شيئا •

ــ يا لك من غلام ساذج • الا تدري ان قراءتها ممكنة اذا غطست في الماء الغالي لانك كتبتها بحبر خاص •

قال ، وهل تكلم لاساج •

اجابت ، نعم بعد التعذيب •

قال ، كيف تمكن آل جيز ان يعرفوا ان الرسالة مني ؟

اجابت ، الا تذكر ابياتا كنت ارسلتها اليّ ايام كنت تهواني ؟ فهذه الابيات كنت احملها على الدوام في كتاب للصلوات • قد اطلع عليها الكردينال وعرف ناظمها • اذن تكون انت الخائن نفسك •

فانطفأ غضب الفيكونت لانه لا يستطيع ان يحقد على امرأة حرصت

على ابيات كتبها اليها فنسي ما هو فيه وجعل ينظر الى كاترين فقالت له ، ما بالك لا تجيب ؟ اجاب ، بماذا اجيب ايتها السيدة ، فقد صرت الى السجن ولم يبق امامي الا ان اهلك ، وانا شريف . قالت ، اتهلك انت وانا نصيرتك ؟ قال ، انت نصيرتي ايتها السيدة ؟ قالت انبئني بما تحويه تلك الرسالة . اجاب ، ليس فيها الا مطاعن على آل جيز ، واظهار ولاء للاسرة المالكة .

قالت ، وماذا كتبت فيها عني ؟ اجاب ، لا شيء . وهل اتجرأ على الكتابة عنك في رسالة الى رجل اخر ؟ قالت اذن فليس فيها كلمة من شأنها ان تفضحني ؟ اجاب ، ابدا . قالت ، واين الرسائل التي كتبتها اليك قبلا ؟ قال ، بحقك لا تحرميني منها فهي كل تعزيتي الاخيرة .

فمدت الملكة يدها الى صدرة الفيكونت شارتر واخرجت منها رزمة عليها شريط من حرير فجلعتها في صدرها وكان يبكي وهو صامت ثم قال، لماذا اخذتها مني ؟ قالت ، ان الدوق دي جيز عازم على استنطاقك وقد يتجرأ على اخذ هذه الرسائل منك . اجاب ، ان رسائلك خالية من التوقيع. قالت ، ان الدوق واخاه يعرفان خطي . فماذا يجري للملكة الوالدة اذا حصلا على برهان يؤكد لهما هفوتها . على انني سأنصرك في البلاط عند الملك ، وقد تطول مدة اسرك لان ابني كاره لامير كوندة وانت من اعوانه. انما ثق بانه ما من احد يستطيع الفتك بك .

وقد تهلل وجه كاترين منذ ما حصلت على رسائلها فنهضت وقالت ، انا التي مكنتك من التنزه في هذا الفناء . فاجابها ، شكرا لك ، وانما آمل منك ان تمكنيني من التنزه خارج هذا السجن تحت سماء طوران .

فعطفت عليه الملكة ولثمت جبينه وقالت ، اودعك ايها الحبيب . وكان الفيكونت شارتر قليل الوثوق بالملكة فلم يشأ مخاطبتها عن فراره. فتركها

تمضي الا انها رجعت بعد دقيقة ممتقعة اللون حنقا وحاكم الباستيل يتبعها وهي تقول ، ألم اقل لك لا يدخل احد الى هنا ؟ فاجابها ، لم يكسن في امكاني ان ادع الدوق دي جيز واقفا عند الباب •••

فقال ترولوس والفيكونت شارتر معا : الدوق دي جيز ؟ فغمغمت الملكة تقول ، رباه ماذا افعل الان •

فنهض الفيكونت واقترب من الملكة وقال لها ، انما يهمك ايتها السيدة ان لا يراك الدوق ههنا • اجابت بلا شك يا حبيبي والويل لي اذا رآني •

وبقي حاكم السجن وراء الملكة بعيدا عنها قليلا وهو يحرك قبعته بيده حائرا فقال الفيكونت ، يوجد وسيلة يسيرة ، وهي ان يرجعني حاكم السجن الى سجني سريعا فيتبعني الدوق اليه واذ ذاك يمكنك الفرار •

قالت ، هذا هو الرأي الصواب • فاسرع يا مسيو دي برسان (اسم حاكم السجن) وخذ السجين الى سجنه • ودبر كيف شئت كي لا يمر الدوق بالفناء • والا فويل لك مني !

فانحنى الحاكم وامسك يد الفيكونت ، فلما صار الى عتبة الباب اشار الى الملكة كي تختبيء وراء الاشجار •

فوثبت كاترين الى الموضع الذي كان مختبئا فيه ترولوس ولما رأته امامها بهتت وارتاعت وقالت له ، من انت ؟ وماذا تفعل ههنا ؟ فاجابها انسا رجل يهواك ايتها السيدة ويموت فداك •

ولقد وصل الدوق الى القلعة ، وفي نيته استنطاق الفيكونت شارتر ، فابصر مركبة وخدما عنسد الباب الا انهم بملابس ليست ملابسهم ، اما المركبة فقد انتزع عنها الشعار الملكي ولكن الدوق عرف الخدم ، ولحس باحدى الدسائس الخفية • فدخل القلعة واخذ يحقق النظر ويتفقد كل

مكان وكاترين واجفة الفؤاد ، واقفة قرب ترولوس • اما هــذا فكــان مسترسلا في لذة القرب من تلك الملكة غير مفكر في خطر موقفه • وكــان كل منهما ممسك انفاسه • وقد حاول الحاكم امساك الدوق غير ان هــذا وثب الى الفناء وسرح بصره في كل ناحية ثم عاد الى القلعة فانطبق البــاب وراءه ، فقالت كاترين ، لقد نجونا !! فقال ترولوس ، لقد وجب الرحيــل من هنا ايتها السيدة •

قالت ، ويلاه وكيف ذلك وحرس الدوق عند الاسوار • وهــل يمكن الخروج من هنا دون ان يروني ؟ قال ايصعب عليك ان تجتازي خنــدقا ؟ اجابت كلا • قال ، اذن فاتبعيني • قالت ، الى اين ؟••

فلم يجب ترولوس ، وخاف ان لا تكون الملكة قادرة على المرور مثله في ذلك الخندق ، الا انه رآها تبتسم وتشير الى حجر في زاوية ثم قــالت له ، ارفع هذا الحجر •

وذلك لان الملكة الوالدة كانت تعرف مخارج القلعة السرية التــي لا يعرفها الا اعضاء الاسرة الملكية • وذلك واحــد منها • فرفع ترولــوس الحجر فابصر بابا امامه فقالت ، لندخل • ودخلا ثم اقفلا الباب بعــد ان ارجع ترولوس الحجر الى موضعه وسارا في ممر محفور في الجــدار حتى وصلا الى باب مشرف على الخندق ففتحه ترولوس بسهولة ، ونزل حتى وصل الى فم الخندق ونادى جاليو فاقبل يقول ، اين الفيكوت شارتر ؟ فاجابه ، يستحيل انقاذه •

قال ، وكيف اتيت من هناك ؟
اجاب ، سوف تعرف ذلك • اما الان فلا بد من انقاذ الملكة كاترين •
قال ، الملكة ؟
اجاب نعم • فانزل الى الخندق ان الماء فيه قليل وفي وسعنا حمل الملكة

الى الضفة الاخرى • قال لم افهم شيئا •

فاجابه ، سوف تفهم كل شيء •

فاطاع جاليو وهو يظن ان رفيقه قد جن • اما مزغونة فحمل الملكة على ساعديه ، وساعده جاليو فنقلاها الى ضفة الخندق دون ان تبتل ملابسها بالماء • اما جنود القلعة فقد هاج فضولهم قدوم الدوق الى الباستيل فلم يلتفتوا الى الاسوار • وهكذا اجتازت الملكة مع الرجلين ولم يجدوا في طريقهم الا حارسين من حرس الدوق ارادا ان يمنعاهم من السير • الا ان جاليو ومزغونة كانا اليهما اسرع من الصاعقة فطرحاهم قتيلين بضربتين من خنجريهما قبل ان يتمكنا من استخدام سلاحهما •

وقال ترولوس وارحمتاه للجنديين المسكينين • قالت ، ذلك ما كتب لهما • ولا يجب ان يبوحا بما علما •

ثم خرج الثلاثة من باب سن انطوان فوصلوا الى الفندق اي الى موضع الخيول فقال جاليو ، الى اية جهة تقصد ؟ فاجابته الملكة ، الى فونتنبولو •

فلما صاروا على مسافة من باريس قالت الملكة لهما : اخبراني الآن اي معجزة حملتكما الى خندق الباستيل ؟

ولم يكن ترولوس قادرا على الجواب لانه كان في اشد حالة من الانفعال فاجابها جاليو ، ذلك سر يا مولاتي • قالت اتكتم عني سرا الا انني واثقة من انكما كنتما تحاولان انقاذ سجين • اجاب ، لست اريد ان اكذب يا سيدتي • قالت ، وذلك السجين هو الفيكونت دي شارتر • فاجابها ، ربما كان ذلك يا مولاتي •

فأطرقت كاترين تفكر وقد ادركت انها بوجودها في السجن حالت دون نجاة ذلك الفيكونت السيء الحظ وانه بذل حريته فداء عن حريتها

فأثر فيها ذلك البرهان بمقدار ما يؤثر في تلك المرأة برهان مثله وهي لم تكن تهوى شيئا مثل القدرة والسلطان .

ثم قالت ، كيف قدمت الى هنا يا مسيو جاليو دي نرساك بعدما غادرتك متوجها الى غاسقونيا ؟

اجاب ، لقد رجعت يا سيدتي مع صديقي ترولوس كونت دي مزغونة . وهو اشجع رجل في الدنيا ، وكاد يقتلني ليحصل مني على التصويرة التي اذنت لي باخذها منك .

فاصفر وجه ترولوس وقال ، هذا صحيح . فقالت كاترين ، وماذا جرى لرسالتي ؟ فاجابها ، لقد اوصلتها الى الامير . قالت ، ورسالة الآنسة دي ليمول ؟ اجاب ، اوصلتها اليه كذلك . قالت ، ولماذا بقي الامير في غاسقونيا ؟ اجاب ، لانه في حاجة الى معرفة ما ينويه اشراف هذه البلاد قبل ان يدخل البلاط . قالت ، الاجل ذلك ارسل لاساج ؟ اجاب ، نعم . قالت ، وهو الذي ارسلكما لانقاذ الفيكونت دي شارتر من الباستيل ؟ اجاب ، نعم . قالت ، ان ابن عمي امير كوندة صديق وفي يا جاليو، فتقدم وانظر لئلا يكون امامنا عدو ينوي قطع طريقنا .

فتقدم جاليو بجواده الى مسافة مائتي خطوة ثم تركه يتمشى على مهل وهو يفكر في الحوادث التي قضت عليه بانقاذ الملكة كاترين بدلا من انقاذ الفيكونت شارتر . اما كاترين فاقبلت على الكونت دي مزغونة تتفرس في وجهه وقالت له ، اذكر انك طارحتني الحب منذ هنيهة ؟ فاجابها ، انني خاطبتك يا مولاتي بما يطفح به فؤادي . قالت ، الا تحسب حسابا للخطر الذي يحيق بمن يهوى ملكة اذا لم يكن اميرا من سلالة الملوك ؟ فاجابها ، لست ابالي بالخطر والهلاك اذا مت وانا قادر على القول انني عشقت . نعم ، انا اهواك ، ونحن الان وحدنا فلا مانع يمنعني من مخاطبتك كما

اشتهي ، ولا حائل يحول دون ان ابثك سر فؤادي . ولسوف تهزئين بسي متى علمت كيف دخل هواك فؤادي . لقد كانت مع جاليو تصويرة رايتها ... قالت كاترين انه اختلسها مني اختلاسا ... قال ، لقد اعجبتني تلك الصورة ورأيتها جميلة ، بل اجمل من كل ما رأيت . فتعشقتك من مجرد النظر الى الصورة ودون ان اعرف من انت . ولم ادر انها صورة الملكة كاترين الا منذ ايام فقط . فبكيت يومئذ وكدت اموت يأسا وغما،وحسبت نفسي مجنونا لانني تعشقت ملكة يعجب بها ويحبها كل الناس . واذ بسي قد ابصرتك ، وخدمتك ، وكلمتك . آه يا سيدتي ، مريني بان اموت اذا شئت . ولكن قولي لي ان ليس في مخاطبتي اياك بهذا الكلام اساءة كبرى وانك تصفحين عن اجترائي .

قالت ، اني احب كل فتى جريء ايها الكونت .

وحثت كاترين جوادها فلحقت بجاليو وبقي ترولوس كالمجنون يقول اني اسيرك ايتها الملكة واسيرك دائما ابدا !

الفصل السابع عشر

(العاشق الجديد)

قضى فرنسوا دي جيز ساعتين في الباستيل باحثا فيه عن الملكةالوالدة وعظم استياؤه وحنقه لما لم يجد لها اثرا . وجعل حاكم السجن يقسم انه لم ير امرأة دخلت الباستيل . اما الفيكونت دي شارتر فقد اهانه وقال له انت شريف غادر . فسخط فرنسوا وامر بالتضييق على ذلك السجين . وفيما كان راجعا من القلعة قاصدا الى ناحية باب سن انطوان وقف امام جثتي الحارسين ، فامر بدفنهما . واتجه الى ذلك الباب فقيل له انه قد خرج منه منذ ثلاث ساعات رجلان يصحبان امرأة لابسة ثيابا سوداء . فقال في نفسه ، هي الملكة ولا ريب ، فمن الذي اخرجها من الباستيل يا ترى ؟

ولكنه لم يهتد الى جواب على هذا السؤال فطأطأ راسه وسار الى فونتنبلو وهو يعزي نفسه بقوله ، قد اقترب وقت اجتماع مجلس الاعيان، وسأكون في المجتمع السيد الآمر ولا يجسر امير كوندة على الحضور .

وسار في الطريق الذي سارت فيه الملكة الوالدة وجاليو وترولسوس قبله بضع ساعات حتى وصل الى فونتنبلو ليلا فالقى القصر غاصا باعيان البلاد ووجد اخاه الكردينال في غرفته يتمشى مضطربا فقال له ، ما بالك

يا اخي ؟ اني ارى على وجهك علامات الاضطراب . فاجابه ، اني شاهدت موكب ابن عمنا مونموراتسي فرأيته كبيرا وعدد رجاله يفوق الحصر ، وكأنما اراد به نكايتنا واذلالنا . قال ، ألم تأمر جيوشنا بالاوبة الى فونتبلو ؟

اجاب ، نعم ، ولكن كان قد مضى الوقت ، لان موكب مونموراتسي وصل اولا واتخذ له مواقف ومحطات على ابواب المدينة ، واصبح متسلطا على طريق باريس .

قال ، وهل من شاغل آخر يشغل فكرك ؟
اجاب نعم ، فان مونموراتسي قابل الملكة الوالدة مقابلة دامت وقتا طويلا .

قال ، يا له من شيخ محتال .
قال ، هل من نبأ عن امير كوندة ؟
اجاب لست اظنه يأتي ولا يأتي اخوه ، لان رسائل الدعوة لم ترسل اليهما الا متأخرة .

قال ، لعلك مخطيء في ذلك .
قال ما معنى هذا الكلام ؟
اجاب الا تتذكر وصيف امير كوندة ذلك الفتى المحتال المدعو جاليو دي ترساك ؟
ـ نعم ، وهو الذي كنت قبضت عليه ...
ـ وفر في ارتناي .
ـ لقد صادفته الليلة يمشي في زقاق ضيق ويرجح عندي انه ارسله الى هنا جاسوسا ، ولعله لاحق به .
قال الدوق ، دعنا منه . اما من مشاغل اخر يشغل ذهنك يا اخي ؟ فتنهد

الكردينال وقال ، لعلك تروم التكلم عن الملكة الوالدة •

واصفر وجهه ثم قال ، هنالك الخطر الحقيقي يا فرتسوا ، فان هـذه المرأة تروم ان تعبث بنا وتطردنا من البلاط • وقد مضى يومان لم يرهـا فيهما احد ههنا • وقال تساؤها انها مشغولة بالصلوة • فحـاولت اليـوم الدخول عليها من الممر السري فوجدته لاول مرة مقفلا • فلما كان المساء تكرمت بقبولي زائرا بعد مونموراتسي ، فأبصرت في مخدعها ثوبا وحذائين والغبار يعلوهما وكأني بها قد وصلت من •••

قال الدوق ، من باريس ولا شك •

قال الكردينال ، وماذا فعلت فيها ؟ اجاب الا تدري ؟ انها ذهبت لعقد مؤامرة مع الفيكونت دي شارتر ، وهي التي اشارت بطرحه في الباستيل••

قال ، هل زارت الباستيل ؟

اجاب ، بل زارت الفيكونت فيه ، وتمكنت على الرغم من كل تدبيـر دبرته من التخلص مني دون القاها •

قال الكردينال ، وماذا قال لك شارتر ؟

ــ لقد ارتاب بي ، فامرت بالتضييق عليه وطرحه في سجن اشد رطوبة من سجنه الاول •

قال الكردينال ، احسنت بذلك يا اخي فانني اشد الناس بغضا لمـن احبتهم ••• وهل تظن الان انها لا تذكر ودادي ؟ اسمع ما قالته لـي يـا اخي • قالت « ان الكنيسة تحظر عليك ايها الكردينال ان تغـازل امرأة » ••• اواه ، لقد تمنيت ان تنقاد اليّ بالسياسة او بالطمع •••• اكثر مـن ذي قبل ، ولئن امتنعت عني فلا اريد ان تميل الى غيري •

قال الدوق ، من ذا يتجرأ على حبها ؟••

اجاب : لا ادري . ولكن هل تذكر يا اخي كيف كانت تلمع عيناها فرحا يوم كانت تهوى شارتر اللعين ، واي اضطراب كان في صوتها ؟ .. فقد لاحظتها اليوم يا فرنسوا ، فهي عاشقة ، وعاشقة غيري ...

فاجابه الدوق ، اذن سوف نقتل عشيقها الجديد ، اذ لا بد من ان تكون لك وحدك دون سواك .

ثم ان الدوق ذهب فتفقد مواقف الجند والحراس الذين اقامهم على حراسة الملك بعد حادثة امبواز . وفيما هو عائد الى مخدعه لفت بصره رجلان رآهما كأنهما يتخاصمان عند القصر فدنا واختبأ وراء شجرة وانصت اليهما . فقال احدهما ، الا تأتي معي ؟ فاجابه الاخر : دعني ، دعني انتظر الى النافذة . قال ، الا تأتي ، الا تنتهي من هذا الجنون ؟ ام تروم مني ان اتخذ السماء غطاء والثرى وطاء .

وتظاهر المتكلم بانه يتمدد على الثرى فاجابه رفيقه ، صبرا فانها اقتربت الى نافذتها وفتحتها ، وتميزت وجهها . وقد اشرق عليه ضياء الكواكب .

وكان الدوق يرقب الحركات ويسمع الحديث . فلما رأى الشاب يمد يده الى النافذة رفع بصره فعرف نافذة الملكة . فقال في نفسه : ان اخي على صواب وهذا الشاب حسن المنظر . الا انه ، من سوء حظه ، لم يستطع ان يرى وجهه لانه كان محجوبا بردائه . فلما سار مع صديقه حاول اللحاق به ، الا ان الشابين اختفيا في زقاق ضيق فرأى من الحكمة ان يرجع عنهما .

الفصل الثامن عشر

(مجلس الاعيان)

في اليوم العشرين من شهر اغسطس (آب) سنة ١٥٦٠ اجتمع اعضاء مجلس الاعيان من اطراف البلاد الفرنساوية وسائر انحائها في قصر فونتنبلو ، وكان معظمهم وقوفا . واقبل مونمورانسي في مقدمة جمهور غفير من رجاله ، وكان الملك ينتظره مع الملكتين في حجرته . فمثل بحضرته وقال ، لقد جئت ايها الملك صادعا بامرك . فاجابه ، لقد سرني ان اراك بيننا لانك تفارقنا كثيرا ، ولاننا في حاجة الى آرائك ، ولكن لا ادري لماذا يقل وجودك معنا ، فهل تحسب نفسك آتيا الى بلاط عدو ؟ ان حرسك الكثير يعدل حرسي انا .

فاجابه ، ان رجالي ايها الملك رجالك وكلهم مخلص صادق يتمنى الدفاع عنك والموت لاجلك .

قال ، لعلنا نحتاج اليهم ، فان اعداءنا وقحاء يزداد اجتراؤهم علينا كل يوم . والآن هيا بنا الى المجلس !

وبعد هنيهة دخل الملك مجلس الاعيان وتبعته الملكتان ماري وكاترين، ووراءهما شقيقا الملك . وآل بوربون ولورين ، والدوق دي جيز واخوه

وغيرهم ممن يضيق المقام عن ايراد اسمائهم . فتكلـم الملك قائلا ، لقـد جمعناكم ايها السادة للمفاوضة في شؤون مملكتنا ، ونروم ان يتكلم كل منكم بنزاهة ضمير . وقد تلقينا ملتمسا من المسيـو دي شاتيليون سوف تسمعون نصه .

ثم التفت الملك الى الاميرال دي شاتيليون وقال ، تكلم .

فنظر الدوق دي جيز واخوه الكردينال كل منهما الى الاخر لانهمـا كانا ينتظران ان يكونا البادئين بالتكلم في ذلك المحفل . ونظر الكردينال الى وجه كاترين ليطالع فيه ما يخامر نفسها ، فرآها تبتسم كانها غير مكترثة لما امامها . واما الملكة ماري فظنت ان ذلك المجلس السياسي تطول مـدة انعقاده ، وان ما يقال فيه ممل فكان السأم ظاهرا على ملامحها .

ووقف الاميرال دي شاتيليون ، وهو من انصار المذهب الكاثوليكي فقال ، ان اصل الاضطرابات ناجم عن التعصب والاضطهاد الديني ، وان المضطهدين (بفتح الهاء) سلموه ملتمسا لجلالة الملك ليس عليه توقيـع ، ولكن خمسين الف نورماندي قد يوقعون عليه عنـد الحاجة ، ومـؤداه وجوب اجتناب الوشايات التي يرمي بها ابناء المذهب البروتستانتي . فهو يطلب الى الملك والمجلس ان يختصوهم بمواضع وهياكل يمكن فيها القاء الوعظ علنا ومباشرة الشؤون المتعلقة بمذهبهم وعبادتهم .

ثم نهض اخر فشبه الدولة بعليل لا يمكن شفاؤه الا بتشخيص علته ، فنهض الدوق فقال ، انه مستعد لتقديم حساب عن ادارة الحربية والجيش . وقال الكردينال . انـه يؤدي حسابا عن المالية لانه ناظرهـا ، واعلن ان النفقات تزيد مليونين وخمسمائة الف ليرة عن ايرادات البلاد . ثم تكلـم كثيرون وتفرقوا وفي يد كل منهم مذكرة للمواد التي يشاور فيها الملـك . وكان موعد انعقاد المجلس الثاني في اليوم الثالث والعشرين مـن ذلـك

الشهر . وخرج الملك مع الملكتين ، واستصحب المسيو مونموراني ،وكان معنى ذلك ، عند الدوق واخيه ، انحراف الملك عنهما وقرب زوال حظوتهما عنده . فقال الكردينال ، اذا عرفنا كيف تتصرف كانت النتيجة حميدة لنا . فاجابه الدوق ، لا جرم ان الضربة آتية من ناحية الملكة . قال الكردينال ، بلا شك !

وفي ذلك المساء اقيمت حفلة راقصة ، وكان الدوق يراقب فيها كاترين فرآها تجتنبه . فتمتم الكلام قائلا ، حذار ايتها الملكة العظيمة فان عينيك تلمعان لمعانا كثيرا ، فويل لك اذا جاء عشيقك الليلة فوقف تحت نافذتك !

ولما انتصف الليل اطفئت انوار القصر وسكنت حركة المدينة ، الا ان الانوار لم تنطفىء في المدينة كلها ولا سكنت الحركة في كل مكان ، فقد رقد فرنسوا الثاني وزوجته رقاد عاشقين في اول عهد هواهما ، ولكن الملكة الوالدة لم تنم ، وكذلك الدوق واخوه الكردينال . ونام زوج مارسلين ، اما هي فلم تنم ، بل كانت ساهرة الى جانب نافذتها والسماء صافية والكواكب طالعة ، والشذا يتضوع في الهواء ، وقد هبت نسماته من ناحية الغابات فحملت ما في ازهارها من طيب ، والبلابل تغرد ، ومارسلين معجبة بما في تلك الليلة من دواعي السرور ، غير انها آسفة على فراق حبيبها .

وفيما هي كذلك كان ترولوس وجاليو يسترقان الخطى في طريقهما الى القصر . الاول يأمل ان تطل حبيبته الملكة من نافذتها ، والثاني يرجو ان يرى مارسلين ، ويقول في نفسه ، سوف اتغنى تحت نوافذ القصر فتعرف صوتي . فلما صارا الى المكان المقصود جعلا يتمشيان تحت النوافذ التي ظلت مقفلة حتى تولاهما الضجر . فقال ترولوس ، لقد ذهب سعينا ضياعا!

قال جاليو ، ما رأيك فيما اذا دعوناها ؟ فقال ترولوس ، ويك ! هل جننت ؟ فاجابه ، كلا يا عزيزي ، غير ان النساء ما برحن يعشقن الغناء ،

وصوتي رنان رخيم ، وقد تلقيت الفن عن استاذي الخبير ، فدعني افاسد البلابل او اسكتها • ولئن سمعتني مارسلين فسوف ترى عجبا • سوف تفتح النافذة ثم تظهر الملكة وتطرح اليك سلما من حبال فتتسلق عليه ، واما انا فامضي طروبا راضيا بفوزك •

واحس ترولوس بخطى قريبة فقال ، يوجد هنا من يرصدنا • فاجابه جاليو ، لا !

قال ، بل هنالك رجال مختبئون كامنون لنا •••

قال ، ويل لمن يتعرض لنا •

قال ترولوس ، بل تعال نرجع •

اجاب جاليو ، هيهات ، فلا ارجع دون ان ارى •••

وكان جاليو يحمل مصباحا سريا فوجه نوره الى الجهة التي اشار اليها صديقه فلما لم ير احدا قال له ، دعني اغني • قال ترولوس ، بل سر بنا وغدا نعود •

قال جاليو ، أأسير ولا اتعرض لمثل هذه الحادثة ؟

ورفع جاليو عقيرته [1] فاخذ يتغنى بشعر مدة خمس دقائق حتى انفتحت نافذة الملكة ، فسكت المغني وقال لترولوس ، تقدم لاختبىء انا ، ولك ان تقول انك انت المغني !

ثم ظهرت امرأة في النافذة واحتجبت في الحال • فارتعد الرجلان • وكانت مدام مارسلين ساكنة في طبقة تحت الطبقة التي تسكن فيها الملكة فلما سمعت صوت جاليو اطلت كذلك وتراجعت بعد ان صاحت صيحة ذعر وارتياع • فقال الرجلان ، يا للغدر ، واقتربا الى خندق هناك • وكانت

---

(١) العقيرة صوت المغني •

الجهة الثانية المعارضة من الطريق غاصة ببضعة رجال شاهرين سيوفهم واقفين يمنة ويسرة في عرض الطريق يمنعون المرور •

فتفقد جاليو غدارتيه ، ثم جرد سيفه وقال لترولوس ، افعل فعلي ودعني ادير القتال • وارتعد ترولوس خوفا من ان يكون قد فضح الملكة بجرأته فلم يثبته الا ان يجرح جرحا عريضا وينطرح في الخندق • اما جاليو فانه حيا اخصامه ممازحا ، داعيا لهم بالطرب والحبور ثم قال ، ماذا تريدون ايها السادة ؟ فقال له واحد منهم بصوت خشن ، سلما سيفيكما !

فاجابه جاليو ، اعلم يا مولاي ان سيفي رفيق لي قديم فلا استطيع مفارقته • قال الرجل ، يا لك من ثرثار ، اذن فسوف نأخذه منك رغما عنك •

وتقدم الرجل فالقى جاليو نظرة سريعة الى ما وراءه فابصر شجرة عند ضفة الخندق اغصانها منحنية على جدار القصر فقال لرفيقه ، الزم ساق الشجرة فلا نجاة لنا الا من هناك •

ودنا رجل من الرجلين ، وقال قائل ، استسلما والا فانتما هالكان • فقال جاليو ، اني اعرف هذا الصوت ، وقد سمعته في وسط معمعة ، وما هو بصوت برداليان ولكنه صوت الدوق دي جيز ! •• ومن هذا الرجل اللابس ثياب الرهبان ؟ لا شك انه أخوه الكردينال • اذن فلا يغض شرفي ان اقاتلهما بسيفي لانهما من اندادي •

وقد فكر في التخلص من شر اعدائه واشدهم اذية ، اي حملة البنادق، وكانوا ينتظرون امرا لاطلاق النار • ورأى الدوق دي جيز ان يقبض على الرجلين دون ان يقتلا • فهمس جاليو في اذن رفيقه يقول ، اطلق النار على حملة البنادق ! فدوى صوت اربع طلقات فسقط اربعة رجال من حملة البنادق وبقي واحد ، فصاح به الدوق ، ويلك اطلق النار !! الا ان جاليو

كان قد تمشى اليه وطعنه بسيفه وعاد في اسرع من لحظة الى مكانــه قرب ترولوس ، ولم يبق امامه الا خطوة توصله الى الشجرة . فتناول الحراس بنادق الرجال الذين سقطوا صرعى وقدحوا الزناد لاشعال فتيلها . ومعلوم ان موقف الجنود بازاء الاشراف محفوف بالخطر اذ كانوا يسلحونهم ولا يأذنون لهم باستخدام سلاحهم دون امر ، ولذلك كانوا يقتلون قبــل ان يتلقوا الامر وقبل ان يتمكنوا من الدفاع عن انفسهم .

وهاج حنق الدوق دي جيز لفشلــه الوقتي فوثب على جاليو وهــو يصيح ، هذا دي سنزاك من رجال ابن عمي كوندة ، ونحــن قابضون عليه هذه المرة لا محالة : فقال له جاليو ، اتظن ذلك يا مولاي ؟ فاجابــه ، بلا شك ! فسلم سلاحك والا امرنا بقتلك . قال اني افضل القتال بالسيف .

وسمعت مارسلين وهي في حجرتهــا اسم دي سنزاك فاكبرت الامــر واشفقت ان يقتل حبيبها تحت نافذتها ففكرت في انقاذه وادخاله القصر . وبعد ان تحققت ان زوجها مستغرق في النوم خرجت من حجرتها وهــي حائرة ، فنزلت في السلم ووقفت مضعضعة الحواس ، واذا بامرأة واقفــة امامها تقول لها ، الى اين ؟ اجابت ، لست ادري . قالت المرأة ، ان رحــى القتال دائرة امام القصر فهل لك صديق بين المقاتلين ؟ قولي ولا تكذبينــي فالوقت اضيق من ان يتسع الجدال . اجابت نعم . قالت ، من صديقــك ؟ اجابت ، هو جاليو دي سنزاك .

فتنهدت المرأة وقالت ، ان بعض المصالح السياسية تقضي علي بالدفاع عن الرجلين فاروم انقاذه . الا انني ملكة فلا يسعني ان افضح نفسي فاليك سلما من حبال ، اطرحيه من النافذة التي فوق سلم القصر ليبصره الرجلان ويجتازا الخندق اليه ثم يتسلقان عليه وننقذهما . فهيا واسرعي !

فتناولت مارسلين رزمة الحبال وبادرت الى النـافذة التي اشارت اليها

الملكة كاترين وعقدت طرفي السلم في قضبان النافذة ، وقبل ان تطرحه نظرت نظرة الى من تحتها فاذا بها ترى رجال الدوق يتراكضون اليه وقد جردوا سيوفهم ، ووقف جاليو امامهم يدفعهم عنه بسيفه . واراد ترولوس مساعدته الا ان جاليو قال له اصعد الى الشجرة واستخدم الغدارتين .

وكان بين رجال الدوق جاسوسه جانليس وهو من الماهرين بضرب السيف ، فلاحق جاليو وضايقه ، فاطلق ترولوس النار عليه فرماه جريحا . فقال جاليو : عافاك الله يا اخي !!

ولقد فرق الطلق الناري المهاجمين . واعتصم ترولوس بالشجرة بعيدا عن سيوف الرجال ، وطلب من جاليو غدراته ليحشوها وهو في موقفه العالي . وسمعه الدوق فقال : لله در هذين البطلين !!

وكان جاليو قد انتهز فرصة من اضطراب المهاجمين فاستند الى الشجرة ، وادرك ترولوس مراده فامسكه من كتفيه فرفعه اليه فكانا كلاهما بين الاوراق .

فزعق الدوق واخوه زعقات المجانين من شدة الحنق لانهما ، وهما اميران عظيمان مصحوبان بعدد من الجند ، قد هاجما رجلين على حين غرة ولم يفلحا ، ولم يفلح الذين حملوا البنادق ، لان الرجلين كانا محتجبين بورق الشجرة والرصاص يتطاير منها فيطرحهم قتلى . اما سائر الرجال فكانوا يقاتلون بسيوفهم ولم يكونوا يحملون غيرها . وسيف جاليو اطول واقتل لانه يصيب به المقاتل من مكان مرتفع . فقال الدوق : لم يبق سبيل لنجاتهما الا بالخندق والجدار فهما اسيران فليذهب احد منكم وليرجع بالرجال .. فقال ترولوس لجاليو : والان كيف نصنع ؟ قال : هات الغدارتين ، ووثب الى الضفة الاخرى .

فوثب ترولوس الى لسان ضيق من الارض عند اسفل الجدار وكان

ذلك عندما عقدت مارسلين السلم بالنافذة ولم يلتفت المهاجمون الى ما جرى امامهم ، وقد بهتوا من جرأة ترولوس ، فلم يدر في خلدهم ان الوثوب من الشجرة الى الارض امر ممكن . واذا بجاليو قد نزل وصار الى جانب صديقه شاهر غدارتيه وقال ، اذا تقدم اليّ احد ايها الدوق فهو هالك لا محالة ، ولئن حاولتم هجوما علينا تلقيناكم بالسيف ، ثم خفض صوته وقال، ما هذا ؟

وقد احس بشيء على رأسه فقال ، هذا سلم ، فاصعد يا ترولوس. قال من اين لنا هذا السلم ؟ قال ، اصعد ولا تسأل . وكان ترولوس قد صعد حتى بلغ الطبقة الاولى باسرع من رد الطرف . وسدد اليه احد الرماة رصاصة فلم يمهله جاليو بل اطلق على الرجل غدارته فرماه صريعا . فقال الدوق يا لك من غلام زنيم فلا بد من قتلك عند صعودك اذ تعجز عن استخدام سلاحك وانت صاعد والظاهر ان ترولوس ادرك ما يجول في ذهن الدوق فنزل سريعا وطلب الغدارتين من جاليو وقال له ، سوف ادافع عنك عند صعودك . فصاح الدوق ، اين الرجال ؟ ان هذين الشقيين يوشكان ان يتخلصا منا . ولكن في اي مكان عقد هذا السلم ؟.. ما اراه من غرفة الملكة ؟ فمن يتجرأ على حماية الشقيين ؟

وكان ترولوس في اثناء ذلك قد وصل الى النافذة ونزل منها الى الرواق في داخل القصر فلم يكلم الملكة ولا مارسلين وكانتا امامه بل اطل من النافذة ورفع صوته وقال ، تعال يا صديقي ولا تخف ، فعندي غدارتان كافيتان لقتل من يسدد المرمى اليك .

وصعد جاليو عاجلا ثم سحب السلم . وفيما كان الصديقان يشكران الملكة وهي تفكر في اتمام نجاتهما انفتحت حجرة المحامي افنيل زوج مارسلين ولم ير في بدء الامر الا زوجته فقال ، ماذا اتى بك الى هنا ؟ قالت

لقد راعني دوي البنادق • قال من هذان الرجلان ، ومن هذه المرأة ؟

ثم وقف مرتاعا من جرأته وكانت الغيرة قد حملته عليها فقال ما قال ، لكنه لما عرف الملكة اعترته هزة ، فدنت منه وقالت له ، اعلم ايها المحامي انك لم تر ولم تسمع شيئا في هذه الليلة ، وانك تجهل وجود رجلين ههنا معي • واذا سئلت فقل انك لم تفارق مخدعك • تلك ارادتي فاذهب • قال، اقسم لك يا ذات الجلالة على انني سأنسى كل هذا !• اجابت ، لست في حاجة الى قسمك ، فعد مع زوجتك ، وهي صديقتنا وسوف تذكرها دائما• واذ ذاك ارتفعت الاصوات وانفتحت الابواب فعلمت الملكة ان الدوق آت مع رجاله يبحث عن الشابين فقالت لهما اتبعاني الى غرفتي • قالا شكرا لك •

ومرت بسلم سري فوصلت الى غرفتها وخبأت ترولوس وجاليو في مخدع لا منفذ له الا من قرب سريرها • وقالت لهما ، ألبثا ههنا ومهما تسمعا لا تأتيا بادنى حركة •

وظل الدوق في بحثه ، واقام اعوانه في الدهاليز والمماشي • ثم صعد الى النافذة التي كان فيها سلم الحبال معلقا وكانت لا تزال مفتوحة• وبعد هنيهة امتلأ الرواق بالاشراف والسيدات وفتح المحامي افنيل وزوجته باب حجرتهما وتقدما يمسحان اعينهما • فقال الدوق للمحامي ، ان نافذةحجرتك قريبة الى هذه النافذة الم تسمع شيئا ، قال ، متى ؟ اجاب منذ هنيهة • قال، كأني سمعت ضجة عند اسفل القصر فظننت ان بعض الجنود سكروا قال لست اتكلم عما جرى في اسفل القصر ، ولكن عما جرى هنا ••• قال هنا •• اين ؟•• فقال الدوق ، في هذا الرواق ؟ اجاب اتمزح يا مولاي ؟ قال لقد دخل القصر رجلان من هذه النافذة • قال لم ار ولم اسمع • فهدر الدوق ودمدم وقال ، تالله لافتشن القصر حتى اجد الشقيين •

ونزل الدوق واقبل الاشراف رجال الملك والملكة يسألونه عــن معنى تلك الضوضاء • واستيقظ الملك بغتة فاخذه القلق ، واستعلم فقال الدوق، اجيبوه بانه لم يحدث امر ذو شأن ، سوى مشاجرة بين الحراس • ثم قصـد الى حجرة الملكة الوالدة يصحبه الكردينال فتلقتهما كاترين وهسي بملابس النوم وقالت ، بحقكما ازيلا ما خامرني من الانزعاج ، ماذا جرى ؟ فقد قيل لي ان المسيو جانليس جريح ؟ اجاب الدوق ، نعم جرحه صديق لابن عمك اللعين دي كوندة • قالت ، من ذاك ؟ اجاب ، هو المدعو دي سنزاك ، وهو الذي انقذته قبلا من عذاب الاستنطاق • قالت ، تبا له ، ألم يزدجر؟اجاب، انه لا يزدجر ، ولا يؤخذ • وقد افلت الليلة منا كما افلت صديقه مستعينين بسلم من حبال طرحته اليهما امرأة من القصر • قالت يا لله !! لا جرم ان احدى وصائفي تهوى ذلك الوصيف دي سنزاك • اذن لا يحق لك ايهـا الدوق ان تشكو اذا كانت صاحبة الحيلة امرأة • قال ، لا بد من القبض على الشقيين • اجابت ، ارجو ذلك ، ولكن كيف كنتما خارج القصر فـــي مثل هذه الساعة ؟

فارتبك الدوق لهذا السؤال واجاب ، لقد كنا في خدمة الملك • قالت، كأنكما من الحراس ؟ فانعم بكما من خادمين مخلصين •

فخجل الاخوان ، وقالت الملكة ، الشيء بالشيء يذكر ، لقد تلقيت نبأ جديدا عن امير كوندة وهو من تكرهانه • قال الاخوان ، احقا انك تلقيت نبأ عنه ، وماذا يقول ؟ اجابت ، ان رسالته مكتوبة من زمن ، ولم تصلني الا في هذه الليلة ، سلمني اياها شريف وصل من غاسقونيا ، وسوف اعرفكما به غدا وهو شاب لطيف المنظر • والان اودعكما وارجو لكما ليلة سعيدة•

فانطلقا ، واستمر ذلــك البحث وقتا طويلا دون فائـــدة • ثم سادت السكينة على القصر •

الفصل التاسع عشر

(فرنسوا الثاني)

لقد علم القراء في الفصل السابق بما كان من فشل الدوق دي جيسز واخيه الكردينال ليلة نجا منهما جاليو دي نرساك وصديقه ترولوس بعناية الملكة كاترين دي مدسيس .

واشتغل قصر فونتنبلو بالحديث عنهما في صباح اليوم التالي ، فكان الكل معجبين بجرأة ذينك الرجلين اللذين قاوما الدوق دي جيز تلك المقاومة وتخلصا منه بمعونة امرأة من نساء القصر . وشكا الملك الى والدته من سوء سيرة وصائفها فدافعت عنهن وقالت انهن اجدر بالشفقة . ثم غيرت موضوع الحديث .

فلما انتصف النهار اظهرت رغبتها في التنزه ، وكان الكردينال يرصدها ويرقبها وقد جاء الى البلاط بحجة التسليم عليها . فرأى بين الاشراف الذين يتبعونها شابا جديدا لابسا ثيابا قاتمة اللون رافع رأسه تيها على الاقران ، فقال في نفسه :

هذا وجه لم اعرفه قبلا ولعله الرسول الفستوني الذي اشارت اليه

كاترين في حديثها امس • ثم قال للملكة : هل استرحت ايتها السيدة من متاعب الليلة البارحة ؟

فاجابته : نعم ايها الكردينال •

قال : لعل هذا الشريف رسول ابن عمي امير كوندة ؟ واشار الى ترولوس • فاجابته : نعم يا عزيزي الكردينال وهو كما تراه فتى من خيرة الفتيان ادبا وبسالة وكمالا •

قال : انه يكفي ان يكون من ذويك ، ايتها الملكة •

قالت : اسمه ترولوس كونت دي مزغونة ، ولئن رأى اخوك احدى الفرق في حاجة الى قائد : فهذا الكونت يعجبه • فكن نعم الوسيلة لديه •

قال : سأفعل يا سيدتي • ثم حياها وابتعد وهو ممتعض يقول في نفسه : أيكون ترولوس هذا بطل الليلة السالفة ؟ وهل اتى من غاسقونيا حقا : وهل تهواه الملكة الوالدة ؟

وكان الكردينال على علم باخلاق كاترين دي مدسيس وتماديها في الهوى فقال : ربما احبت هذا الكونت واتخذته نديما لها وحظي عندها • ولكن اتراه ذا مطامع ؟ تلك اسئلة مرت في ذهنه أنها اسرار معقدة •

ولو سال كاترين نفسها عنها لما قدرت على جواب • وربما استمالها الى الشاب ما رأت من بسالته واقدامه • وقد عرفت له الجميل لانه حاول التقرب اليها بوسيلة غير الوسائل التي تتخذ في البلاط ، واحست بشيء من الاضطراب لما تأملت نظراته العميقة ورأته يختلف عن سائر الشبان الظرفاء الذين يلاطفونها كملكة لا كامرأة حبيبة •

ولما خرج الدوق دي جيز بالامس من غرفتها فتحت باب المخدع الذي حبست فيه الصديقين ، وكان جاليو يصارع النعاس ، اما ترولوس فكاد

يجن سرورا فوثب وجثا امام الملكة ولثم يديها فقالت له : يا لك من فتى جاهل ، اتخاطر بحياتك هذه المخاطرة ...؟

فاجابها : انما خاطرت بها لاجلك يا سيدتي .

قالت : ولقد كدت تقتل .

اجاب : لو قتلت لعددت نفسي سعيدا اذ اكون قد قضيت وانت ناظرة الي" .

قالت : اذن انت تهواني قليلا .

قال أتسألينني عما اذا كنت اهواك آه لست ادري يا سيدتي كيف أبوح لك بما في قلبي ، وانما اقول انني عبدك وان حياتي لك تفعلين بها ما تشائين . مري بموتي امت طاعة لك .



وانعقد مجلس الاعيان مرة ثانية بعد يومين لم يحدث فيهما اقل تغيير . وظل الملك يظهر كل الميل الى مونمورانسي . فكان آل جيز يضربون اخماسا باسداس ويعدون العدات . فلما انعقدت الجلسة في اليوم الثالث والعشرين من شهر ابريل (نيسان) امر الملك اسقف فالانس بالكلام ، فقام واوسع ابناء المذهب الجديد (البروتستانت) طعنا ، وامتدح آل جيز ، وتشاءم من الحالة الحاضرة ، واشار على الملك بان يقتدي بداود النبي والملك الذي نصر دينه واذل الاديان الاخرى ، ثم طلب الى الملكتين ان يرددا مزامير داود في صلاتهما . واطال في هذا الموضوع . ثم نهض اسقف بروتستانتي آخر فدافع عن ابناء شيعته وطلب لهم الرفق ، وتلاه مونمورانسي فخاطب بقوله : من الخطر ان يتخذ الملك هذا الجم الغفير من الحراس . ولا فائدة منهم الا انهم يحدثون ارتباكا ، ويتطلب وجودهم نفقات كبيرة فان الملك

محبوب من رعاياه وهو ليس بحاجة الى جيش من الحراس وحاشية لا يحصى عددها .

وكان هذا الكلام اشبه بشكوى من الدوق دي جيز فنهض الدوق وصاح بحدة : لقد تبين يا مسيو دي مونموراني انك لم تشهد مؤامرة امبواز ، فان الرعايا الامناء اتوا يومئذ مدججين بالسلاح بحجة انهم يرومون ان يرفعوا ملتمسا الى الملك . ومنذ ذلك اليوم اضطررنا الى اقامة هذا العدد الكبير من الرجال لحراسة الملك وهو ما تلومنا عليه الآن . ومما لا جدال فيه ان الملك يحتاج الى خدم صالحين وجنود بواسل ، وهو قادر على استخدام الجيوش . ولئن قدرت على ان تضم الى صوتك اصوات خمسين الفا فلا يصعب على الملك ان يجد مليونا من رعاياه الامناء يوافقونه ويخالفونك في ما تروم . وكل ما يريده جلالة الملك مقبول لدينا . اما رأيي في مذهبك الجديد فلا يتحول ولا يتبدل . اني اعتبره كارثة مشؤومة على فرنسا !..

وكان صوت الدوق عاليا خشنا ، وكلامه قاسيا ، فاهتز الحضور خوفا من شر العاقبة . ولم يتمالك مونموراني والبروتستانتيون ان رفعوا الايدي وقال مونموراني ، ما العمل بهذا التعصب الذميم !

واذ ذاك اقترح الكردينال شقيق الدوق دي جيز جمع حكام الولايات وترك كل عمل موقوفا الى حين اجتماعهم ، وقال ان الملك يحق له وحده ان ينظر في ما يختص بالامن العام .

فصاح مونموراني ، هذا اقتراح خال من العدالة لانه يسلمنا الى ايدي الحكام واكثرهم اعداؤنا .

فقال الملك ، هل نسيت ان للملك وحده الحق في حفظ الارواح

والاموال ؟

اجاب ، لماذا تسن القوانين ايها الملك ضد البروتستانت ، وهم قـوم مسالمون مخلدون الى الهدوء والسكينة ، ولا امنية لهم الا ممارسةشؤونهم الدينية ، وليس فيها اضرار باحد .

وفيما كان مونموراني يتكلم بهذا الكلام دخل قاعة المجلس شريف يكاد يحجبه العرق والغبار وطلب مخاطبة الدوق دي جيز او مقابلة اخيـه الكردينال ، فخرج الاخوان ، وبعد هنيهة رجعا وكل منهما مكفهر الوجه فقال الملك للدوق ، ما وراءك يا عماه ؟

فاجابه ، ان اعداءك ايها الملك لا يفتأون يسعون سعيهم ضدك .

قال ، ما معنى هذا الكلام ؟

ـ لقد حاولوا اليوم ما هو شر مـن حادثة امبـواز ... ولكنني لا استطيع التكلم هنا ...

ـ بل تكلم !

ـ لست اعلم ايها الملك ان اعداءنا سيحسبون كلامي افتراء؟ ان لمذهب البروتستانت المخيف اعوانا ونصراء قادين . وكم من مغرور يود ان يقتادك ايها الملك الى طريق الرفق والرحمة في حين ان الضرورة تقضي باسـتخـدام العنف والقوة .

ـ زدنا ايضاحا ايها الدوق !

وكان اكثر الحضور قد نهضوا يتململون ضجرا . وجعل مونموراني يده على قبضة سيفه ولبث القوم منتظرين ما يكون . وشرع الدوق يفض رسائل عديدة بين يدي الملك وفيها ان البروتستانت في جهات متعددة قد ثاروا وحاولوا مهاجمة مدينة ليون واستفزاز المدن المجاورة . وان املاك البابا في بعض هذه النواحي قد هدمت ...

فصاح الملك ، ما بال هؤلاء البروتستانت لا يرعوون ؟ فهم يرومون الاستيلاء على مدينة ليون بينما نحن نبحث في الملتمس الذي رفعوه الينا على يد مونمورانسي .

ثم امر حاكم ليون ، وكان حاضرا تلك الجلسة ، ان يعود الى تلك المدينة عاجلا . فاجابه انه يسافر في ذلك المساء .

فقال له ، اذهب واعضد السلطة الملكية . وقد اذنت لك بفتح المدن والقصور بالمدافع ، واستخدام القوة لاهلاك كل مقاوم ومعاقبة كل من يقصر عن القيام بما يجب عليه . وصادر اموال السكان عند احتياجك الى القوت لرجالك ولخيلك .

فصاح مونمورانسي ، اذن هذه حرب مدنية .

فاجابه الملك ، ان البروتستانت بدأوها فالذنب ذنبهم ، ولا بد لنا من الدفاع عن تاجنا .

قال ، الناشدك الله ايها الملك ان تمنع وقوع هذه الحرب .

اجاب الملك ، سنفعل ما نراه واجبا حسنا .

ثم مر الملك بوالدته ومونمورانسي وسائر الاعيان والكبراء دون ان يخاطب احدا . ودنا من الدوق دي جيز واخيه فقال لهما ، اني شاكر لكما يا عمي المحبوبين هذه المساعدة التي جاءت في وقتها ، ولي حاجة اليكما هي ان تتما تقاريركما ، فان هؤلاء الثائرين لا يأتون عملا من تلقاء انفسهم .

قال الدوق ، يوجد دلائل على انهم تلقوا اوامر بهذا الشأن .

اجاب ، نعم كالاوامر التي تلقاها لارنودي في ما مضى . فمن يكون صاحب هاتيك الاوامر ؟ فلم يجب الدوق ولا اخوه .

فقال الملك ، انكما لا تجسران على اتهام احد لان المجرم ينتمي الى

الاسرة المالكة . اذن فأنا ارفع صوتي واسميه . ان تلك الاوامر ولا ريب عندي آتية من غاسقونيا او امير كوندة .

قالت كاترين ، انك تتهم يا بني من غير برهان .

فاجابها ، لست اجهل ايتها السيدة ان امير كوندة من اصدقائك . وهو قد ارسل الينا ذلك الرسول الذي الحقته بك منذ ايام ، بدلا من ان يكون في جملة الحضور . أليس في ذلك اقرار بمشاركته في قضية امبواز ؟

فسكت الجميع ، لان اصرار الملك على الشكوى من امير كوندة ألجم الافواه واوجب على اعز اصدقائه السكوت .

فقال الملك ، هيا بنا يا عمي الحبيبن لنكتب الرسائل الى عمالناوقضاتنا وحكامنا ، وندعو الحكام الى جمعية عامة .

وانصرف الملك ، فتبعته زوجته والملكة ، والدوق دي جيزءوالكردينال.

اما كاترين فانها قالت ، اليوم خمر وغدا امر .

الفصل العشرون

(الملك في باريس)

كانت باريس قائمة قاعدة من شدة القلق والفزع منذ ما اتصلت بها حادثة امبواز • ولم يكن فيها احد قادرا على ان يتبين وجه الخطر الذي يخشى وقوعه • الا ان الكاثوليك كانوا يذهبون الى ان البروتستانت علة ذلك الخوف والخطر ، والبروتستانت يعتقدون كذلك ان الكاثوليك هم منشأ الاضطرابات ومصدر القلاقل والهواجس • وفيما هم كذلك شاع ان الملك تعطف فعقد النية على المرور بعاصمته اثناء ذهابه الى اورليان حيثما تعقد مجالس الحكام • ومعلوم ان الباريسيين يحبون مشاهدة موكب ملك شاب ، وملكة حسناء ، وبلاط زاهر ، فكان ذلك النبأ سببا في رجوع السرور الى المدينة الكبرى • واجتمع جمهور غفير عند باب سن انطوان ينتظر ذلك الموكب مبتهجا • وكان بين ذلك الجمهور نيكول بوصه صاحب فندق حملة السلاح وقد جاء ليظهر تعلقه بالملك والاستاذ برنابا وجاليو وهما نازلان في فندق نيكول •

وكان جاليو قد عاد الى باريس يوم ذهب الدوق دي جيز للصيد والقنص ، فغافل رجال الدوق وخرج من القصر • فلما وصل الى باريس

اخذ يتمرن على استعمال السيف مع رجل ايطالي ، ويدرس التاريخ على استاذه برنابا ، ويستعد للدسائس الجديدة والمناضلات .

وكان الجند يكره الجمهور على الوقوف في جانبي الشارع، وامتلأت النوافذ بالفضوليين . ولاحظ جاليو ، ولم يكن يفوته شيء ، نافذة امامه ليس فيها احد ، وكانت في ذلك الشارع النافذة الوحيدة التي لا يطل منها احد . وقال نيكول ، هنا قوم لا يحبون الملك . الا ان الاصوات سكنت عندما اقبلت فرقة من الفرسان ، فتذكر الشعب مواكب هنري الثاني وفرنسوا الاول ، واقبل الملك ايضا في لباس الحرب ، وتلا الحراس حملة الطبول فكانت اصواتها تدوي وتحول دون سماع الهاتفين . وكانت تدق دقات الحرب وهو ما لم يتوقعه الجمهور . فكان كلما هم بالهتاف للملك والجند والحراس ورأى ذلك السلاح والاستعداد الحربي تخفت اصواته .

وكان جاليو في جملة المشاهدين ، فاكتأب من ذلك المشهد . اما نيكول فاسف لانه ترك فندقه . واما برنابا فقال له لقد انبأتك ان الموكب لا يكون في هذه المرة سارا ، فاجابه جاليو ، ذلك من تدبير الدوق دي جيز . قال، اتظن ذلك ؟ اجاب ، كيف لا ؟ ان الدوق لا ينكر عليه امر كهذا فهو يدري ان شعب باريس ينتظر الملك ليهتف له فادخله المدينة كما يدخل بلدة قد افتتحها بسيفه .

ومر الموكب امام الجمهور فقال نيكول ، ما اكثر الفرسان الحاصلين على الوسامات ، فاجابه جاليو ، واأسفاه !! انهم لم يحصلوا على وساماتهم الا بالمداجاة والمصانعة لا بالبسالة وقوة السيف .

ولما ظهر الملك للاقوام كادوا يهتفون له كعادتهم الا انهم رأوه ممتقع اللون متعبا كانه شبح ميت ، فكتبوا . وكانت كاترين قد اقترحت دخول

الملك المدينة في موكب بهي لعلمها بان الناس مفتونون بتلـك الظواهر ، الزواهر ، ولا تجهل ان ملوك فرنسا كانوا في كل زمن يتقربون الى شعبهم بمثل تلك المواكب . غير ان الدوق دي جيز اشار على الملك بغير هذه اذ قال له ان باريس ممتلئة بالاعداء ففيها البروتستانت في كل زقاق وسوق وشارع ، فلا بد من ان نبرهن لهم على ان لملك فرنسا قوة مسلحة ، وانـه مستعد للقتال عند الحاجة .

ولذلك لم يلبس الملـك الا اللباس الخالي من كل زخرف وهـو ابن عشرين سنة يحب الزهو والاعجاب ويقضي ايامه في مداعبة زوجته الصبية ، لكنه انقاد الى مشورة الدوق مرغما ، وكان العرق ينسكب من جبينه . اما الدوق فكان على عكس ذلك مستويا فوق سرج جواده مدرعا ، يحجب درعه ثوب من القطيفة الحمراء موشاة وشيا نفيسا . وفيما كان الاشراف شاهرين سيوفهم ترك سيفه مغمدا واطلق العنان لجواده وكان اعلى مـن جواد الملك فارتفع في الجمهور الهتاف له بدلا من الهتاف للملك .

وظل جاليو ينظر الى النافذة المفتوحة التي لم يطل منها احد . وفيمـا كان اشراف الملك وفرسانه يمرون اطلت من تلك النافذة امرأة لابسـة ثيابا سوداء وهي فتانة المحاسن وقد ظهرت للفرسان فبهتوا . ولما رآها الدوق دي جيز اصفر وجهه واوقف جواده من غير انتباه ثم حثـه على السير ، وللحال دوى طلق بندقية من قرب المرآة واصابت ثوب الدوق رصاصة لم تتجاوز الدرع ، فقال الملك ما هذا ؟

فاجابه الدوق : لا شيء ايها الملك سوى انها رصاصة اخطأت مرماها .

قال : سوف يعذب الشقي الذي اطلقها ثم يشنق !

اجاب : اعلم يا مولاي ان القتلة لا يستحقون هذا الاهتمام .

فلما تحقق الجمهور ان الدوق لم يصب بسوء استرسل في حمـاسته

وارتفع الصياح من كل ناحية ، ليحيى الدوق دي جيز !

وتواثب كثيرون الى البيت الذي صدر منه الطلق فكسروا بابه وابواب غرفه . ولما وصلوا الى النافذة لم يجدوا احدا . ولما امسى المساء شاع نبأ الحادثة وقال القائلون ان البروتستانت هم الذين اقدموا على ذلك ولم يتمكنوا من الاحتجاب الا لانهم باعوا نفوسهم من الشيطان .

ولما وصل الملك الى اللوفر استقبل اعضاء مجلس النواب وقال لهم ، قد يخامر التعجب سكان مدينتنا من دخول الملك كمحارب ، على انكم تعلمون اننا وفقنا الى معرفة المجرمين الحقيقيين الذين ارتكبوا الجناية الفظيعة في امبواز ، فهم امراء اسرة بوربون واخصهم لويس دي بوربون امير كوندة ، فان لابن عمنا دي كوندة اصدقاء عديدين في باريس ، ولسنا نجهلهم ، وحسبنا برهانا تدبيره الشائن الذي سعى به ضد عمنا الدوق دي جيز ، ولذلك جمعنا جنودنا لنكون في أمن على شخصنا ، فاذهبوا ايها السادة واعيدوا ما سمعتموه على كل سكان باريس مدينتنا المحبوبة .

وعند المساء اجتمع جاليو وبرنابا في فندق نيكول ، وضرب الباب فقال جاليو ، لعل القادم ترولوس ؟

فاجابه ترولوس ، نعم جئت لاحييك ايها الصديق ، وانت ايها الاستاذ الفاضل .

قال ولك منا التحية ايها الكونت بعدما تركتنا .

اجاب ، كلا ولكنني لم اكن قادرا على الرجوع الى باريس دون ان ترجع الملكة ، لانني كما يعلم جاليو قد صرت من رجالها .

قال جاليو ، نعم بهذا المنصب السعيد !

اجاب ، واحر قلباه ، اني به لسعيد سيء الحظ معا . وآه لو تدري ما انطوى عليه بلاط فرنسوا الثاني من مفاسد ومكائد .

قال : ما اخالك تشكو ما دمت ترتع مع الراتعين ...

وبعد ان اكلوا ، اوصل جاليو برنابا الى مخدعه ثم اتجه الشابان الى اللوفر فقال جاليو : الا تنبئني عن مارسلين ؟

اجاب : انها صارت من نديمات الملكة لان بين المرأتين سرا يمنع كلا منهما ان تخون الاخرى . اما المحامي افنيسل فانه لا يتجرأ على مفارقة البلاط ، ولا اظن الا انه اتى امرا يعنف عليه نفسه لان عمله كساد يقضي عليه بالقدوم الى باريس .

قال جاليو : ذلك من الممكنات . ولكن هل عرف الدوق اسم رفيقي الذي صعد في سلم الحبال معي ؟

اجاب : لقد حلف الدوق بان يشنقك يوم يجدك .

قال : لله دره من رجل كريم الخلق .

جوادا او مركبة .

وهنا تبسم وقال : لكنني اخشى مضايقتك بخبري . قال : ألست اخي في السلاح ؟ فتكلم .

ـ ان الملكة اذنت لي بالاقتراب منها ونحن في الغابات ، والوصائف الايطاليات اللواتي يصحبنها مخلصات لها فلا تخشى خيانة منهن . ويومئذ حدثتني بسيرتها الماضية ، وما اصابها من يأس وذل في عهد زوجها وعشيقته ديانا دي بواتيه . وقد اراد هنري الثاني تطليقها ، وهي الحسناء الفتانة .

قال ترولوس : اما انا فانه لن يعرفني قط وانت تدري ان الملكة عرفتني بالبلاط في اليوم الذي تلا يوم الحادثة وقالت انني رسول امير كوندة. ولم افارق الملكة منذ ذلك اليوم ، فان كاترين اختارتني لاصحبها في نزهاتها ، وكنت اضطرم هوى بقربها وانتظر منها اشارة لادنو منها عند ركوبها ولطالما جلست اليها تحت اشجار الادغال اقرأ وإياها اناشيد بترارك وقصائد

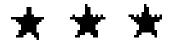
دانت . وكانت كلما قرأنا محادثة غرامية تأمرني بأن اتلو كلمات العاشق وهي تنشد ابيات العاشقة . وكذلك كنت اطارحها الهوى ...

ـ انك خجول يا صديقي .

ـ انت غلام ، فهل فاتك ان هذه المرأة ملكة ، وانها ملكة حسناء كثيرة العشاق . وقد اذنت لي بمخاطبتها عن غرامي ، وتفضلت عليّ بأن القي اليها بتلك العبارات المحرقة التي ينظمها الشعراء في سلك قصائدهم الرنانة، فهل استطيع ان اطلب اليها شيئا آخر ؟ وهي قد كانت تقول لي ، « انت يا ترولوس قبس من نور ظهر في سماء حياتي المحجبة بالغيوم » . وانما دعتني باسمي ، دون لقبي ، لانها طلبت مني ان ادعوها كاترين . فلما ابيت قالت لي ، هل تغير ابيات دانت لنحشر بينها قولك ايتها الملكة ؟

ودخل الصديقان الى اللوفر فتناول ترولوس يد جاليو واوصله الى نافذة ينبعث النور منها وقال له ، هناك تنام عشيقتي . فان عشيقتك ؟ اجاب نعم ، كنت ذات يوم انشد اشعار بترارك ، فطلبت اليّ كاترين اعادتها مرتين ثم قالت لي ، ان صوتك يعذب عندما تقول « اهـواك » ، فضاع صوابي وفقدت رشدي وعدلت عن التكلم بالاشعار . وكنا في صميم غابة بديعة من غابات فونتنبلو ، مبتعدين كثيرا عن الحاشية ، والهواء يحمل طيبا ، فنسيت الملكة انني شريف مسكين لا انتمي الى الاسرة المالكة ... والآن اودعك !

فتركه جاليو حتى دخل القصر وعاد يقول في نفسه ، وارحمتاه لفؤادك ايها الصديق ، ولا قدر الله ان يغدو العوبة بين يدي تلك المرأة فتكسرها في ساعة لهو ولعب ...



ولم يقف الملك وجيشه في باريس الا يوما واحدا ، ولكن جاليو اكتشف في ذلك اليوم امورا خطيرة ، لانه تجول في البلد ، فطاف في

شوارعها واسواقها ودخل فنادقها وحاناتها ، وتجرأ حتى على دخول قصر اللوفر غير خائف ان يصادف الدوق دي‌جيز مع علمه انه اقسم على اهلاكه. وتمكن من التقاط عبارات رابته واوجس منها خوفا على مولاه امير كوندة، لانه سمع القوم يتكلمون عن انفاذ العدل في مجلس اورليان . وامير كوندة مدعو الى ذلك المجلس ، ولا بد من ذهابه اليه . فرأى جاليو ان الواجب يقضي عليه بالسير الى اورليان لينذر سيده بما ينويه الملك ، وينقل اليه الجملة التي خاطب بها اعضاء النواب .

فسبق جاليو موكب الملك . ولما علم استاذه بعزمه على السفر بكي شفقة عليه وقال له : الا تزال تخاطر بنفسك ؟ الا تدري ان المخاطر ليس بمحمود وان سلم .. وما كل مرة تسلم الجرة ، كما يقول المثل .

اجاب ، بل ارجو السلامة يا استاذي . واعتقد ان طالعي سعيد ، وان الله لم يقدر لي الهلاك .

قال ، لو انك مسافر لتلحق بامرأة تهواها لفارقتك غير آسف ، ولكنك مسافر لتلقي بنفسك الى التهلكة .

ـ اني ذاهب لالقي امير كوندة ، وبيني وبينه عهد ، مراعاته فرض واجب عليّ ، ولست ادري اي ويل يحيق به . الا ان نفسي تحدثني بقرب وقوع خطب جسيم ، فلا بد لي من الانضمام الى الامير في وقت الخطر . وهب اني اقمت معك ، فما اراانا نسر بالاقامة وهذه حالتنا . ألم تر ان الكآبة دخلت باريس مع حاشية الملك وبطانته ، ولعل وراء الحجاب خيانة مدبرة فاذا نبهت الامير كميته شرها . على ان بشاشتي وطلاقة محياي لم تمت بل هي راقدة ، فلو اردت الضحك اليوم لما قدرت . ولا اشتهي الا مبارزة اكون فيها فائزا او خاسرا ، فليس ذا وقت العشق والغرام .

قال مع السلامة يا عزيزي جاليو ، واني اتبعك عن بعد ومتى عدت متبرما متضجرا من هذه الحياة التي تكتنفها الدسائس والمهالك تجد عندي زجاجات ملأى بالراح وكتبا تزينها قصائد شعرائنا المجيدين .

الفصل الحادي العشرون

(كلام الملك)

وصل جاليو الى اورليان بعد ثلاثة ايام فالفي الكآبة والغم سائدين فيها سيادتهما في باريس . ووجد فيها احد اصدقاء الدوق دي جيز اسمه فيليب دي مرسيلي ، قدم المدينة منذ اوائل شهر اكتوبر (تشرين الاول) مأمورا بنزع السلاح من سكان المدينة . ولقد انزل هذا الرجل جنوده في بيوت السكان الذين يعلم انهم من ابناء المذهب الجديد (البروتستانت) وطرح في السجن من ابى قبول هؤلاء الجنود .

ونزل جاليو في فندق صغير في زقاق مظلم قرب نهر اللوار ، ثم اخذ يطوف في المدينة . واول نبأ وصل اليه هو ان الله اراد الانتقام لسكان تلك المدينة من حاكمها ، فسلط عليه منذ يومين داء النقرس فبات يصرخ من شدة الالم . وخطر لجاليو ان ينظم ابياتا بهذا المعنى ، وفي اليوم التالي قرأ سكان المدينة ابياتا مكتوبة على ورقة ملصقة على باب بيت الحاكم ، ولا بأس من ترجمتها للقراء ، قال فيها :

« يا من يمر ! اتدري لمن هذا القبر ، وما حوى من المخازي ؟ فهو قبر رجل لا امنية له من دنياه الا ان يكون جلادا لعباد الله . انفق العمر ولم

يأت حسنة ، ولذلك رأى الله ان يعاقبه ، لانه تعالى لم يطق فظاظته، فرماه بداء النقرس ليكون عبرة لكل من يمر بهذا المكان •

واستمر جاليو يتفقد شؤون الناس حتى وصل الى بيت يحوطه بـه الجند من كل ناحية وهو مسور بالحديد ، فقال لاحد الجنود ، مـا هذا البيت المشؤوم ، وهل يقيم فيه احد ؟ فاجابه الجندي كلا • قال ، لعله لاحد ابناء المذهب الجديد اللعين ؟ اجاب ، بلا شك •

فاخذ جاليو يضحك ، ثم ضرب بيده كتف الجندي وقال ، مـا اظن الامير يواصل السير الى هنا لو دري بهذا المنزل المعد لسكناه •

قال الجندي ، صه !! اني لاخشى ان يسمعنا احد من اصدقاء الامير •

قال جاليو ، اصبت ، فما كل الناس كاثوليكيين مثلنا !

ومضى وهو منكمش الصدر وقد فهم المراد من قولهم في بـاريس ان سينفذ العدل في اورليان • وفيما كان مارا قرب الاسوار ابصر قلعة تحدق بها فرقة من حملة البنادق ، وقسيسا ينظر اليهـا نظرة المتشفي فقال لـه جاليو ، الا ما انبأتني يا ابت عن البروتستانتي الذي يكابد عـذاب هـذا السجن ؟

قال ، الا تعرف اسم هذه القلعة ، فهو يغني عن الايضاح •

قال جاليو ، وما اسمها ؟

اجاب القسيس ، اسمها قلعة الاميرال ، يا بني •

قال لقد فهمت ، فانها معدة لذلك الشيخ اللعين جسبار ، زعيـم تلـك الطائفة الممقوتة ونصيرها •

ورجع جاليو الى الفندق يفكر في ذلك الذي يسمونه عدلا • ثم تقلـد سلاحه وعول على مفارقة البلدة ليلقى امير كوندة ويحذره • وفيمـا كان

راحلا عن اورليان دخلها الملك في موكبه الحربي الذي احزن اهل باريس • وكان فيليب دي مرسيلي ، صديق الدوق دي جيز ، قد اقام حراسا في كل شارع وساحة من ساحات المدينة • وشمل الرعب اهل المدينة كما شمل نواب الاقاليم الذين وفدوا ليحضروا مجتمع الحكام •

فلم يهتف للملك احد • واستقبل جلالته مختار البلد واسمه جيروم جروسو ، وهو رجل كان متهما بالاشتراك في مؤامرة امبواز ، فقال له «اذا لم تصلح سيرتك عاقبناك معاقبة يعتبر بها الآخرون» • وكان جيروم هذا قد هيأ خطابا ليلقيه بحضرة الملك مضمونه احتجاج السكان على هذه المعاملة ، واظهار اخلاصهم للملك • فعلم فيليب دي مرسيلي ، رسول الدوق ، بالخطاب ، فلما وقف جيروم ليلقيه صاح ، هذا هو قائد البروتستانت !

فذعر جيروم المسكين • وعظم ارتياعه لما رأى ما في نظرات الملك من الشراسة ، فاضطرب وتلعثم • وللحال اتهمه فيليب دي مرسيلي امام الملك بانه اعترضه في نزع سلاح السكان ، فقال الملك ، لقد بلغني سوء تصرف هذا المختار من زمن طويل ، فاطرحه يا مسيو دي مرسيلي في السجن وليتنظر القضاة في قضيته غدا •

وهكذا كانت فاتحة عمل الملك الآمر بالقبض ظلما على ذلك الرجل الشهم • وتهيأ الحراس للهجوم والدفاع كأنهم في مدينة عاصية يحاولون اخضاعها •

هذا وامير كوندة قضى شهورا وهو يشاور نفسه في الاوبة الى بلاط الملك واجابة الدعوة ولا يدري هل يذهب وحده او يستصحب اصدقاءه ورجاله • وكان الملك قد كتب من فونتنبلو الى ملك النافار شقيق امير كوندة يطلب اليه ان يستصحب اخاه ليبرر نفسه من التهم الملقاة على

عاتقه . ثم انه ارسل الى غاسقونيا رسولا ، هو الكردينال دي بوربون ، والحقه بآخر هو البارون دي كرسول ، واكد الاثنان لامسير كوندة ان حقوقه كأمير من الاسرة المالكة او الدم الملكي ستحفظ وتراعى . وكانت لزوجة امير كوندة وحماته مراسلات مع نساء البلاط ، فاشارتا على الامير بان لا يلبي تلك الدعوة وحذرناه من الانقياد الى ملك فرنسا . الا ان اخاه ملك النافار اقنعه بالذهاب معه . فسافرا معا وهما لم يقرأ كيفية دخولهما على بلاط الملك . ولحق بهما بضعة آلاف مسن الاشراف الى ليسموج ، ووعدهما زعماء المذهب البروتستانتي بجيش مؤلف من ستة آلاف رجل ، الا ان وصولهما على تلك الصورة يدل على معنى الحرب والتأهب للنضال . وجاءهما رجل اسمه ارميناك يزعم انه قريبهما ، وهو في الحقيقة ماجور من الدوق دي جيز ، فاكد لهما حسن نية الملك فرنسوا الثاني . فاكره ملك النافار الامير اخاه على عدم استصحاب رجاله واصدقائه بحجة ان لا حاجة اليهم .

وارسل الدوق دي جيز الماريشال دي ترم لاستقبالهما فتلقاهما بالاحتفاء المشكور ، فاولاهما ذلك ثقة وحسن ظن . ولما لقي امير كوندة جاليو في ضواحي اورليان ، كان ممتلئا بالآمال الحسنة . فوقف جاليو امامه ففرح بلقياه وقال له ، حياك الله يا جاليو !

فاجابه ، لقد سرني لقاؤك يا سيدي .

قال الامير ، لقد ظننتك سجينا او ميتا لانني لم اتلق خبرا عنك وبت أسأل نفسي عما اذا كنت قد هجرتني .

ـــ معاذ الله ان اتركك يا مولاي .

ـــ وماذا جرى للفيكونت دي شارتر المسكين ، ألم تفلح في انقاذه من محبسه ؟

فتعجب جاليو من شهامة الامير لانه لم ينس صديقه السجين ، وهـو اجدر منه بالانقاذ من كيد الماكرين ، فاجابه ، ليس غرضنا الان يا مـولاي انقاذ الفيكونت دي شارتر ، وانما انقاذك انت ! ولا يزال في الوقت متسع لرجوعك ، فعد الى غاسقونيا ، واجمع اصدقاءك ولا تأت الى اورليان الا وحولك جيش قادر على حمايتك .

قال ، شكرا لك يا جاليو على ما فعلت لاجلي . ومن كان اميرا يسره ان يجد من يخدمه خدمتك اياي دون نفع ولا جدوى . لانك تخدم اميرا لا مال عنده ولا قوة له ، وربما بات في الغد سجينا او اسيرا . ومد يـده الى يد جاليو يصافحه ثم قال ، اذن انت تظن ان وراء الاكمة ما وراءها ؟

اجاب ، لا مجال للظن يا مولاي فاني متيقن ، وحبـك حاضر كحبس الاميرال دي شاتيليون .

ــ وهل تدري كيف يقبضـون عليّ ؟ اعند دخولي اورليان ، ام عنـد الملك ، ام في مجلس الحكام ؟

ــ اني اجهل ذلك يا مولاي . ولكنني على علم بان القوم قد هيـأوا محاكمتك والحكم عليك .

ــ ومع ذلك فما اخالهم يتعرضون لي باذية لانني امير ، دمي من دم الملوك . وقد ابلغت الملك خبر قدومي الى اورليان قبل نهاية شهر اكتوبر، فغدا اكون فيها .

قال جاليو ، انك تلقي بنفسك في اتون التهلكة !

اجاب ، ليس الموت يروعني . وفضلا عن ذلك فقد وعدت ولا اخلف وعدي . والافضل عندي ان احاكم ولا ارجع في كلامي رجوع كاذب ، بل حسبي ما يحدق بي من الدسائس التي اريد ازالتها . وهل اكـون انـا المذنب اذا شاء الدوق دي جيز تحويل ملتمس امبواز الى مؤامرة ؟ هـل

اكون المذنب اذا كان الكاثوليكيون يلجئون اتباع مذهب كلفين الى الدفاع عن انفسهم ؟ وهل اكون المذنب اذا ثار ماليني وحاول الاستيلاء على مدينة ليون برغمي ؟ وهل اكون المذنب اذا كان احد القواد البروتستانت تروم الانتقام لاخيه ؟ انهم يحسبونني علة لكل ويل ينزل بفرنسا ، ولكل خطب يقع فيها . والاجدر بان يهتدي ملك فرنسا الى الصواب فيعلم ان آل جيز علة هاتيك العلل ، لا امير كوندة ! فليحبسوني ، وليحاكموني ، وليحكموا عليّ !

وفي اليوم التالي وصل ملك نافار وامير كوندة الى ابواب مدينة اورليان . وكان الدوق قد علم بوصولهم من اعوانه ، فجمع المقاتلين من جند وحراس وسلحهم تسليحا كاملا وصفهم وصفا محكما ، اوله عند باب البلد وآخره عند قصر الملك .

فقال الضباط ، هل من عدو مفاجيء ؟
فاجابهم الدوق ، نعم ، وانه الد عدو للملك ايها السادة .

واراد بعض الاشراف مقابلة الامير الا ان الدوق لم يأذن بمقابلته ومقابلة اخيه لاحد غير اقربائهما كالكردينال دي بوربون ، والامير دي روشسوريون . وغاظ ملك النافار واخاه ذلك الاستقبال السيء ، وزاد طنبور سخطهما نغمة ان بعض الضباط الذين سمعوا كلمات الدوق دي جيز تظاهروا بانهم يهينون الاميرين . غير ان اكثر من كان معهما جرد السيوف ، جاليو ، فوصل الاميران من غير حادثة تذكر الى قصر الملك . (وهذا القصر منزل عمدة المدينة) فدهشا لما ابصرا الابواب الكبرى مقفلة . وطلبا من الحراس فتحها فاجابوهم بشراسة ان الابواب الكبرى لا تفتح الا للملك .

فقال امير كوندة في نفسه ، لقد كان جاليو مصيبا . وترجل واخوه

عن فرسيهما ومعهما الكردينال دي بوربون والامير دي روشوريون فدخلوا « بلاط الشرف » ولما علم الملك بقدومهما جلس في اعلى اريكته مع عميه وسائر رجال البلاط فلم يتقدم لاستقبالهما احد من الاشراف ، واستمر الملك يتحدث مع عميه كأن الاميرين غير حاضرين •

هذا وقد صعد الاخوان درج الاريكة الملكية والقيا تحيتهما على الملك،

فقال لهما ببرود : ها قد جئتما يا ابني العم بعدما طال الامد على دعوتنا اياكما •

واضطرب ملك النافار من هذا الاستقبال البارد فلم يجب بكلمة ، الا ان امير كوندة لم يرتبك بل قال ، اننا لا نكون قادرين على خدمتك ايها الملك ما دمنا في البلاط لان مناصبنا قد انتزعت منا • والامر بالعكس اذا كنا في الولايات فانا نستطيع ان نقوم بالواجب علينا •

قال الملك : عندنا ضباط يتولون خدمتنا في جميع الولايات •

وكان امير كوندة يتوقع تعرض الدوق دي جيز واخيه ، الا انهما لم يكادا يسلمان عليه وعلى اخيه ثم نهضا كأنهما لا يودان التداخل في شؤون عائلية لا تعنيهما •

فانثنى الملك الى امير كوندة ، وكأنه نسي ملك النافار ، وقال ، انك كثير التشكي من ادارة المملكة •• اني اعرف ذلك يا ابن العم •

واذ ذاك وصلت الملكة الوالدة وقد اظهرت كل مودة للاميرين بعدما ابتعد عنهما اكثر رجال الحاشية • وشعر كوندة بالفراغ حوله ، فطلبت الملكة الوالدة الى ولدها ان يأتي معها وتبعها الاميران كذلك • فاجتمعوا اجتماعا عائليا في غرفة الملكة •

وكان امير كوندة ينتظر ان يكلمه الملك ، الا ان فرنسوا الثاني كان

منفعلا اشد انفعال ، فقال للامير ، لقد اتصل بي من مصادر عديدة انك روح المؤامرات ، وانني ومملكتي هدف لسهامها ، وما دعوتك الا لاطلع منك على الحقيقة .

ــ لست ادري ايها الملك من الذي يتهمني ، ولكنني اؤكد لجلالتك ان الساعين بي كاذبون .

ــ وهل كانت الرسائل التي كتبها اليك اصدقاؤك كاذبة ! وهل كذب اسرى امبواز ، وهم مشرفون على الهلاك ؟ وهل كذب دي رشيان ، وماليني ، ومونبرون ، وغيرهم من الثائرين الذين يتخذون من اسمك درعا لمباشرة اعمالهم الشائنة ؟ وهل كذب البروتستانت عندما ادعوا انك زعيمهم ؟

ــ كل هذه التهم ايها الملك افتراء محض ، وليس مصدرها من ذكرتهم بل مصدرها آل جيز دون سواهم !

ــ لا تهن افضل اصدقائي واصدق الناصحين !

ــ لقد اتيت ايها الملك غير مستصحب جنودي ولا متقلدا سلاحي ، وكان في وسعي ان اجعل بصحبتي جيشا عرمرما لا بعض اصدقاء ، فهل كنت اسلك هذا المسلك معك لو كنت انوي غدرا بك وقياما عليك ؟ ولا شأن لي في ما فعله ماليني من هجومه على ليون ، ولا علاقة لي بثورة دي رشيان ، فالرجل انما ثار لانه طالب عدل وثار وقد قتل اخوه ظلما ...

ــ أيطلب العدل واحد من ابناء ذلك المذهب الساقط ؟.

اجاب الامير ، ان ابناء ذلك المذهب الساقط ، كما تدعوهم ايها الملك، هم رعاياك قبل كل اعتبار اخر ، بل هم مخلصون لك كابناء المذهب الكاثوليكي . وهم على الاقل ابناء الارض الفرنساوية ، لا غرباء كالناصحين

الذين تحبهما وتكرمهما وهما غير فرنساويين .

قالت كاترين ، لا ينبغي يا ولدي ان تعامل امرأة من البيت المالك في فرنسا هذه المعاملة ، وان امير كوندة لا يروم الا ان يخدمك بصدق وشهامة ، فثق به كما انا واثقة .

فاجابها الملك انك ما برحت تنصرين اعدائي ايتها السيدة . اما انا فاني احسن الدفاع عن سلطاني .

ثم نادى قائد حراسه المسيو شافيني وقال ، سلمه سيفك يا ابن العم . وانت ايها القائد سر به الى المسكن الذي امرت باعداده للامير ...

قال امير كوندة ، اسلمه سيفي ؟

اجاب الملك ، نعم .

قال ، أتتجرأ على اصدار امرك بالقبض عليّ ؟

اجاب ، ألست الملك ؟

قال ، ومن ذا الذي تجرأ فوقع على الامر الصادر بالقبض عليّ ؟ لاجرم ان آل جيز هم الفاعلون !

قال الملك ، اطلع ابن عمي ، ايها القائد ، على الامر الذي بيدك .

فالقى الامير نظرة على ذلك الامر المكتوب وقال ، لا بأس ! فهذا اسم الملك فرنسوا حفيد من كان يدعو نفسه اول شريف في فرنسا موقع على امر ينقض به كلامه . الا انك ياذا الجلالة قليل الاحترام لكلامك . وابناء فالوى ، سلالة سن لويس ، كأبناء البوربون ، لكنهم تناسوا كرامةاجدادهم ونبذوا شرفهم . قال انت تتجرأ على اهانة مليكك ؟

اجاب ، يحق لي ان ارفع رأسي تيها يا فرنسوا لانني لم ارجع في كلامي قط ولم احنث بوعودي واقسامي . وها انت قد رجعت في كلامك كما حنثت بوعودك واقسامك .

فنهض الملك وهو يرتعد غضبا ، ومد يده الى الباب ، فانحنى الامـــير نحو الملكة الوالدة وقال لها ، كان الدم الطاهر الشريف ساريا فـي عروق اسرتك من قبل ، ولست ادري ايتها السيدة اذا كان دمك الذي افسده • بل اجهل اذا كنت كاذبة او اذا كنت تنطقين بالصدق عندما تتكلمين ••

فاجابته كاترين بكآبة : اعلم ايها الامير انني لست الآن بملكة فرنسا• ولقد اصبت ، فان والد زوجي فرنسوا الاول لم يكن ليأتي مثل هذا العمل• واقسم لك بذلك الملك الذي كان يحبني كانني ابنته على ان دعائي لسلك يصحبك في سجنك •

فدنا الملك من والدته وصاح يقول ، اهذه هي واجبات الوالدة ؟ انت تهينينني امام الد اعدائي !•• ان هذا لا يليق بك ايتها السيدة •

فحيا امير كوندة كاترين باجلال واكرام ، والتفت الى قائـــد الحراس وقال ، اني مستعد للحاق بك ، واليك سيفي ، فهيا بنا !

ولبث انطوان دي بوربون ملك النافار صامتا ، وخرج مع اخيه لكنهم منعوه من مصاحبته • وكان الكردينال دي بوربون ، وهو شقيـــق امير كوندة ايضا ، ينتظر نتيجة المقابلة عند الباب فقال له الامير ، لقد كان كلامك الحامل على الطمأنينة سببا في هلاك اخيك •

واحس جاليو بالدموع تسيل على خديه عندما مر به ، فرآه الامير ومد اليه يده وقال ، اودعك يا عزيزي جاليو ، فانك لم تقل الا الحقيقة •

فاجابه ، واسفاه يا مولاي !

ـــ خذ فرسي فلست بحاجة اليه بعد اليوم • واودعك ! ورآه جاليو من بعيد يدخل مع قائد الحراس ذلك السجن المشؤوم الذي وقف به منذ ايام

ودخل الدوق دي جيز واخوه حجرة الملكة الوالدة ، فابصر الملك في اسوأ حال لانه اصيب بنوبة عصبية شديدة بعدما عمل بمشورتهما والقي القبض على ابن عمه ، واغمي عليه . فمددته كاترين على سريرها وكشفت الملابس عن صدره وجعلت تدلك صدغيه بالماء البارد ، فافاق فرنسوا شيئا فشيئا الا ان وجهه ظل ملطخا ببقع صفراء . فلما عاوده رشده قال لكاترين، اين الملكة ؟

اجابت ، اني امامك يا بني .

ـ اني اروم ان ارى زوجتي الملكة دون سواها . فانت لا تحبينني بل انت من اعدائي . فابعث يا عماه من يدعو الملكة !

ولما وافت ماري ستوارت دهشت من ذلك الانقلاب الذي تولى زوجها ومن اكفهرار وجهه فتأملها الملك بانعطاف وقال لها ، هل تحبينني ؟

اجابت ، ما هذا السؤال ايها الملك ؟

قال ، وانت يا عمي شارل (يعني الكردينال) هل تحبني ؟

فتناول الكردينال احدى يديه .

فقال ، وانت يا دوق ، يا سيفي القاطع ، امسك يدي الثانية .

فتناول الدوق يده الاخرى . ونظر الملك الى الثلاثة الذين كانوا امامه وهم كل من كان يحب . اما كاترين فقد تراجعت عنه ، ولم يخاطبها احد منهم فكانت تلك الضربة موجعة لان ابنها انكرها ، فخرجت من مخدعه تمشي الهوينا . وكان ترولوس عند الباب فامسكت يده واجتذبته الى دهليز مظلم وقالت له ، لم يبق لي احد سواك ، فهل تحبني انت ؟

فاجابها ، كيف تسألينني هذا السؤال يا سيدتي ؟ اولا تعرفين مني ما يكون جوابي عليه ؟

قالت ، ايحملك الحب على ان تطيعني في كل شيء حتى في القتل ؟..

قال : من الذي ترومين قتله ؟

فتوقفت عن الجواب وكانت تنوي ان تقول له « ابني » .

وادرك ترولوس منها ذلك فنظر اليها مرتاعا فقالت ، ويلاه ! قال : انت ترومين الانتقـام يا مولاتي !.. قالت ، لقد اصبـت بعارض جنون يـا ترولوس . آه ما اسوأ حظي ! لا يوجد احد في هذا البلاط احبه غيرك ... انت وابني الآخر ، هنري !

الفصل الثاني والعشرون

(الدوق والكردينال)

وفي الليلة التالية حضر الكردينال الى حجرة الملكة الوالدة ليزور الملك، فمنعه ترولوس من الدخول فقال له ، اني اريد مقابلة الملكة الوالدة وهي تنتظرني •

فاجابه ، اني جندي يا مولاي ، ولا اعتبر الا الاوامر التي اتلقاها من رئيسي وقد صدر الي الامر بان امنع ايا كان من الدخول الى هنا •

ـــ حذار يا هذا فانك وقفت في طريقي مرارا حتى الآن •

ـــ من يخدم الملكة يا مولاي لا يخشى بأس احد •

واذ ذاك خرج فرنل طبيب الملك من الحجرة فوثب الكردينال اليه وقال له انبئني عن الملك •

ـــ انه ضعيف جدا •

ـــ وهل يخشى عليه •••؟

ـــ علم ذلك عند ربي ايها الكردينال • وابتعد مسرعا •

واذ ذاك تمكن الكردينال من الدخول فابصر الملك كأنه مغمى عليه لا يعي شيئا • وكانت ماري ستوارت زوجته قد انصرفت عنه وبقيت كاترين

ساهرة عنده تنقل حبات سبحتها بين اصابعها ، فخاطبها الكردينال برقة، قال : يا سيدتي . فلم تجب ...!

فقال لها : اني اروم مخاطبتك ايتها السيدة في امر خطير .

فرفعت اليه رأسها بكبر وعظمة وقالت : لم اكن اظن انه يوجد في بلاط فرنسا رجل واحد يحق له ان لا يدعوني بذات الجلالة !

فاجاب الكردينال بجرأة : لقد كان لي ذلك الحق في ما مضى .

قالت : لقد مضى ذلك الزمن يا كردينال ، فما هذه الجسارة التي تبدو منك ، وكيف تذكرني بذلك امام ابني وانت تراه مريضا ...

فارتعد الكردينال من كبرها واوجس خوفا من ان تكون قد احست بشيء من السلطة والقوة . فان امير كوندة قد بات سجينا ، وملك النافار قد بثت عليه العيون فلا ينجو ، والاميرال كبير طائفة البروتستانت يوشك ان يصل ، وسجنه مهيأ له ، واعوان امير كوندة قد طرحوا في السجون ، ولم يبق احد تعتمد عليه الملكة ، وليس في البلاط الا انصار آل جيز ، ومجلس الحكام ، وقد تألف منهم ومن اصدقائهم وجميع النواب ، كاثوليكيون . فما معنى ذلك الكبر الذي تظهره الملكة ، فهل طالعت صفحات الغيب وعرفت ما يكون ؟..

جالت هذه الخواطر في ذهن الكردينال وبعد صمت قال : ان الملك في حالة سيئة غير ان عناية طبية تشفيه عاجلا ان شاء الله ...

فلم تجب كاترين ، لكنها ذكرت وقتئذ جملة تلفظ بها الطبيب «فرسل» منذ زمن طويل اذ قال لها : سترزقين اولادا ايتها السيدة اذا عملت بمشورتي ، « غير ان اولهم يموت شابا شهيد عنايتي به ... » فقالت في نفسها هل ازف الوقت يا ترى ؟

وقال لها الكردينال ايضا : ان امير كوندة بين ايدينا فموته ؛ وهو ألد عدو لنا ، قريب جدا . ولئن ابدى الملك شيئا من التردد افلا تساعديننا ..؟

فلبثت الملكة صامتة واستمرت تعد خرزات سبحتها ، فانصرف الكردينال مذعورا .

★ ★ ★

واستيقظ امير كوندة في اليوم التالي على جلبة الجند وضوضاء الخدم الذين كانوا يروحون ويجيئون امامه ، فصاح ، ما معنى هذا ، ولماذا ؟

فاجيب ، ذلك بأمر الملك .

قال ، نعم به من ابن عم حبيب . وما هذا الخوان الذي تضعونه في داخل حجرتي ؟

قالوا ، هذا امر الملك !

ـ وما هذا الغطاء الذي عليه ، أهذا بأمر الملك ايضا ؟
ـ نعم ، ايها المولى .
ـ نعم ، ايها المولى .
ـ ولماذا ؟
ـ للاحتفال .
ـ اي احتفال ؟
ـ هذا امر الملك والسلام .

فهمهم الامير ودمدم وولى وجهه شطر الجدار ، وبعد هنيهة صار الخوان هيكلا ، ودخل قسيس يصحبه اثنان من رجال الدوق للاحتفال

بقداس . وتقدم احدهما الى الامير وقال له تعال فاقض واجب الصلاة ، لان الملك يرى ان للصلاة تأثيرا حسنا على نفسك .

فصاح الامير بحدة : دعوني منكم ومن صلاتكم ، اني احب القتال والنضال في رائعة النهار ولكنني لا احب ان يستهزىء بي احد : ولم احضر الى هنا للجدال في الدين ولكن لاتبرأ من تهم باطلة رميت بها ظلما ، فاذهبوا وانبئوا الملك انني انتظر القضاة لمحاكمتي ولا انتظر كهنة البابا .

وارسل الملك فرنسوا الثاني الى الامير رسولين هما اخواه ملك النافار والكردينال دي بوربون ليطفئا جمر غضبه ويكلماه عن مصالحة تعقد بينه وبين آل جيز . فلم يسمعا منه غير هذه الكلمات ، قال ، لا ، وسيلة الى صلح بيني وبين ذينك الرجلين الا بالسيف الطويل القاطع .

وبذلك اصدر الملك امرا الى رئيس النواب ، والى مستشاري ذلك المجلس ، والنائب العمومي وكاتبه ، بالحضور الى حجرة الملك لتلقي الايضاحات ، والشروع في محاكمة السجين . وانقضت ايام . وقد ارتبكت اللجنة التي عهد اليها بتحقيق قضية الامير ، لان ذلك السجين استوجب رأفة جميع الاعضاء .

وفي يوم ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) اطلع الرئيس الملك على تفاصيل الاستنطاق ، وكان ذلك بحضور الدوق دي جيز واخيه ، فان كوندا ابى المجاوبة على كل سؤال يوجه اليه وقال « ان تلك المحكمة التي تألفت لمحاكمته لا سلطة لها عليه . فهو يرفع شكواه الى المترائس على مجلس النواب في بلاط المجلس في باريس ، والى سائر المجالس المجتمعة فيها ، ولا ينبغي ان يحاكم امير ، دمه من دم الملوك ، بغير هذه الطريقة .

فقال الملك ان جرأة هذا الرجل لا نظير لها ، فمالنا ولتحقيق دعواه ؟

واذ ذاك دخلت الملكة كاترين وقالت لولدها ان زوجة الامير ترجو مخاطبة جلالتك •

قال ، قد علمت انها جاءت لتسألني عن زوجها ، فلست اريد مقابلتها • الا ان تلك المرأة كانت لاحقة بكاترين فدخلت برغم الحراس حتى دنست من فرنسوا الثاني وارتمت على قدميه باكية وقالت ، دعني بحقك ايها الملك ادخل على الامير في السجن فلا اكلمه الا بعذب الكلام ورقيقه • اني اريد ان القاه قبل موته •

قال ، لقد كنت منعت دخولك عليّ ، وانت تعلمين كما اعلم ان الامير اكبر والد عدو لي • وقد حاول الاعتداء على حياتي وعلى الملكة فاقسمت على الانتقام منه • وسوف انتقم •

قالت ، عفوا ايها الملك عفوا وارحم ابن عمك فهو من لحمك ودمك ، وقد سعى به الوشاة ، وهو يحبك ويحترمك ويحترم تاج فرنسا اكثر من كل واحد من رعاياك •

قال ، انك تحسنين الكذب ايتها السيدة • ولست تجهلين مقاصد زوجك ونياته الفاسدة • على ان الاوراق التي وجدت عند امك تبرهن على مشاركتك في ذنبه •

فرفعت كاترين صوتها وقالت ، ليست هذه المعاملة لزوجة امير من ابناء البيت المالك في شيء من الشفقة !

فأشفق الكردينال ان ينعطف الملك او يرق فؤاده فقال لزوجة الامير ، انك تضايقين الملك ! فطردت تلك المرأة بخشونة ، الا ان هذا الامر انهك الملك فكانت علامات الموت ظاهرة على وجهه • وقلق الكردينال لانه خاف

ان تفوت الفرصة فلا ينفذ حكم على امير كوندة ، فعول على ان يحاول امرا مع الملكة الوالدة لعلها تنضم اليه والى اخيه ، فطلب مقابلتها • ولما انفرد بها قال لها ، الا تخشين ايتها السيدة حلول نازلة ببيتنا ؟

فاجابته : اظنك تريد ان تقول ، بيت ملك فرنسا ؟

وكأنه لم يستأمن جوابها ، فقال لئن وقع مصاب على البيت المالك فان السلطة تنتقل الى ايد غير صالحة •

فرفعت الملكة رأسها ونظرت اليه مليا ، فقال الكردينال ، نعم ، فان خليفة الملك لا يزال قاصرا ، فنيابة الملك تأول ، اذ قضى الملك ، الى ملك النافار ، اي الى اول امير من الدم الملكي • فتبسمت الملكة لهذا الخاطر لان ملك النافار لا يحفل بسلطة لاشتغاله بهوى النساء ، الا انها لم تجب •

فقال الكردينال ، لئن صارت نيابة المملكة الى ملك النافار بعد وفاة الملك فان الخطر يحدق بك وبنا على السواء •

فحملقت اليه كاترين بصرها فقال ، نعم ، فان ملك النافار يغدو العوبة بين يدي اخيه امير كوندة ، وهذا الاخير لا ينسى سجنه ولا القضية التي اقمناها عليه ، ولا ينسى اننا لم نعبأ بطلبه استئنافها ، واننا اتهمناه بالاضطراب الحادث في البلاد ••• وهنا توقف الكردينال ، فاشارت اليه الملكة اشارة ملؤها الاحتقار وقالت ، كل ذلك من عملك انت لا من عملي انا • فأمير كوندة كاره لك ولاخيك ولكنه محب للملك ولوالدة الملك •

ـــ لئن تولى الوصاية ملك النافار فانت هالكة •

ـــ كلا ، فربما كنت انت يومئذ من الهالكين • اما انا فلا • وامير كوندة لا ينسى دفاعي عنه امام الملك • كما ان زوجته الاميرة لا تنساني عضدتها في هذا اليوم •

ــ اراك لاول مرة ساذجة ايتها الملكة . فان كوندة لن يحفل بـك ولا يهمه الا طمعـه الاشعبي ... ولنتكلـم بحرية . ان السلطة بين يديـك وايدينا ، اي بين يدي والدة الملك وايدي عميه . وما من احد منا يـروم فقدها .

ــ بل ارجو منك ان تصلح كلامك ليغدو مطابقا للواقع . ان السلطة بين يديكما ، انت واخيك ، لا بين يدي انا . ان انا الا امرأة منفردة. وهل من قوة لي ؟

ــ ما هذا الكلام ايتها السيدة ؟ أفلا ترين انك الحزب الاقوى،وحسبك برهانا على ذلك انني اطوع لك من بنانك . ولكن لا يفوتك ان مرافقنـا واحدة ، ولا بد لنا ، قبل كل شيء ، من اهلاك امير كوندة واخيه ملـك النافار .

ــ لم يصدر عليهما حكم .

ــ سيصدر غدا . فيجب التوقيع على حكم اعدامهما قبـل مـوت ولدك . هذا امر لا غنى عنه ، وسوف تكونين مساعدة لنا على انجـازه . فابعدي امير الاختام ومن بقي من اعوان الامير ، واذ ذاك تصبحين ملكـة فرنسا حتى يبلغ الملك شارل سن الرشد ، واصبح انا وزيرك الاول .

فخفضت كاترين رأسها وجعلت تحرك حبات سبحتها فقال لها الكردينال بقلق ظاهر ، ما رأيك يا سيدتي ؟

فظلت صامتة وقتا طويلا ثم قالت ، اني اصلي الى الله لاجـل شفاء ولدي .

فوثب الكردينال خارجا من عندها وقد رأى منها القسوة لثاني مرة. فلم يكد يغيب عن نظرها حتى نادت ترولوس وقالت له ، تذهب الساعـة وتدعو الى هنا امين الاختام . وليأت خلسة ، ثم تسلم هذه الرسالـة الى

جاليو ، مع امر مني بتسليمها الى امير كوندة • وجاليو حاذق فطن ، فلا اشك في انه يفلح •

ودفعت الى ترولوس رسالة دسها في جيب صدرته ، وبعد هنيهة كان امين الاختام عندها ، واسمه لسبتال ، فقالت له ، عهدي بك ذا راي وتدبير، والوقت حرج فاسعفني بنصحك • ان الملك مشرف على التلف وقد انذرني بموته الطبيب فرنل • قال ، يا لله !

قالت ، اذا مات ولدي فماذا نصنع ؟

اجاب ، نهتف هتافا عاليا « ليحي الملك » وننادي بشارل التاسع ملكا•

ــ ان شارل التاسع قاصر • فالى من تأول الوصاية ؟

ــ الى ملك النافار بالاسم ، واليك بالفعل •

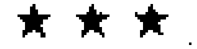
ــ فاعلم ان الدوق دي جيز واخاه يرومان اهلاك ملك النافار وامير كونده • وقد تجرأ الكردينال فطلب مساعدتي على هذا العمل •

ــ يا له من شقي شرير • ان امراء البيت المالك دعامة البلاط وركنه ، وموت احدهما يحدث فراغا عظيما في الاسرة المالكة • واعلمي ايتها الملكة ان الامة ترجو فيك رجاء حسنا وتأمل من بنيك الثلاثة الباقين املا عظيما• فتولي شؤون مملكتك ولا تكوني خادمة مستشاريك •

ــ وماذا تفعل بامير كوندة ؟

ــ نوقف دعواه •

ــ شكرا لك على حرية فكرك • واعلم ان الطبيب يتوقع وفاة الملك ، فاذا وصل اليك النبأ المشؤوم ، احضر الي سريعا لانني ساحتاج اليك •



وفي ذلك المساء اقترب شاب يلبس رداء واسعا الى باب السجن الذي سجن فيه امير كوندة • فصاح به الحارس ، مهلا يا هذا ؛ الى اين ؟فاجابه؛ اني اريد مقابلة عمي •

ــ ومن عمك ؟

ــ هو طباخ الغرفة •

ــ لم أكن ادري ان له ابن اخ •

ــ بل له واحد حسن الهيئة والشكل ، وانا ذاك الواحد •

ــ لكن الدخول ممنوع من غير اذن •

ــ ان الاذن معي وهو في جيبي • فمد اليه يدك •

ــ ألا يسعك ان تريني اياه ؟

ــ ألست تراني احمل الهدية التي جئت بها الى عمي ؟ مد يدك الى جيبي ولا تخف !

فعل الجندي ، ولكنه لم يجد في الجيب الا عشرة دنانير •

فخفض الرجل صوته وقال ، خذ هذه الدنانير فهي خير من كل اذن مكتوب • ولك مثلها عند عودتي اذا لم تتكلم •

فاجاب الحارس بوقار ، ادخل ! وفي ذلك المساء وجد امير كوندة تحت وسادته هذه الرسالة :

« كن مستعدا واطل مدة الاستنطاق ما استطعت ، لان الملك يحتضر »•
« كاترين »

الفصل الثالث والعشرون

(فراش ملك فرنسا عند احتضاره)

كان جاليو يتململ ضجرا في الزقاق الضيق الذي اتخذ له فيه مخبأ ومسكنا ، ولكنه لم ير من الحكمة ان يتعرض للانظار في بلد حاكمها المطلق الدوق دي جيز .

الا انه سمع يوم ٢٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ضجيجا عاليا ، فالتف بردائه وخرج من مسكنه فابصر الجماهير تسير الى الساحة الكبرى . فلما وصل الى الموضع المقصود ابصر عنده فرسانا وحملة بنادق وجنودا ، وسمع قرع الطبول ، ثم تلاوة خطبة لكاتب المحكمة المخصوصة التي ألفت لمحاكمة امير كوندة وهذا نصها :

« ان الملك ، ايها السادة ، يعلمكم بما يأتي :

« غدا سيعدم في هذه الساحة من مدينتنا المحبوبة اورليان الاسير الخطير ، لويس دي بوربون امير كوندة ، ثاني امراء البيت المالك، قصاصا له على ذنوبه وخيانته للملك . وكذلك يهلك في هذه البلاد كل عدو لله وللملك ، وليكلاكم الله جميعا بعنايته » .

وتفرق الحكام والفرسان عقيب ذلك مغادرين جمهور الناس في اسوأ حال من الانذهال ، وكان جاليو في جملتهم . فلما سمع ما سمع هاله الامر . فقال في نفسه ، ألم يكن في وسع كاترين انقاذه ؟ وهل تمكن الملك من اصدار هذا الحكم وهو على فراش الموت ؟ وذلك لان خبر ضعف الملك قد اذاع في البلد وانتشر وعلم الخاصة والعامة انه لا يحب والدته بل يحب عميه وزوجته دون سواهم . آه ليتني القى ذلك الدوق اللعين وأخاه وابارزهما . ثم اخذ يلعن الدرع التي انقذت الدوق من رصاصة القاتل المجهول يوم دخول الملك بموكبه الحربي مدينة باريس .

وبعد ان طاف جاليو في البلد عاد الى مسكنه فالتقى ترولوس في انتظاره ، فترامى على صدره وقال ، قضي الامر ايها الصديق !

فاجابه ، كلا وقد ارسلت اليك الملكة هذه الرسالة لتوصلها الى الامير وهي تقول لك ان تأخير الاعدام يوما واحدا قد ينجي الامير ...

قال ، وكيف السبيل الى ذلك التأخير ؟ فسلمه كيسا مملوءا بالدنانير وقال له ، ان الملكة تعتمد على ذكائك ودهائك .

قال ، حبا وكرامة ... واخذ يستعد في ذلك النهار ، وعندما انتصف الليل قصد الى ساحة الاعدام حاملا رزما عديدة . فلما وصل الى مقربة من الحراس الذين يحرسون دكة الاعدام ، سأل بسذاجة ظاهرة عن المحكوم عليه ، فهزأ به الحراس وقالوا له ، ويك يا رجل ، ألست من سكان اورليان، ألم تسمع بالحكم الصادر على امير كوندا ؟

قال ، اتعنون ذلك البروتستانتي اللعين ؟ ثم صاح ، لا بد من بقائي هنا حتى اكون اول من يشاهد مصرعه .

وفتح احدى الرزم فاخرج منها ست زجاجات من الخمر ، وتقدم الحراس

بعشرة دنانير ، فاذنوا له بالدخول تحت خيمة الاعدام ، فقال في نفسه ، الان تيسر لي عمل .

وعكف الحراس على زجاجاتهم يشربونها ليلا وينظرون الى الدنانير . فلما انتصف الليل تساقطوا سكارى الا قليلين كانوا يتمشون متوكئين على بنادقهم . واذا باحدهم يقول ، الا تسمع صريرا من ناحية دكة الاعدام ؟

فاجابه رفيقه ، كلا .

قال ، اصغ قليلا . وسمعا صوتا خفيفا من تلك الناحية ، فقال الحارس الآخر ، يا لك من غبي ، هذا غطيط الرجل المتعصب الراقد هناك .

قال ، صدقت . واستمر الرجلان يتمشيان .

وكان الصرير من ناحية جاليو ، لكنه غير صادر من صدره بل من منشار قصير في يده نشر به ثلاثة اعمدة من خشب المشنقة . واذا به يسمع وقع خطى خفيفة ، فرفع ذيل ستر الخيمة ورأى رجلا وامرأة امامه وقد وقفا قرب المشنقة . فسمع جاليو زفرات متقطعة فقال في نفسه ، انها احدى عشيقات الامير اتت مع خادم لها ، فخير لهما ولي ان يذهبا ويتركاني اتم عملي .

وجثت المرأة كانها تصلي وتلثم الارض ، ولبثت كذلك هنيهة ورفيقها ينظر الى الوراء ويرصد الناس . فهاج فضول جاليو وانصت لصلاتها فسمعها تقول ، هنا قتلوك يا ابت شنقا كأنك من اشرار الناس غير ان ساعة الانتقام قريبة . ثم نهضت وابتعدت مع رفيقها فرآهما جاليو يدخلان بيتا امام ساحة الاعدام فقال . سوف تجلو غامض هذه المسئلة فيما بعد ...

وعمد الى العمود الرابع فتمكن من نشره واصبحت المشنقة لا تحتاج الى اكثر من صدمة خفيفة فتسقط . ولما تحقق ان الحراس غير متنبهين

اليه تناول وعاء من الرزم التي جاء بها وغط فيه ريشة ، ثم اخـذ يـرش الالواح بسائل من الوعاء ويبتسم سرورا . فلما شمل القطران الخشب عمد الى ما هو اصعب واشق لانه كان ينوي اضرام النار مـن غير ان ينبـه الحراس . ومن حسن حظه ان الجو كان حارا ، فقدح جاليو زنـادا بـين قطعتين من خشب ، فلما تطاير شرر قليل القى في النار ما جاء به من يـابس النبات وجعل ذلك قرب الالواح ، ثم زحزح ستر الخيمة وسرح البصر فلم يجد احدا من الحراس امامه ، فاطلق ساقيه للريح .

ولم يبتعد اكثر من خمسين خطوة حتى لفت بصره ثلاثة رجال اقبلـوا الى ذلك البيت الذي دخلته المرأة والرجل منذ هنيهة فقال ، هل من مؤامرة جديدة يا ترى ؟

ووقف الرجال الثلاثة على بعد خطوات من ذلك البيت ، وكـان فـي الطبقة الاولى مصباح ضئيل النور ، فانطفأ نوره في الحال .

ولو تمكن احد من دخول الغرفة التـي كان النور فيها لسمع فيهـا المحادثة الآتية بين فتاة وشاب . اذ كانت الفتاة تقول للشاب هل تحققت ما انبأتني به ؟ فاجابها ، رأيت الرجل امس واول امس وفي الايام السابقة من هذا الاسبوع .

ــ وهل يأتي الى هنا ؟

ــ نعم ، يخرج من القصر مصحوبا ببعض الاشراف من بـاب سري ويتقدم مستمهلا فيفحص البيت وبصره الى النافذة . ولقد كان في وسعي محاولة قتله مرتين ولكنني لو لم اسدد المرمى جيدا لقبض عليّ اصدقاؤه، ولذهب انتقامي ضياعا . على انني قادر من هنا ان اصيبه . فاذا أخطأته لا يتعذر علينا الفرار والاختفاء الى حين سنوح فرصة اخرى . اني لا ازال الوم نفسي لانني أخطأته في باريس .

ـ وددت ان اكون حاضرة ساعة قتله ، ولا بد من ذلك ، فهل فهمت يا بلترو ؟ قال ،لقد وعدتك وعدا صادقا وكفى • قالت ، شكرا لك • قال، الا ترين الان هؤلاء الرجال الثلاثة الذين يجتازون الساحة ؟ فهم ، هم • قالت ، اطفئي المصباح •

ففعل ، وساد الظلام • واذ ذاك وقف الرجال الثلاثة وقال احدهم ، كأنني ابصرت نورا • فاجابه رفيقه ، ذلك من اشعة القمر المنعكسة على زجاج النافذة يا مولاي •

ـ كلا ، بل ابصرت نورا • فقال الرفيق هل كانت ابنة الكتبي بارعة الشكل ؟ اجاب ، انها اجمل من كل سيدة في البلاط ، ايها العزيز • ثم انني لا ادري اي قوة خفية تجتذبني الى هذا البيت •

ـ هل تصفح الفتاة عنك وتغض الطرف عن امرك الذي صدر بقتل ابيها ؟

ـ لقد انبأتك عشرين مرة انها تحسبني ملازما من الضباط العاديين • ولكن ، ماذا ارى ؟

ولقد سمعوا وقتئذ صوت زفير نار تضطرم ، فانثنى الدوق ورجاله الى ناحية المشنقة فابصروا السنة اللهب ممتدة على الارض ، فصاح الثلاثة يا للداهية !!

وكان هؤلاء الثلاثة الدوق دي جيز ورجلين من اعوانه ، فقال الدوق، لا جرم ان كاترين صاحبة هذه الفعلة الشنعاء •

ودمدم بلترو من داخل البيت وشتم وقال ، لقد نجا هذه المرة ايضا • فاجابته مادلين صبرا يا بلترو ، فان الله ساقه الينا قبلا وسوف يسوقه ايضا •

وكان الحارسان اللذان عند المشنقة ينظران الى النار مبهوتين متعجبين •

فاقبل الدوق عليهما وصاح بهما ، يا لكما من غبيين • من الذي اضرم هذه النار ؟ قالا ، من الذي اضرم النار ؟؟ قال ، نعم ، من اضرمها ؟ من اتى الى هنـــا ؟

فتردد الحارسان قبل ان يجيبا ، ثم قال احدهما بصوت خافت ، هــو الشيطان ولا شك !

قال الدوق ، ويك ، هل تعرف من انا ؟ اجب سريعا !

ـ وهل ادري يا مولاي وهل في وسعي ان اقول غير ما قلت ؟

قال الدوق ، اذن فالشيطان اضرم النار ؟••

وتعاظمت النار فسقطت اخشاب المشنقة ، وانبعثت رائحة القطران من انقاضها ، وتوافد الناس الى الموضع ، وشاع الخبر حتى بلغ القصر•وللحال اقبل موكب من الرجال يحملون المشاعل •

واقبلت الملكة كاترين فقالت بصوتها الرخيم ، ماذا جرى ايها الدوق ؟ ومن اين هذه النيران ؟

فاحتدم الدوق سخطا • واقبل الملك ايضا ، فقال الدوق لكاترين لعلك ادرى مني بمصدر هذه النيران ايتها السيدة •

وكانت رائحة القطران قد امتزجت برائحة نسيج محروق ولم يبق من المشنقة الا حطام يتصاعد الدخان منها • وكان جاليو ينظر اليه من بعيــد وهو يكاد يرقص فرحا • على انه لم يكن راضيا تمام الرضى باحتراق نصف المشنقة فجعل يقول في نفسه هل كان الصيدلي كاذبا •••؟ الا انه لم يتــم جملته هذه حتى ارتفع ضياء اخضر ، وانتشرت رائحة تزهق الانفاس وتضيق الصدور ، ثم طلع ضياء احمر بعد الاخضر ، ثم تعددت الوان اللهب فجعل الحارس يصلي ويقول ، لقد كنت على يقين من ان الشيطان هو صاحب هذه الفعلة الشنعاء !••• وقد مر بي وابصرت قدمه وكأنها المسحاة !

اما الملك فجعل ينظر الى ذلك المشهد وقد اظلم وجهه ، فدنا منه الدوق وقال ، هذا من تدبير أولئك البروتستاتيين الملاعين ، ولانه تدبير شيطاني !
قال ، لقد اصبت يا عماه ، فلتقم هذه المشنقة غدا وليعدم الدوق في اليوم التالي على مرأى من جميع الشعب .

فقالت كاترين ، ألست ترى يا بني ان لله يدا في ملاشاة هذه المشنقة ؟
فاجابها ، لو ان صاعقة من السماء هبطت عليها لقلت ان الله ارسلها ولكن هي نار الجحيم التي احرقتها . فالشيطان قد اتى ليساعد اصدقاءه واعوانه .

ولقد تلفظ الملك بهذه الكلمات بلهجة هائلة ثم قال ، من حسن الحظ ان رجالي الاشراف يحوطون بي . فلسوف يجزى المجرمون في حادثة مابوار بما كسبت ايديهم !.. نعم ، ويل للبروتستاتيين !.. وليمت كل خائن !..

ثم جرد سيفه وتقدم الى انقاض المشنقة متوعدا مهددا ولم يتجرأ احد على الوقوف لامساكه . ونظر آل جيز بعضهم الى بعض فقال الدوق ، انه يهذي هذيان المحتضر !

وضرب الملك بسيفه الهواء ، ثم وقف بغتة لان الدخان المنبعث عن الحريق كاد يخنقه . فافلتت يده سيفه ، ثم سقط على الارض وهو يقول ، ليمت كل خائن ... واغمي عليه .

فاراد الدوق دي جيز حمله على ساعديه ، الا ان كاترين كانت قد سبقته اليه واكبت عليه وهي تقول ، ولدي ولدي !.
فقال لها الدوق ، دعينا نحمل الملك الى غرفة زوجته .
فاجابته ، بحقك دعني يا دوق ، ودع ولدي ، فهو ابني لا ابنك ، على ما اعرف !

وحملت ولدها امام اشراف البلاط فجعلته على محفة ، وامرت بالرجوع الى القصر . ولما سمع الدوق دي جيز واخوه صوت الملكة تأمر الخدم بحمل الملك الى حجرتها خامرهم الرعب لان غرفة الملكة الوالدة بعيدة عن غرفة ماري ستوارت ، فهي قد ابعدته عن نفوذ زوجته ومنعتهم من التسلط على ارادته . فاجتمعوا لساعتهم في غرفة ابنة اخيهم للمفاوضة والاعتماد على رأي يعملون به .

وكانت ماري ستوارت زوجة فرنسوا الثاني في اسوأ حال من القلق منتظرة اياب زوجها ، فلما رأت عميها قالت لهما ، اين فرنسوا ؟ فاجابها الكردينال ، انه مريض .

قالت ، هل من خطر عليه ؟

— نعم ، فلا ينبغي اضاعة الوقت .

— اني مبادرة اليه .

قالا : بل البثي ههنا .

قالت كيف ذلك ، فقد يموت دون ان اراه .

قال الكردينال ، سترينه ، انما البثي ههنا فاني بحاجة اليك .

فاجابته ، ماذا تريد يا عماه ؟

قال ، ألديك مفتاح خزانة زوجك ؟

اجابت ، نعم ، ولكنني لا استطيع ان ...

قال ، اين هو ؟

اجابت ، ها هو ؟

قال ، أفي الخزانة حكم الاعدام ؟

اجابت ، لا ادري يا عماه .

ففتح الكردينال الخزانة الحديدية ، وكان فرنسوا الثاني يخفي فيهما

اوراقه وامواله ، فتناول ورقة كبيرة وطالع ما فيها . فقال له الدوق ، كيف رأيت ؟

ـ ان الحكم غير كامل ولكنه قانوني ، موقع عليه من جميع اعضاء المحكمة المخصوصة او من اكثرهم .

قال الدوق ، واي توقيع ينقصه ؟

اجاب ، توقيع امين الاختام ، وتوقيع دو موريته . على ان الملك دعاهما اليوم . ألم تريهما يا ماري ؟

ـ نعم ، ولكنهما رفضا التوقيع على الحكم .

ـ يا لهما من شقيين .

قالت ، لقد وعدا بالتوقيع غدا يا عماه !

قال ، نعم وغدا ، ومتى علما بحالة الملك رفضا ايضا ... اواه لقد خسر هذا الشاب قواه .

قال الدوق ، اننا لفي غنى عن توقيعهما .

وقال الكردينال ، ولكن ينقص الحكم توقيع اخر هو توقيع الملك . فهل تعرفين خط زوجك يا ماري ؟.. وتقدرين على تقليد خطه ؟

اجابت ، نعم يا عماه .

قال ، اذن فاجلسي هناك . واشار الى مكتب وقال ، خذي هذا القلم.

قالت ، فماذا افعل ؟ قال ، وقعي ...

قالت ، أوقع ماذا ؟..

اجاب ، وقعي على الحكم باسم زوجك !

قالت ، ولكنه حكم بالاعدام !

ـ ألم تكوني عالمة به ؟

ـ لماذا لا تدع فرنسوا يوقع عليه ؟
ـ لانه لم تبق له قوة ... فوقعي انت !
فوقفت ماري ستوارت وقالت ، لا افعل ذلك ابدا !
قال الكردينال . ألست كاثوليكية صادقة الايمان ؟
اجابت ، بلى ، ولكنني امرأة . ولا اوقع على حكم بالاعدام .
ـ وقعي والا اهلكتك !
ـ اهلكني يا عماه فلن اوقع على هذا الحكم ابدا .
ـ يا لك من ناكرة للجميل !
فدنت منه وقالت ، هل نسيت انني الملكة !

ومدت يدها الى الباب بعظمة وقالت ، اخرجا من هنا ! فذهبا الى حجرة الملكة الوالدة فوجدا ترولوس ببابها يمنعهما من الدخول . فقال الدوق ، انا بحاجة الى مقابلة الملك !

اجاب ، لدي امر صريح ، فلا تدخلا !

كان ذلك الى يوم ٤ ديسمبر (كانون الاول) وكانت ماري ستوارت تسهر كل ليلة قرب سرير زوجها ، وقد بقيت فيه بقية حياتها . اما طبيبه فقد فحصه لآخر مرة ورأى انه يوشك ان يموت . هذا وامير كوندا ممتلىء صحة وشبابا منطرح على فراشه يعجب من تأجيل اعدامه .

فلما كان اليوم الرابع من شهر ديسمبر قالت الملكة الوالدة لكنتها ، اذهبي واستريحي .

فاجابتها ، لا قدرة لي على مفارقة زوجي .
قالت . بل اذهبي ، فمتى شعرت بالتعب ادعوك واستريح .
وكانت ماري ستوارت منهوكة القوى ، فذهبت وهي قلقة الخاطر ، فلم تبصر عند باب كاترين عميها ، الدوق واخاه الكردينال . وقد حاولا

لعاشر مرة ان يدخلا على الملك ليحملاه على توقيع الحكم باعدام امير كوندا الا ان الملكة الوالدة لم تأذن لهما بالدخول الا وقت اغماء الملك .

وقال لها الدوق ، بحقك دعينا ايتها السيدة ندخل لنرى الملك لآخر مرة !

فقالت ، ان ولدي لا يستطيع ان يرى احدا . ورجعت الى حجرتها وقعدت في مكانها قرب سريرها . وكان الطبيب يفحص العليل ويتوقع وفاته . وبعد ساعتين فتح الملك عينيه وانتصب قاعدا على سريره ، وقال اين ماري ؟ اين الملكة ؟

فاجابته والدته ، انها ذهبت لتستريح يا بني .

ـــ اود ان اراها واودعها يا اماه ، فاطلبي حضورها .

ـــ نعم يا ولدي ولا تتعب نفسك من غير فائدة .

قال الملك للطبيب ، اذهب يا عزيزي فرنل وجئني بماري وعمي الدوق دي جيز واخيه ، فانني اود ان اراهم قبل موتي . فاذهب انت لان والدتي لا تفعل ما اطلبه اليها . فنهض فرنل واتجه الى الباب فاستوقفته كاترين وقالت ، ما معنى هذا ؟

فاجابها ، لم يبق فيه يا سيدتي الا ذماء (بقية الروح) وبعد بضع دقائق يستوفي مدته وهذا امر قد انذرتك به منذ عشرين عاما . وخرج . فاخذت كاترين تروح وتجيء في الحجرة مضطربة ، وقد نسيت ابنها لان آل جيز مقبلون وقد يتمكنون في تلك الساعة الاخيرة من انتزاع السلطان من يدها والوصاية على ولدها ، وحمل الملك على توقيع حكم باعدام امير كوندا . ورأت نفسها وحيدة دون عضد ولا نصير ولا قوة على اسرة جيز .

وكان ترولوس بالباب واقفا شاهرا سيفه ، فذهبت اليه وقالت : انهم آتون ، فهل ترضى بان تموت لاجلي عند الحاجة .

قال ، تكلمي يا مولاتي .

قالت ، لا تدع احدا يدخل الغرفة حتى ولا الملكة !.. ولا تفتح الباب لاحد الا بأمري .

اجاب ، اني اقسم لك على الطاعة . فاوصدت كاترين الباب ، وترامت جاثية وكان ابنها ينظر اليها مبهوتا وهي عاكفة على الصلاة او على تحريك شفتيها وتقليب حبات سبحتها بين اصابعها .

فقال الملك ، لقد اتوا يا اماه !.. فافتحي الباب !.. هذه ماري آتية ! وسمعت وقع خطى تقترب .

فقال لها افتحي الباب ... اريد منك ان تفتحي الباب !

فلم تأت كاترين بحركة ، وطرق سمعها صوت جدال في الخارج،وقائل يقول لا يدخل احد الا بامر من الملكة الوالدة .

فغمغمت كاترين تقول ، الا شكرا لك يا حبيبي ترولوس .

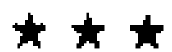
فنهض فرنسوا الثاني لآخر مرة ونظر الى امه نظرة حانق غضوب ، ثم زفر زفرة حرى وارتمى على فراشه وقد قضى نحبه ولقي ربه . فـاقبلت كاترين عليه تتأمله وتقول ، لقد مات حقا .

وذهبت الى الباب وفتحته . ودخـل الـدوق دي جيز والكردينـال وماري ستوارت وكأنهم مجانين . وكان الدوق يحمل الحكم وعليه التواقيع العديدة وهو حكم اعدام امير كوندا فاختطفته كاترين من يده وطرحته في النار وصرخت تقول لقد تأخرت يا ابن العم ، فان ملك فرنسا قد مات .

قال يا للداهية ، مات ولم يوقع على الحكم ! ووثبت ماري ستوارت الى جثة زوجها وهي تقول ، كلا لم يمت فان بدنه لا يزال حارا . عد بربك اليّ يا حبيبي فرنسوا ، واسمع صوتي انا ماري . انا زوجتك التي تحبها..

ولما تحقق آل جيز موت الملك لم يحفلوا بجثته ، فعادوا الى كساترين وهم ينوون نيات فاسدة . وقد تظاهرت بالرقة واللطف وحزرت ما يجول في ذهن كل من الاميرين . لكنها لم ترهبهما فان ترولوس كان قريبا منها . وللحال اقبل جمهور الاشراف وبينهم امين الاختام ووراءه امسراء البيت المالك اولهم شارل البكر . فدنا امين الاختام من فراش الميت وصاح بصوت جهوري ، مات الملك فرنسوا الثاني ! فليحي شارل التاسع !!

وكان شارل التاسع يومئذ غلاما ، فوقف ونظر الى مربيتسه . وردد الحضور الهتاف فكانوا ينادون ، ليحيى الملك شارل التاسع !!



وكان امير كوندة وقتئذ في سجنه والحراس يحدقون به وهو نائم ملء جفونه .

الفصل الرابع والعشرون

(جثة فرنسوا الثاني)

وفيما كانت ماري ستوارت ، ارملة الملك فرنسوا الثاني ، تبكي احر بكاء قرب جثة زوجها ، قصد آل جيز حجرة الملك المتوفي وفتحا خزانته بالمفتاح الذي تسلماه من ماري ستوارت واخذا منها ثلاثين الف دينار • ثم رجعا الى منزلهما ولحق بهما بعض القواد والاشراف من انصارهما وكل منهم يقول ، ماذا نصنع ؟ واي مصير يكون مصيرنا ؟ فاجابهم الدوق ، صبرا ولا تقلقوا فان مدة الصبر لا تطول ، وقد آلت السلطة الى الملكة الوالدة ولسوف نعرف نياتها في وقت قريب •

وقد انتشر خبر وفاة الملك فرنسوا الثاني في المدينة فأطمأنت قلوب البروتستانتيين وقل تعدي الكاثوليكيين عليهم •

ولم يكن جاليو مكترثا لمشاجرات ابناء الطائفتين وانما انصرف ذهنه الى التفكر في امير كوندا ، وكان موت الملك سببا في تأجيل انفاذ الحكم عليه ، فجعل جاليو يقول في نفسه ، هل يطلق سراحه ؟ وتجرأ جاليو على دخول القصر بعد ان ارتدى بأفخر ملابسه وقال ، لا حاجة بي الى التنكر بعد اليوم !

وتقلد غدارتين وسيفه الطويل الذي جرح به جاتليس وبردالیان ودخل القصر ، فالفى الاشراف في اضطراب عام . فقال لجاتليس ، وهو من رجال الدوق ، كما يذكر القراء : هل لك في ان تخبرني عن امر ؟ قال ، ما هو ؟ قال ، الى من تؤول الوصاية على الملك ؟ فنظر اليه جاتليس مدهوشا ، ولم يكن يعرفه ، وقال ، لست ادري !

ــ وماذا عسى يفعل الدوق دي جيز ؟

ــ لست ادري .

ــ ومتى يحتفل بدفن الملك المتوفي .

فاجاب جاتليس ، وهل لهذا الامر من شأن !

ثم لقي جاليو رجلا آخر من رجال آل جيز ، هو حاكم اورليان . وهو من نظم فيه تلك الابيات التي ترجمناها في فصل سابق فقال له ، عفسوا ايها الحاكم ، اني قادم من اقصى الولايات واود ان اعرف متى يدفن الملك فرنسوا .

فرشقه الحاكم بنظرة حائرة وقال ، سيدفن عندما يراد دفنه . وليس هذا الامر بالشاغل الذي يشغلني الآن .

ــ اذن فأي شاغل لديك ؟

ــ من انت يا هذا ؟

ــ من رجال الدوق دي جيز .

ــ اذن فكن مستعدا .

ــ لاي شيء ؟

ــ للدفاع عن الدوق .

ــ وهل من يتجرأ عليه الآن ؟

ــ بلا شك .

ـــ ومن يقدم •
ـــ الملكة الوالدة او ملك النافار ••• لست ادري •
ـــ اشكر لك هذا البيان ، وها انا ذاهب كي الازم الدوق •

ودخل جاليو رواق القصر فصادف اثنين يتكلمان • قال احدهما ، ان الخطب جلل ، وقال الاخر وانه لرزء جسيم •

فقال جاليو في نفسه ، هذان رجلان يفكران في الملك حقا !

الا انه رجع عن رأيه عندما سمع تتمة المحادثة ، اذ قال احدهما ، يظهر ان الحكم لم يوقع عليه من الملك قبل وفاته • فاجابه الاخر ، ياالله ما افظع هذا الاهمال • قال احدهما ، اذن فلا يمكن انفاذ الاعدام •

ـــ لو تم اعدام امير كوندة لكان المشهد نادرة حسنة •
ـــ ولكنا حصلنا على نفع جزيل •
ـــ نعم ، ولكننا لسنا من اهل التوفيق •

فقال الاخر ، لقد ساءت معرفتنا •

فتأمل جاليو المتكلم فاذا هو الجلاد ، فقال له ، هل لك يا سيدي في حاجة لي ؟ قال ، ماذا تروم ؟ اجاب ، اين جثة الملك ؟ اجاب ، لا ادري • قال ، متى يدفن ؟ اجاب ، هذا امر لا يعنيني انا !

وهكذا كان جاليو يتخطى الجماعات حتى لقي المحامي افنيل ، زوج مارسلين ، وقد عرفه المحامي لانه صرف باسنانه لما رآه ، فقال له جاليو ، لقد سرني لقاؤك يا سيدي • فاجابه ، واني لكذلك •

ـــ اني حديث العهد بهذا البلاط واود ان اعرف امرا •
ـــ ما هو ؟
ـــ متى يدفن الملك ؟

هذا سؤال لا شأن لي به . واي غرض للناس في جثة لا روح فيها .

ـ اذن ما غرض الناس من المجيء الى هنا ؟

ـ البث ههنا وسوف تدري . فان الملكة الوالدة دعت جميع خدم ابنها القدماء .

ـ شكرا لك . وكيف حال السيدة مارسلين ؟

ـ انها سيدة محترمة بريئة من كل عيب . فانحنى جاليو امامه واستمر في طريقه وهو يقول في نفسه ، لا بد لي من ان ارى الذين حول جثة الملك الان قبل ان القى امير كوندا .

وكانوا قد نقلوا فرنسوا الثاني الى حجرته ووضعوه على سريره.وكان عند طرف السرير اربع شمعات وامرأة تبكسي ، والتشويش سائد على الحجرة ، وبعض الخزائن مفتوحة فارغة والاوراق مبعثرة ، والملابس مطروحة على الارض . وليس هناك حارس ولا خفير ، وليس في الحجرة الا زوجة الملك ، ماري ستوارت ملكة فرنسا وايكوسيا ، تبكي وحدها على جثة زوجها .

ومعلوم ان جاليو لم يكن يحب فرنسوا الثاني لكنه لم يتمالك ان وقف خاشعا امام الباب . وفيما هو كذلك دخل رجلان يتبعهما شيخ اعمى، هو الاسقف دي سنليك ، اما الرجلان فكانا من الحكام ، فجثوا قرب الجثة ، ونظرت اليهم ماري ستوارت نظرة شكر وامتنان .

فنزل جاليو الى الرواق الذي اجتمع فيه رجال البلاط وهناك علم ان الملكة الوالدة عزمت على استدعاء امير كوندا لتطلق سراحه . واذا بالملكة الوالدة قد اقبلت يصحبها ملك النافار والمسيو مونمورانسي وامين الاختام، وطلبت ان يقف في حضرتها جميع اصدقاء الملك القدماء ، ثم وقع بصرها

على جاليو وكان واقفا وقفة كبرياء قرب احدى النوافذ فقالت لترولوس ، اليس هذا الشاب صديقك ؟ فقل له ان يأتي الى هنا .

فدنا جاليو من الملكة وجثا امامها فقالت له ، اذهب يا مسيو دي ترساك ، وخذ فرقة من حملة البنادق ، وكن نائبا عنا في مخاطبة سيدك الامير ، وقل له اننا اعدنا اليه حريته الشخصية .

وظن جاليو انه يرى حلما ، الا انه ظل رابط الجأش ، فنهض واتجه الى مجلس الامير . وفيما كان يقوم بتلك المهمة اقبل آل جيز واصدقاؤهم وكانوا جمهورا غفيرا فمثلوا بحضرة كاترين . فلما تحقق الدوق ان جميع رجاله حضروا الاجتماع التفت الى الملكة وقال لها ، لقد طلبت حضورنا ايتها السيدة لاننا من اصدقاء الملك المتوفي . وها قد اتينا نحن واصدقاؤنا وننتظر صدور الاوامر !

فأجابته كاترين بعظمة تقول ، ان اجتماع اعضاء اسرتنا لم يتم بعد ... قال ، وكيف ذلك ؟

قالت ، لقد بعثت رسولا الى الامير فلا يلبث حتى يأتي .

واذ ذاك رجع جاليو فاصفر وجه كاترين لما رأته منفردا ولم تتمالك ان صاحت تقول ، عجبا لك يا مسيو دي ترساك ، كيف عدت وحدك؟ فاجابها، وأسفاه !!

قالت ، ألم تقل للامير ؟...

اجاب ، بل قلت له انك تعيدين اليه حريته الشخصية . فعهد الي بنقل كلماته اليك ، قال « ان امتنانه عظيم جدا ، ولكنه يستحيل عليه ان يخرج من سجنه مغادرا فيه شرفه ، لان حريته الشخصية تكون في هذه الحالة مسبة له وعارا ، وانما ينبغي ان ينالها باشتهار براءته ومعاقبة الذين اتهموه كذبا » .

وهنا تبسم جاليو ، وكان استياء الكل عظيما • ولقد ظنت كاترين ان قبضها على السلطان يخولها السيادة ، ولم يخطر في بالها ان سجينا واحدا قد يأمرها وهو في غيابة السجن • اما آل جيز فظنوا ان الامير يغبط نفسه اذا خرج من محبسه سالما ، وتكفيه سلامته بعد ان كاد ينفذ فيه حكم الاعدام • اما سائر رجال الامير والاشراف فكانوا يأملون ان يقع صلح عام ، وهم قد اشاروا على كاترين بعقد ذلك الصلح •

وبقي جاليو دون سواه منشرح الصدر بحمله الى البلاط تلك الكلمات التي تدل على عظمة وخيلاء • ورأته مرسلين فاعجبت بمحاسنه في ذلك اليوم • ولم توافق زوجها افنيل حين قال عن جاليو « ما هذه الوقاحة ؟ فان هذا الوصيف يصلح لذلك المولى الشيطاني » •

ولما زال انذهال القوم وقف المسيو مونمورانسي وقال لجاليو ، ان الامير على خطأ فامض وقل له ان الافراج عنه دليل كاف على براءة ساحته التي سيتضح ظهورها بخروجه من سجنه • فقالت كاترين ، على ان الامير ليس الان بسجين ، والجند الذين يحدقون بمحبسه الاول هم الان حراس له يأمرهم وينهاهم كما يشاء •

فاجابها جاليو ، مولاتي ، ان عزيمة الامير ثابتة ، وهو يدري انه ليس بسجين ، ويدري كذلك انه لا يوجد اليوم في البلاط من يتجرأ عليه ، وانه قادر على المجيء اليه لينزل منه في منزلته التي لم يغادرها الا بدسائس الماكرين • لكنه يعتبر نفسه سجينا الى يوم يعلن مجلس النواب براءة ساحته • فقد اتهم علانية ، وحكم عليه علانية ، ونصبت المشنقة لاعدامه (وهنا تبسم جاليو) ولذلك لا يرى بدا من اعلان براءة ساحته للجمهور •

وانحنى امام الملكة ثم تراجع ، واتفق انه وصل الى قرب المحامي افنيل وزوجته مرسلين اثناء رجوعه • ولم يعر المحامي التفاتة اليه لانه كان منصرف

الذهن الى الشؤون الهامة التي تجري امامه • فلم يحفل بوصيف الامير كوندا • فاخفت كاترين استياءها من اباه الامير ، واستمرت على انجاز الخطة التي رسمتها في ذهنها من زمن طويل فقالت ، بالنظر الى قصور ولدنا المحبوب شارل وعجزه عن التصرف الشرعي ، نرى من موجبات الشرف ان لا نلقي مقاليد السلطة الى احد سوانا • ولكننا نروم الاستناد الى مساعدة اقربائنا وخصوصا الخدم الامناء للاسرة المالكة • فانحنى الاشراف امامها •

وقالت ايضا : ولقد رأينا ان نحدث شيئا من التبديل في المناصب برغم حسن اختيار فقيدنا العزيز فرنسوا • فنحن نرجو من اصحاب المناصب ان يقدموا الينا مناصبهم لنرى فيها رأينا ونقرها في مواضعها • فقد حاول اعداء اسرتنا الملكية ان يحدثوا شقاقا بيننا ، بتحريض ابن عمنا ملك النافار على طلب الوصاية ، فابى ملك النافار بحركة تدل على انه لا يريد ذلك •

ثم قالت ، الا ان ابن عمنا نسيب كريم ومن الرعايا الذين يذهبون الى مساعدتنا بكل قواهم • على اننا ندعو الان كل من يروم معرفة اوامر الحكومة الى طلب هذه الاوامر منا • وبعد ذلك نهضت كاترين وغادرت القاعة ودخلت مخدعها مصحوبة بملك النافار وقالت له ، لقد اساء اخوك كثيرا في تمثيل هذه الرواية الشائنة •

قال ، اني آسف يا سيدتي •

قالت ، لسنا نجهل ذلك • ولكن كيف يأبى المجيء للانضمام الينا !••

قال ، سوف نجيء به اليك ايتها السيدة ، فلا تنسي •••

قالت ، انسي ماذا ؟ اجاب ، وعدك لي •••

قالت ، بل سوف تحصل على النيابة العامة للمملكة ••• ولا اخلف وعدي • والمهم لدينا الا ان لا تصغي الى آراء آل جيز • وانقضت ايام على مفاوضات ودسائس وكانت الملكة الوالدة تدعو اليها الدوق دي جيز في

كل يوم ، بل في كل ساعة ، وفي كل مرة تفلح بانتزاع منصب منه او لقب او وظيفة . ولقد هم ذلك الجندي الجريء بان يتولى قيادة رجاله ويقاوم الملكة الوالدة الا انه احس بان قواه تنفد سريعا ، فلم يجد بدا من الانقياد الى كاترين . وكان ملك النافار فرحا بالوعود التي اجزلتها له تلك المرأة الايطالية وما برحت ترددها له كلما سنحت الفرصة دون ان تنجز واحدا منها . هذا وامير كوندا يلقى الاكرام من اولئك الجنود الذين حوله، لكنه ما زال يظهر انه سجين .

وعالجت الملكة الوالدة صلحا بين ملك النافار والدوق دي جيز ، فاستمالت عليه بعشيقة للدوق حتى تعاهدا على الولاء امامها واقسم كل منهما على حفظ عهد ذلك الولاء دائما ابدا .

وكان اول عمل عملته انها افرجت عن صديقها الفيكونت دي شارتر. وكان هذا الشاب مشتهرا بحسن صورته الا ان سجنه في الباستيل اودى بصحته فلم يكد يقوى على مبارحة سجنه والسفر الى قصره فمات بعد زمن قصير . .

ثم شعرت كاترين باتساع نطاق سلطتها فلم تتردد في ارسال الكاردينال شارل دي لورين شقيق الدوق دي جيز الى دير .

واجابها الكردينال يومئذ قائلا ، هل تجديني مضايقا لك في غرامك الجديد ؟ اذن فليحذر ذلك الخليل الذي جئت به من الازقة .

فقالت ، حاذر ايها الكردينال ان اطيل مدة نفيك وابعادك .

وهكذا غادرته يرجو ويأمل قربها وكأنها وعدته بقرب ايابه الى البلاط فسافر ومعه من يلوذ به . وفي اليوم التالي اقبل جاليو على امير كوندا وهو مكتئب مغموم فقال له الامير ، ماذا دهاك يا عزيزي جاليو ؟ فان لك هيئة المشنوق ؟

ـ واأسفاه ، ان فؤادي قد ذهب •

قال الامير ، كيف مارسلين ؟

ـ انها سافرت مع زوجها المحامي في جملة من سافروا مع الكردينال •

ـ وهل سافر الكردينال ؟

ـ نعم ، فقد ارتحل عن اورليان ليلا بامر الملكة كاترين •

فاطرق الامير يفكر ثم قال لاحد رجاله ، ما رأيك في هذا السفر ؟

ـ ارى ان الفساد يسرع الينا ونحن قعود ، فقد آن لك ان تهتم بقضيتك وترفعها بنفسك الى مجلس النواب •

ـ وهذا رأيي ايضا فلنتأهب للسفر • وما دام جاليو قد قطع من كل علاقة غرامية في اورليان فهو يصحبنا ايضا •

اجاب جاليو ، بلا شك يا مولاي • وسافروا في اليوم التالي • وفيما هم مارون بالكنيسة الكبرى ابصروا بعض القسيسين وخمسة او ستة من المصلين ، فقال جاليو متشائما ، ما كنت اود ان ارى مشهد جنازة يوم رحيلنا •

فاجابه الامير ، انها جنازة ميت من عامة الناس ، ولكن مالي ارى اسقف « سنليس » •••؟

فقال جاليو ، هو الرجل الوحيد الذي رأيته قرب سرير الملك فرنسوا، واختلط بعض الجند بالقسيسين ، وكان اربعة منهم يحملون نعش الميت، ومروا بأمير كوندا وحاشيته • وسمع الامير قسيسا يقول ، صلوا لاجل الملك التقي فرنسوا دي فالوى الملك الثاني المدعو بهذا الاسم !

فكشف كوندا واصدقاؤه رؤوسهم وجثوا في ذلك الموقف ، وقد اثر فيهم ما رأوا من الاهمال في ذلك المشهد • ولم يسر في جنازة فرنسوا الثاني احد من حاشيته ، ولا شيّعه الى المدفن احد من انسبائه ، بل حمل

جثته القسيسون وبضعة من الجند ، وسار في مشهده اسقف اعمى واثنان من معاونيه •

فقال جاليو ، الى اين تسيرون بالملك ؟

فاجابه قسيس : الى مقبرة سن دنيس ، وفيها مدافن الملوك ، الا ان قلبه بقي ههنا في ضريح من رخام في وسط الكنيسة •

فدخل الكنيسة امير كوندا وجاليو وسجدوا قرب تلك البقية الباقية من عدوهما القديم ولم يكن هناك لا حارس ولا قسيس •

الفصل الخامس والعشرون

(سياسة الملكة الوالدة)

كان قصر « فونتنبلو » في اوائل شهر اغسطس (آب) سنة ١٥٦١ حافلا بالاشراف والسيدات ، وقد اختلط فيه الكاثوليكيون والبروتستانتيون . والملكة كاترين ما برحت تحب المجتمعات السارة . وقد لبس الرجال افخر ملابسهم ، وتزينت النساء بأبهى الزينات . وكان ذلك الزمن زمن المجادلات الدينية والادبية والوعاظ منتشرون في كل مكان وابناء المذهب الكاثوليكي يتهمون كاترين باخلاصها للمذهب الجديد (البروتستنتي) .

ولم يكن في ذلك القصر من ذاكر للملك فرنسوا الثاني الا زوجته ماري ستوارت ، وكان الكردينال قد اتى بها الى فونتنبلو غير مشفق على نفسه من سخط الملكة الوالدة .

ولعل ماري ستوارت لم تحب من زوجها الا المجد والسلطة ، فلما ساروا به الى الضريح منعوها من تشييع جثته ، فاحست منذ خروج النعش بذهاب امانيها وسقوط دولتها . وكانت كاترين دي مديسيس تكرهها ولا ترى فيها الا انها المرأة التي سلبت منها ولدها وانتزعت كذلك نفوذها عليه ، ولقد رأت قبلا من كبريائها ما لا يسعها الصفح عنه . وذكرت ان ماري ستوارت هذه عنفتها ذات يوم بأنها ليست بذات نسب كريم ، فعقدت النية على ابعادها الى انكلترة . أما آل دي جيز فذكروا لتلك الارملة المسكينة معارضتها اياهم يوم طلبوا منها التوقيع على حكم الاعدام باسم زوجها وامتنعت ذلك الامتناع الذي يدل على شهامتها ، فكان الدوق يقول لها احيانا كثيرة ان الملكة الوالدة هي اليوم صاحبة الحول والطول

ولا نحبك فماذا يحدث لك اذا أصررت على البقاء في فرنسا . ان انت الا ارملة صبية لا نفوذ لها ولا شأن ... على ان لك عرشا في ايكوسيا [1] في وسعك ان تتبوئيه !..

فلم تجب ماري . وهي تعرف جبال مملكة ايكوسيا (سكتلندا) ولا ترى وجها للشبه بينها وبين سهول فرنسا الجميلة وجبالها البهيجة . وكان الاسكتلنديين شعبا خشنا يكاد يكون همجيا ، ولا يمكن ان يقاس بالشعب الفرنساوي ، فكانت تقول : ويلاه ! من يبدل دينارا بدرهم ؟ فلا اسافر الآن ...

ولما نقل جوابها الى الملكة الوالدة قطبت وجهها وقالت : كفاني مسن عندي من الفتيات الجميلات في حاشيتي فلا حاجة بي الى ارملة ابني ، ان ثيابها السوداء كالوصمة في بلاطي .

وبعد اللتيا والتي ضربت موعدا لسفرها هو يوم ١٦ اغسطس (آب) وفي ١٥ منه أمرت كاترين باقامة حفلة باهرة اكراما لماري . وكانت ماري في ذلك المساء مكتئبة مغمومة لا تكاد تجيب على كلمات التودد التي يخاطبها بها ظرفاء البلاط . ثم ما لبثت ان دخلت الرواق حينما كانت كاترين وحولها المعجبون بها . وكان الدوق دي جيز الى جانب الملكة الوالدة ينظر بقلق الى حركة الاعجاب التي تدور حول الملكة الصبية .

واذا بغلام لا يتجاوز العشرة من سنيه قد تخطى الصفوف واقبل على ماري فأمسك بيديها الاثنتين ونظر اليها نظرة مبهمة . وكان ذلك الغلام « شارل دي فالوي » ملك فرنسا باسم شارل التاسع . وبعد ان تأمل كنته

---

(١) ايكوسيا (اسكتلندا) كانت مملكة عدد سكانها اربعة ملايين وهي الان جزء من بريطانيا العظمى . وكانت ماري ستوارت ابنة جاك الخامس ملك ايكوسيا ولما تزوجت فرنسوا الثاني صارت ملكة فرنسا ايضا . وسيرى القراء انها عادت الى مملكتها ايكوسيا وفيها اضطرت الى مقاومة حزب الاصلاح ، واحباط المساعي السرية التي اتتها اليصابات ملكة انكلترة ، ولماري ستوارت بعد ذلك خبر طويل ليس هنا موضعه .

وقتا طويلا قال لها ، لقد اكدوا لي انك عازمة على الرحيل عن فرنسا ، وهذا الخبر غير صحيح ؟ أليس كذلك ؟ انني لا اريد سفرك .

فارتعدت ماري املا وقالت ، واأسفاه لا بد من سفري أيها الملك . ولو عملت برغبة فؤادي لبقيت ههنا ، ولكن ظروفي واسرتي يوجبان عليّ الرحيل ... وهنا ترددت وكادت تبكي ، فنظر الملك الفتى اليها متعجبا وقال ، من ذا يكرهك على السفر ، ألست الملكة ؟

فتبادرت الدموع الى وجنتيها واجابت ، كلا ، كيف اكون الملكة وانت الملك ؟

قال ، أريد ان تلبثي ههنا فلا تسافري .

فقالت كاترين للمربية ، خذي هذا الصبي ، لماذا تركته يجيء الى هنا ؟

فاجابها الغلام ، انا اردت المجيء الى هنا لاقبّل الملكة ، فان حسنها عجيب !

فعطفت ماري ستوارت على الغلام ، فقبّلها بلهفة وقال لها ، عديني بأن لا تسافري حتى اراك غدا !

قالت ، نعم غدا ...

ولم تتمكن من التلفظ بكلمة ايضا لان انعطاف شارل عليها قد أثر فيها تأثيرا عميقا ، فرفعت كاترين ابنها ودفعته الى مربيته ثم عادت الى قرب الدوق دي جيز وقالت له بلهجة خشنة ، لقد آن لماري ان تسافر !

فأجابها ، نعم ايتها السيدة .

ثم دعت كاترين ترولوس وقالت له ، انت تعرف حاشية ملكة النافار ، فاستعلم عما اذا كان قد طرأ طارىء جديد بينها وبين زوجها . وذلك لان كاترين سمعت اشاعة عن ملك النافار مؤداها انه ارتد عن مذهب كلفين الى المذهب الكاثوليكي . فما لبث ان رجع اليها ترولوس بالخبر اليقين ، قال لها ، ان احد القسس البروتستانتيين زار ملك النافار اليوم كعادته، فامتنع عن مقابلته ، ودخل على زوجته من غير انباء سابق بدخوله وعنفها على تشبثها بمذهب البروتستانت ، واشار عليها بترك مذهبها . ولما جاوبته

بخشونة احتدم وصاح في وجهها قائلا ما انت اهلا لان تكوني زوجة امير من آل بوربون ، ولقد اتيت حماقة فظيعة يوم خطر لي الاقتران بك ! ثم تركها وهو يقول ، من حسن الحظ ان اقتراننا ذاك لا يدوم ابدا !...

وكانت كاترين قد لاحظت ملك النافار فرأته يقترب الى ماري ستوارت ويحدثها همسا ، ففهمت مغزى ذلك الهمس . وكذلك تنبه الدوق دي جيز اليه الا انه لم يفهم المراد من تلك المجاملة فقالت له كاترين ، لا جرم ان ماري تروم الاستيلاء على القلوب التي تميل الينا . قال ما معنى هذا الكلام ؟ قالت ، انها تتودد الى ملك النافار كما كانت تتودد الى زوجها . وعلمت بالامس ان دامفيل قضى سحابة نهاره عندها ...

قال الدوق ، أتعنين دامفيل ابن مونمورانسي ؟

ــ نعم ، ولقد حدثتني بهذه الزيارة الآنسة دي موفال فقد سمعت ماري تقول لئن ماتت زوجة دامفيل فانني اتخذه بعلا .

ــ هذه وشاية كاذبة .

اجابت كاترين ، لعلها اليوم وشاية ، لكنها غدا تغدو فضيحة ، فلا ينبغي ان نفسح لها مجالا . ولما انتصف الليل اقبل الدوق دي جيز على ماري ستوارت وقال ، هيا بنا نسافر .

فاجابته ، لا اسافر الليلة ولكن بعد بضعة ايام !

قال ، لقد اعددنا الاهبة للسفر ، وهؤلاء سفراء مملكتك ينتظرونك في (ليث) فمتى خرجت من المرقص البسي معطف السفر فنرتحل عن فونتنبلو قبل طلوع النهار . وانتشر خبر سفر ماري . ولما صعدت الى مركبة السفر تألف حولها جمهور زاهر من اهل البلاط ليشيعها ، فظلت تتوهم انها ملكة حتى الدقيقة الاخيرة ، وكان الدوق دي جيز الى جانبها، وكثيرون من الاشراف قد احدقوا بها ، ورام بعضهم ان لايفارقها الا بعد وصولها الى اسكتلندا . فذرفت عيناها دمع الاسى والاسف ، واراد ملك النافار لحاقا بالاصدقاء الذين شيعوا تلك الملكة الراحلة ، الا ان الملكة الوالدة نادته بحجة ان له شغلا عندها بشؤون المملكة . فلما انتهى لجب

القوم المسافرين وابتعدوا تنهدت كاترين كمن استراح من تعب وقالت : الآن صرت ملكة فرنسا ! أما الدوق دي جيز فرجع وهو يقول ، لا بد من استئناف النضال ، وها انا وانت يا كاترين ، وسنرى من يفوز !

★ ★ ★

ولما انعقد مجلس الحكام لم يظهر الدوق في البلاط الا نادرا ، واقتدى به مونمورانسي والماريشال سن اندرة . وحضر المجلس الكردينال دي لورين وملك النافار فأبصروا باعينهما كيف تقلص ظل نفوذهما . ثم انفض المجلس دون ان تظهر نتيجة لاعماله .

وفي اليوم التالي كانت كاترين في مكتبها تطالع كتابا مجلدا تجليدا نفيسا فامتنعت عن المطالعة هنيهة لتخلص سياستها . وقالت ان امير كوندا عدو للدوق دي جيز ، فهو ينصب له الاشراك ، وملك النافار عدو للكردينال اخي الدوق ، ومونمورانسي خصم لسن اندرة ، وهذا عداء يفرق بين الجميع ويسلطني عليهم ، والفضل في ذلك يعود الى مواطني واضع هذا الكتاب .

ونظرت في كتابها وقالت ما اجمل هذا الفصل . وكان عنوان ذلك الفصل « آقسم لتملك » واسم مؤلف الكتاب ماشيافل (١) .
على ان كاترين فاتها امر واحد وهو ان هؤلاء الكبار المتعادين قد ادركوا مرامها ، لان الماريشال سن اندري والدوق دي مونمورانسي تلقوا في ذلك المساء رسالة من الدوقة دي فالاتينو (وكانت هذه المرأة ذات نفوذ على الاميرين) ، واليك نص الرسالة :

---

(١) Nicolas Machiavel مؤرخ فلورنسي ، توفي ١٥٢٧ .

« اذهب عند منتصف هذه الليلة الى قصر اللوفر دون ان تدع احدا يعرف من انت . فهناك صديق مخلص ينتظر وصولك . فاصعد الى الطبقة الثانية واضرب الباب الوحيد الذي ترى تحته نورا اما كلمة المرور فهي : فرنسا ولورين » .

« ديانا دي فالانتينو »

فذهبا في الوقت المعين دون تردد ، فكانا في منتصف الليل عند باب واحد ، فعرف كل منهما الآخر . فقال الماريشال : ما جاء بك الى هنا يا مسيو دي مونمورانسي ؟ فاجابه ، وانت اي امر ساقك الى اللوفر ؟ ثم نظر كل منهما الى الباب وقالا معا : هذا باب حجرة الدوق دي جيز .

وقال الاثنان معا : انه عدوي الالد . وعندئذ انفتح الباب وظهر الدوق يحمل مصباحا فقال لهما : ادخلا ايها السيدان ، فان مدام ديانا كتبت اليكما عن هذا الموعد بعد ان طلبت منها الكتابة اليكما . فبهت الرجلان الا انهما دخلا حجرة الدوق فقدم اليهما كرسيين وجلسوا الى مكتب عليه ورقة كبيرة بقربها دواة واقلام واختام .

فقال مونمورانسي : الا توضح لنا معنى هذه الدعوة ؟.

قال الدوق : الا يدهشك قدومك الي ؟..

ـ اني متعجب من امرين : احدهما اجتماعي بك لانك كنت على الدوام عدوي ، والآخر انني ألقاك في هذا القصر بدلا من ان تكون في قصر آل جيز .

ـ لو كنا في قصر آل جيز لراقبتنا العيون ، اما في هذا القصر فما من احد يظن ان ثلاثة رجال مثلنا يدخلونه من غير حاشية . ولو كنا في غير هذا الوقت لما صلح قصر اللوفر لاجتماعنا ، اما اليوم فهو خير ملجأ لنا لغياب كاترين .

قال مونمورانسي ، وهل اتينا الى هنا للقيام بمؤامرة .

اجاب الدوق ، كلا يا سيدي ولكن للدفاع عن انفسنا . وما فرق بيننا الا مصالح زهيدة جدا ، ولذلك اردت ان اصافحكما معترفا بخطأي ، واني اقدم ولاية (دمارتين) ضمانة على صدق كلامي وعربونا لصداقتي . ومد يده الى مونمورانسي فصافحها من غير اهتمام ، منتظرا اتمام المحادثة . فقال الدوق ، لا بد من تناسي احقادنا ، ثم الاهتمام باتحادنا لمقاومة الخطر المحدق بنا ومصدره امرأة .

فقال الرجلان معا ، كاترين ؟

ــ نعم كاترين التي تناولت مقاليد السلطة من غير حق، وعبثت بحقوقنا وبالقوانين الفرنساوية ، وشريعة الافرنج تمنع النساء من التملك ، بل تمنعهن من الوصاية . ولئن لم تتخذ كاترين لقب « الوصية » لاعتراض مجلس الحكام ، فقد قبضت على السلطة ، وارادتها اصبحت مطلقة . واشركت فيها ملك النافار ، وهو غبي مغفل ، وامين الاختام ، وهو شيخ تولاه الخرف ، والاميرال كوليني ، وهو بروتستانتي المذهب ، فذلك لا يمكن دوامه .

قال الاميرال سن اندرة : نعم ذلك لا يمكن دوامه .

وقال الدوق ، ولم تكتف كاترين بذلك كله بل اعلنت انها عازمة على مقاومة خدم الملك المتوفي وهنري الثاني . واسماء هؤلاء الخدم مونمورانسي ، وسن اندرة ، ولورين .

قال الماريشال ، ان هذه الايطالية تستوجب ان يعلق حجر في عنقها وتطرح في السين .

فقال الدوق دي جيز ، لا ينبغي ان ننسى ان عدوتنا امرأة ، وحسبنا

ان نجعلها في دير بعيد • اما قتلها فلا يليق بنا ••• ولا سبيل الى الظفر بهذه المرأة الا اذا اتحدنا اتحادا ثابتا وتعاهدنا على التعاون بجميع الوسائل •

قال الماريشال ، اني اسير معك في هذا الطريق ايها الدوق • وتردد مونموراني شيئا لان وفاءه القديم للبيت المالك كان حائلا دون موافقته على ذلك الاقتراح ، لكنه ذكر ان هذه المرأة تروم ان تعامل كبار الدولة كما تعامل وصائفها •

فقال الدوق ، الا تقبل يا مسيو مونمورانسي بما قبلنا به ؟

فأجاب ، بل قبلت ورضيت •

فانثنى الدوق الى الاميرال وقال له ، أتروم ان نكتب اتفاقنا على ورق ونوقع عليه ؟

فاجابه الاميرال مرتبكا ، قال ، بل الكلام يكفي •

وقال الدوق ، الكتابة افضل •

ــ انني لا احسن الكتابة الا قليلا فاكتب الاتفاق انت •

ــ ان خطي لا يقرأ •

فقال مونمورانسي ، اما انا فلا اجيد كتابة شيء •

وقال الدوق ، هنا ثلاثة اختام لمونمورانسي ، وسن اندري ، ودي جيز ، قد اصطنعها اخي الكردينال • ولكن مالنا ولها فنحن اشراف والقسم يكفي بيننا • ثم جرد سيفه ووضعه على المكتب وقال • انا نقسم بأسيافنا على اننا نتحد ضد الملكة كاترين ونتعاون عليها تعاون صدق وامانة في كل عمل نباشره • فجرد سن اندره ومونمورانسي سيفيهما وقالا ، انا نقسم على ذلك •

الفصل السادس والعشرون

(جاليـــو)

في اوائـــل سنة ١٦٦٢ كانت كـــاترين ظافرة بخصومهـــا . فـــذهب مونمورانسي الى شانتيلي وبقي الماريشال سن اندره في باريس ، اما آل جيز فارتحلوا عن البلاط وقالوا انهم يفضلون الابتعاد عنه ما دامت كلمـــة النافار اعلى من كلمتهم ، وما دامت الملكة قد انتزعت السلطة مـــن ايديهم وسلمتها الى ملك النافار والاميرال دي كوليني وغيرهما . ولما رأت كاترين انها لا يستتب لها الملك الا بالانضمام الى حزب او طائفة ، عمدت الى كبار ابناء طائفة البروتستانت فاتخذت قوتهم سندا لها ليدافعوا عنها ، وقـــت حلول الاضطرابات . وكاترين هي التي ذبحتهم بعد ذلك ذبح الاغنام كما سترى . ولقد احسنت معاملتهم وقتئذ وبوأتهم صدور المجالس .

ومن سوء حظ الملكة الوالدة ان سياستها لم تخل مـــن موضع وهن ونقطة ضعف ، فانها قبضت على السلطة واشركت فيها ملك النافار وهـــي غيرى منه . ولما آنس هذا الملك شيئا من القوة ندم على تخليه قبلا عـــن الوصاية وهي حق شرعي له . وكان يزعجه تحكم الملكة واعوانها، ومعظمهم بروتستانتيون . فهمس الهامسون في اذنه يقولون له ان السلطة بين يدي غلام . فان الاخ البكر قد مات لضعف دمه ، وربما كان اخواه مثله لاحقين

به ، ويومئذ من يكون الوارث غيرك ؟ انت اول امير من الدم الملكي ، غير ان فرنسا لا تطيق ان يجلس على عرشها رجل بروتستانتي . وهكذا تفسحل خلافة آل فالوي ... وتبدل بغيرها ، والله اعلم بمن ؟

ثم كانوا يهمسون في اذنه كلمات عن ماري ستوارت وهم يعلمون ان لجمالها وقعا عنده ، فحسنوا له الاقتران بها قبل ان تقترن بغيره ، هذا اذا اعتنق المذهب الكاثوليكي علانية . وماري ستوارت ملكة اسكتلندا ، ولا يبعد ان تغدو ملكة انكلترة ...

الا ان ملك النافار ظل مترددا . الى ان قرأ يوماً اعلانا كأنه صادر من البروتستانتيين (وقد ظهر تزويره نكاية بهم) وهم يهزأون به ويتغزلون فيه بجمال ماري ستوارت . فهمهم ودمدم وقال ، سوف يرى البروتستانتيون الملاعين كيف اغيظهم واسحقهم .

ولما عاد عند المساء الى فونتنبلو اعلن للجميع انه اعتنق المذهب الكاثوليكي وطلب من زوجته الاقتداء به . فرفضت وامتنعت ، فأمرها بالسفر الى غاسقونيا . واما كاترين فأثر فيها النبأ وفكرت في التدابير التي تتخذها لمعارضة اماني ابن عمها .

ولما انعقد مجلس الحكام طرحت امامه مسئلة محاسنة البروتستانتيين وامتاعهم بالحقوق العادلة التي يطلبونها ، وهذه مسئلة كانت منبوذة في عهد فرنسوا الثاني ، فطلبت اصدار براءة بها ..

وفيما كان المجلس منعقدا والبحث دائر فيه بين الوزراء البروتستانتيين وامين الاختام ، وبعضهم يهنىء بعضا ، اقبل ملك النافار مدججا بسلاحه والغضب باد على وجهه ، فوجه خطابه الى كاترين وقال بصوت جهوري ، لسنا نريد ان تتم هذه المسئلة دون مصادقتنا وموافقتنا . ان فرنسا بلاد

كاثوليكية ؛ وانا رجل كاثوليكي فلا ارضى بأن ينعقد مجلس الملك الخاص على هذه الصورة المعيبة .

قالت الملكة ؛ لقد نسيت نفسك يا ابن العم .

قال ؛ كلا لم أنس نفسي . فانت تدرين ايتها السيدة ، كما ادري انا ، ان هؤلاء المتمذهبين بالمذهب الجديد محتالون منافقون ، فلا بد من اخراج هذا الوباء من البلاط . وقد آن للمخلصين في خدمة الملك ان يظهروا اخلاصهم !..

واسهب في الكلام ، فانحى بالتعنيف على امين الاختام وسائر الحضور ، الى ان قال ، نعم ايتها الملكة ، اطردي هؤلاء القوم او فانضمي اليهم . اما انا فاني انبذهم واقاومهم ؛ ويحق لي ان اكون الوصي على المملكة ، وسأكونه اذا شئت . ولا تنقضي ايام قلائل حتى تري ابناء عمك آل جيز ههنا ، والكردينال اخاه ، والماريشال سن اندري ، والمسيو دي مونمورانسي ، وسائر القوم الكرام الذين رأيت ابعادهم عنك ، فأولئك اقرب الناس مودة الى الملك ...

ولم تستطع الملكة ثباتا امام ملك النافار ، فلطالما خادعته من قبل . فأتم خطبته قائلا ، اذا لم يرتحل عن البلاط ، كوليني ودندلوت البروتستانتيان ، فهو يأمر الجيوش بانتشال الملك ، ويحق له ان يفعل لانه نائب الملك وصاحب السلطة على الجند .

فاضطر كوليني ودندلوت الى الاستقالة وسافرا الى باريس لاحقين بأمير دي كوندة .

اما امير دي كوندة نفسه فكان متململا متضجرا من الاقامة في باريس لبعده عن بلاط الملك ، وكذلك كان جاليو فانه مل الاقامة بعيدا عن مارسلين لانها ما برحت مع زوجها وقد انضم الى الكردينال ولاذ بحمايته .

وكانت المجادلات الدينية في ذلك الوقت تمزق وحدة الامة المنقسمة الى طائفتين وتعتقد كل طائفة انها افحمت غريمتها بالبراهين الدامغة والحجج القاطعة . وفي اثناء ذلك تلقى امير كوندا ان آل جيز قد استعادوا سطوتهم ورفعوا رؤوسهم وتهيأوا للرجوع الى البلاط ، فعهد الى جاليو بالمراقبة والاستطلاع ، فقال وافرحتاه بهذه المهمة التي عهدت بها الي يا مولاي . فقال له : الا تزال مقيما على هوى زوجة افنيل ؟ اجاب نعم يا سيدي، فقد تعرضت لهذه الحادثة الغرامية ضاحكا ماجنا ، اما الان فلا اضن بحياتي في سبيلها .

قال اذن سافر يا جاليو وامزج بين الهوى والسياسة كما تشاء ، وانما كن حكيما .

فسافر جاليو في اواخر شهر يناير (كانون الثاني) بعد ان ودع استاذه برنابا ، فوصل الى مدينة جوانفيل حيث يقيم آل جيز والكردينال . فدار في البلد دورة حتى اهتدى الى منزل المحامي افنيل . غير ان بيوت البلدة كلها كانت مقفلة وعلى ابوابها الحراس كأن الحرب قائمة حولها . فاضاع جاليو اسبوعا كاملا من غير ان يلتقي بمارسلين او يتمكن من ارسال كتاب اليها . وكاد ييأس منها عندما علم ان الدوق عازم على الاياب الى البلاط ، فبعث تقريرا الى امير دي كوندة ، ثم لبث محتجبا في المدينة يقول في نفسه، لا يطيب للعشاق شيء مثل السفر المفاجيء . ولاح له ان الدوق لا يصل الى باريس الا بعد ان يحدث حدثا في طريقه . الا انه لما رأى موكب الدوق احس بكآبة عظيمة لانه رأى جيشا حقيقيا قد تألف واجتمع في ضواحي جوانفيل وفيه جنود المانيون . فلما كان اخر شهر فبراير (شباط) تحرك ذلك الجيش . فغادر المحامي افنيل البلد لاحقا بسيديه الكردينال والدوق، سائرا بجانب المركبة التي فيها زوجته وبعض النسوة فلم يتمكن جاليو من

القاء كلمة اليها • ووصل الدوق الى مدينة فاسي في اول مارس (آذار) ، فنزل فيها عند والدته العجوز الاميرة دي بوربون ، وقال لها : الا يزال اعداء ديننا كثيرين ههنا ؟ قالت : نعم واأسفاه ، واني لفي يأس شديد من اصلاح هذه الحالة السيئة لانني اسمع ترنيمهم وصلواتهم كل يوم من قصري هذا • وسوف ترى بعد هنيهة اننا لا نستطيع الجلوس الى مائدة العشاء • قال : سوف نكرههم على السكوت !

ولقد رافق جاليو موكب الدوق ولم يتمكن في اثناء ذلك الوقوف من مراقبة مرسلين لانها دخلت قصر والدة الدوق • فتجول في المدينة وكان عارفا ان اكثر سكانها من البروتستانتيين : واخذ يفكر في تقرير يكتبه الى امير كوندا عما رأى وسمع • وفيما هو كذلك أبصر جمهورا غفيرا ذاهبا لسماع الوعظ • وكان البروتستانتيون يجتمعون في مكدس من مكادس القمح ، ويسمعون الوعظ هنالك ، اذ لم تكن لهم معابد يعظون فيها • فقال جاليو في نفسه : لا شك انهم يمتدحون امير كوندا ، وهذا امر يعزيني شيئا عن لقاء مارسلين •

وبدأ البروتستانتيون وكان عددهم ينيف على الف ومائتي رجل في الترنم بأناشيدهم • واذا بباب المكدس يقرع وقائل يقول : افتحوا فاننا نروم سماع الوعظ •

ففتح الباب من كانوا على مقربة منه • ثم تقهقروا مذعورين اذ رأوا جماعات من الاشراف لم يشكوا في انهم من حاشية الدوق دي جيز • فقال البروتستانتيون لهم : ما حاجتكم ؟ قالوا : لا حاجة لنا الا سماع الوعظ كما انبأناكم •

وحاول بعضهم الدخول ومزاحمة الحضور فادرك البروتستانتيون ان اولئك الاشراف انما جاؤوا ليهزأوا بهم ، فاطبقوا الباب وصاح احدهم

متألما يقول ، ويل لكم فقد سحقتم قدمي • وكان المتكلم ملازما من ضباط الدوق دي جيز وقد حشر مصراع الباب قدمه ، ففتحه البروتستانتيون مرة ثانية ليتمكن من تخليص قدمه فبادرهم الكاثوليكيون بالسباب والشتم •

واذ ذاك وصل ضابط من ضباط الدوق يقول ، حسبكم يا قوم ! ان الدوق يطلب منكم ان تسكتوا لان اناشيدكم تمنعه من تناول عشائه ، فأجلوا صلاتكم الى وقت اخر ان شئتم !

فهاجت هذه الكلمات حنق البروتستانتيين وصاحوا قائلين ، الا لعنة الله على الدوق وأسرته انهم لملحدون !

وقلق جاليو واحس بانه ارتكب خطأ في دخوله بين القوم ، فتزمل (تلفف) بردائه واخذ يتخطى الرقاب الى ناحية الباب وهو يقول في نفسه، سوف اعلن للقوم انني كاثوليكي المذهب فاتمكن من الانصراف ، وويل لمن يمنعني من المرور !•••

ومد يده الى قبضة سيفه وقد وصل الى الباب فما لبث ان رأى رجلا طويل القامة قد وقف امامه فتفرس في وجهه فعرف انه الدوق دي جيز جاء بنفسه • وقبل ان يحتجب عنه جاليو كان الدوق قد رآه فصاح ، هذا وصيف امير كوندة اذن هي ثورة مدبرة !

على انه لم يصدر امرا • وفي اثناء وقوفه اصابه حجر من داخل المكدس في خده فجرحه جرحا خفيفا ، فسال دمه غزيرا فقال ، هذا لا يطاق الا هجوما على اولئك الملحدين ، اقتلوهم يا اصدقائي ، ولا ترحموهم !

وكان البروتستانتيون وقتئذ دون سلاح ولا يكادون يقدرون على جمع الحجارة للدفاع عن انفسهم ، وتواثب رجال الدوق الى المكدس فتلوا كل من عجز عن الفرار • وسكر جاليو برائحة البارود ومنظر

السيوف ، ومع انه لم يكن بروتستانتيا لكنه كان عدو الدوق دي جيز ، لانه وصيف امير كوندة . وكان الدوق يتقدم ليلحق به وهو في مقدمة بعض الرجال ، وقال له اظننا قابضين عليك في هذه المرة ، فلا تنجو منا .

فاجابه ، مهلا يا مولاي .

وجعل يتقهقر باحثا عن منفذ ، وهم احد الجنود بان يطعنه بحربة فاجتنب جاليو الطعنة ، وضرب الجندي بخنجره فطرحه صريعا . وفرق الزحام بين جاليو والدوق فانتهز تلك الفرصة واختطف غدارتين من احد الجنود .

وكان البروتستانتيون قد اهتدوا الى عدة منافذ فنجا بعضهم من باب كبير ، وصعد آخرون في سلم كان في داخل المكدس الى السقف . ففكر جاليو في الفرار من احد هذين المنفذين ، الا ان الزحام كان شديدا جدا فخاف ان يلحق به الدوق ويقبض عليه فيأسره او يقتله وهو لا يستطيع مقاتلة عشرين او ثلاثين من المهاجمين المدججين بالسلاح ، وكان منهم عشرة رجال هاجمون عليه . فمشى وظهره الى الجدار ، وهو يسأل الله مخرجا من ذلك الضنك ، واذا بباب وراءه كان مغلقا ففتحه وخرج منه باسرع من لحظة . فهدر الدوق وزمجر . اما جاليو فنظر الى الموضع الذي وصل اليه فعلم انه موضع ضيق عند اسفل سلم ، فاغلق الباب وصعد في درج السلم فوصل الى مكدس صغير كان مشيدا فوق المكدس الكبير وله نافذة ضيقة ، فقال في نفسه ، اهرب من هذه النافذة اذا ترك لي الدوق الوقت الكافي .

وكانت رائحة التبن والهشيم الجاف ملء المكان ، فالقى جاليو نظرة الى ما حوله فأبصر زكائب الهشيم مجموعة في زاوية ، وسمع وقع خطى على السلم ، فلم ير بدا من العمل ، فانحنى على السلم واطلق رصاصة من احدى غدارتيه .

فقال قائل ، سلم نفسك ! فـان رصاصتك لم تصب احـدا ، وانّا لقابضون عليك لا محالة !

فضحك ، وقال ، مهلا يا مولاي !

وللحال خطر له خاطر عجيب ، اذ دنا من احدى الزكائب فاطلق عليها النار من الغدارة الثانية .

فصاح الدوق وهو على السلم ، لقد اخطأ رصاصك المرمى مرة ثانية .

فقال جاليو ، كلا يا مولاي ، وسوف ترى بعينك .

واشتعل يبس النبات والهشيم ، وكان جاليو يطرح النار على سائر الزكائب ، ولما اقتربت الخطى رمى باحدى الزكائب المشتعلة الى السلم ، فتدحرج الصاعدون عليه . وقال الدوق ، قاتل الله اللعين ، أتراه ينجـو دائما ؟

ولم يكن من سبيل الى الوصول الى جاليو ، لان الزكـائب اشتعلت وانتشر الدخان حتى امتلأ به السلم . فتسلق جاليو الى السطح وشاهد من هناك ما جرى . فابصر رجال الدوق يطاردون البروتستانتيين وهم يفرون منهم في كل مكان ، وقد تبعثرت جثثهم الدامية على الكلاء الاخضر ، وطلع السيدات والاشراف الذين كانوا يتعشون في قصر الاميرة دي بوربون ، والدوق دي جيز الى الشرفات فكانوا يشاهدون تلك المجزرة ويرشدون الجنود الى مكامن البروتستانتيين ليفتكوا بهم !!

وكان السطح الذي صعد اليه جاليو في ناحية اخرى فتدلى منه الـى بستان خال ، في طرفـه غيضة ، فاجتازهـا حتى وصل الى فنـاء متسع . فارتفعت اذ ذاك صيحات مفزعة فوقه ، فرفع رأسه وادرك انه رمى نفسه في فم الاسد ، لان ذلك الفناء كان فناء قصر والدة الدوق دي جيز . فدمدم

وشتم • وصاح الرجال من شرفاتهم ينادون الجند ويرشدونهم اليه ويقولون : تعالوا الى هنا ، يوجد هنا واحد من البروتستانتيين !

وكان هناك سلم يفضي منه الى الشرفة التي صدرت منها الصرخات ، وصعد جاليو في السلم غير متردد فوصل الى الشرفة • وهناك سمع قائلا يقول : انه على السلم ، فأطلقوا النار عليه !

فتسابق الجنود السلم لاحقين بجاليو • ولما وصل الى الشرفة احس باضطراب شديد ، لانه رأى جماعات من الاشراف والسيدات والقسيسين هناك ، وقد هاجهم التعصب واسكرهم منظر الدم • ووقع بصره على امرأة بينهم كانت مطرقة والدمع يترقرق في عينيها • ولم يدر في خلد احد ان الرجل الذي يدلون الجند عليه ليقتلوه قد صار بينهم ، لانهم لم يروه حينما دخل الشرفة ، فقد كانوا كلهم مطلين على الفناء • فمشى الى المرأة الباكية وناداها : مرسلين !•• قالت : أسأل الله ان يقدر لك النجاة مما انت فيه •

فانثنى الحضور ، وكان المحامي افنيل في جملتهم وهو الذي فضح جاليو لانه رآه نازلا عن السطح الى الفناء فارشد اليه الجنود الكاثوليكيين • فنظر اليه جاليو في بدء الامر نظرة صعقته وسمّرته في موقفه ، الا انه تماسك لساعته ، وقد شعر بمساعدة حملة البنادق فشتم جاليو ، ثم اجتذب مرسلين بعنف ، الا ان هذه تراجعت مرتاعة ، فلطمها زوجها وهو يحتدم غيظا منها • وانتصرت السيدات اذ ذاك لمارسلين، فشهر جاليو سيفه وتقدم الى المحامي وقال له : لماذا اهنت هذه السيدة ؟

فقال له : ويلك ! كيف تتجرأ على هذا السؤال يا ابن اللئام ؟•• هل ظننت انني نسيت ليلة فوتنبلو ؟•• ايها الجنود اطلقوا النار على هذا الخائن الذي اجترأ على زوجتي !••

فصرخت مارسلين : بل انا اهواه يا ناس واتمنى ان اموت معه ••• بل

انا احمرّ خجلا من ان اكون زوجة نذل جبان مثل هذا الوحش ... ويل لك ! اما كان الاجدر بك ان تبارز الرجل بدلا من ان تأمر الجند باغتياله مع انه كاثوليكي وانت بروتستانتي .

واعتراها ارتجاف وارتعاش فاغمي عليها ، فتقهقر افنيل ممتقع اللون مذعورا . واذا باحد الجنود قد دنا من جاليو فقال له ، اكاثوليكـــي انت أم بروتستانتي ؟

فأجابه ، لست ادري يا اخي ، غير ان معي اربع غدارات محشوة ، فلكل منكم انتم الاربعة واحدة منها . وفضلا عنها فهذا سيفي وذاك خنجري ، فانا الاقوى . دعوني امرّ والا فويل لك ولرفاقك !

ولعل الجنود رأوا في كلامه نصحا صادقا فابتعدوا عنه . والتفت الى المحامي وقال ، انت جبان ، وكان يحق لي قتلك ، ولكنك لا تقوى عـــلى حمل سلاح ولست اريد اغتيالك . فانا ذاهب ، وويل لمن يتجرأ على اللحاق بي .

ثم حمـــل مارسلين على ساعديه وسار بها قبـــل ان يتمكن المحامي واصدقاؤه من امساكه فقد تولاهم الدهش والحيرة ، وارتدوا عنه لعلمهم انه كاثوليكي .

الفصل السابع والعشرون

(الدوق دي جيز والملكة كاترين)

ولما علم الدوق دي جيز بما فعل جاليو قال ، وأأسفاه ، ليت لي مثل هذا الشهم البطل . وسافر في ذلك المساء بعينه الى باريس بعد ان امر بالتحري عن اسباب المذبحة ، واستدعي اليه حاكم المدينة ، فقال له ، لماذا تأذن بمثل هذه الاجتماعات ؟

فأجابه ، أليس ذلك مطابقا لما جاء في الامر الجديد ؟

قال ، عن اي امر تتكلم ؟

اجاب . اتكلم عن البراءة الصادرة في شهر يناير (كانون الثاني) بشأن اطلاق الحرية لمباشرة البروتستانت شؤون دينهم ، والاذن لهم بالاجتماعات في المدن غير المقفلة . وفاسي مدينة غير مقفلة .

فاجابه ، ان امر يناير لا يدوم ، وقد آن وقت ايابنا الى باريس للدفاع عن دياتنا المقدسة . وبعد ايام وصل الدوق الى نانتيل فوقف فيها ليعلن لجيشه وقت السفر . وانتشر الخبر في باريس وضواحيها عن قرب وصول الدوق دي جيز اليها ، وبلغ امير كوندا قبل سواه لان جاليو انبأه بـه . فكتب الى كاترين يسألها اصدار اوامرها بذلك الشأن ، وارسال الجنود .

الا ان الملكة الوالدة كانت عزلى ، بل آثرت الالتجاء الى المكر والخديعة ، فبعثت برسالة الى الدوق دي جيز تظهر له فيها الحب ، وتبثه الشوق ، وتقول له انها تود ان تراه لتشاوره في شؤون البلاد ، وتختم رسالتها بقولها :

« لا تدخل باريس ، فان لك فيها اعداء كثيرين ، بل اقدم الي واجلس في موضعك في مجلس الملك ، وهيهات ان تجد اقرب اليك مودة من هذه الكاتبة اليك « كاترين » .

تلقى الدوق هذه الرسالة وهو في نانتيل فصاح ، واها لك يا ابنة عمي الحسناء ، فقد طردتني عندما حسبت نفسك اقوى مني ، اما الآن ، وقد ارهبك جيشي ، فانك ترومين التفريق بيني وبينه !.. كلا ، ذلك لا يكون . وانما ادخل باريس حينما اشاء ، وسوف تعلمين اي استقبال يكون لي فيها .

ولم يجب الملكة على تلك الرسالة . فارتاعت ورأت نفسها في معزل ، فامرت ترولوس بالتأهب للرحيل في يوم ٢٥ مارس (اذار) (ارتحلت عن سن جرمين حيثما كانت يومئذ واتجهت الى مونصوانبري) وقد احست بالخذلان لان جيوش كوندا لم تكن متأهبة وقد تركها الاميرال عقيب ما بدا له من وقاحة ملك النافار فكادت تجن يأساً ، فاشارت على امين الاختام بالذهاب الى باريس فقال لها ، أزالت حظوتي عندك يا سيدتي ؟..

فاجابته ، كلا ولكن زالت السلطة من يدي . وكان موكبها محزناً ليس فيه الا قليل من حملة البنادق وقليل من الاشراف للدفاع عنها . وكان اولادها يبكون ، فتركت موكبها يسير من غير ان تتكلم . وفيما هي خارجة من سن دنيس اشرف ترولوس على مركبة الملكة وقال لها ، ارى جيشاً مقبلاً من طريق اخر لا يقف ...

قالت ، أيوجد من يتجرأ على الوقوف في طريقي ؟•• ومن يكون ! الا جرد سيفك ايها القائد واهجم على هؤلاء الوقحاء • وكان ترولوس ينتظر مثل هذا الامر لتألمه من تصاغر الملكة ، فشهر سيفه وتقدم الى الجيش وهو يصيح ، قفوا ايها السادة فهذا الذي ترونه امامكم موكب الملك !

فأجابه قائل ، لقد كنت اعرف ذلك •

قال ، تعرف ذلك وتتقدم ؟••

وتوقف ترولوس مبهوتا لانه عرف ان المتكلم هو مونمورانسي ، لكنه لم يتمالك ان قال ، انت يا سيدي اول قائد في فرنسا • ومن العجب انك تأبى التسليم على الملك وتأبى الا ان تعترض طريقه •

قال ، ابتعد يا هذا والا امرت رجالي باطلاق النار عليك •

فاجابه ، اطلق النار عليّ ان شئت ، ولكنني لا ادعك تهين الملك والملكة الوالدة • هذا وموكب الملكة الوالدة يقترب • فضعضعها الغيظ واذهلها الدهش لان مونمورانسي رآها ولكنه تظاهر بانه لم يرها • وجمع ترلوس جنوده حوله وكاد ينشب القتال لولا ان الملكة امرت حاشيتها بالاقتراب بها الى المسيو مونمورانسي ، فلم يرفع لها قبعته ولم يترجل عن جواده بل قال لها ، ماذا ترومين ايتها السيدة ؟••

فصاح ترولوس ، يا لك من شقي !! الا ان الملكة تلافت مسا يحتمل وقوعه من قتال بين رجالها وجيش كثيف لا قدرة لهم عليه ، ورأت من واجباتها انقاذ حياة ورثة عرش فرنسا ، فالتفتت الى ترولوس وقالت له ، دع سيفك في غمده يا كونت ، وما دام المسيو دي مونمورانسي يأبى التسليم علينا فنحن لا ننساه •

فقال لها هذا بلهجة جافية ، تعذرينني ايتها السيدة لانني مستعجل جدا ولا يسعني الا المبادرة لالقي المسيو دي جيز في ناتيل •••

قالت ، اذن انت ذاهب الى ناتيل ؟

اجاب ، نعم ، فانني اروم مقابلة الدوق قبل دخولنا البلاط لتدبير ما لا بد منه .

فأدركت كاترين المراد من ذلك التدبير ، فامرت رجالها بمواصلة السير ولم تحفل برجال مونمورانسي . فاختلط الموكبان ، ولولا كاترين لساءت المغبة . وكان ترولوس محتدما هائجا لانه اضطر الى ابقاء سيفه في غمده في فرصة من احسن الفرص لتجريد ذلك السيف . ولما اطل على مركبة كاترين رآها تبكي وتمزق منديلها باسنانها ، فقال ترولوس ، لماذا لم تدعيني اقتل هذا الخائن الذي اجترأ عليك بالاهانة ؟

قالت ، صبرا يا ترولوس فلو تركتك تفعل لقتلوك واسروني وانتشلوا مني الوصاية التي حرصت عليها برغمهم جميعا . آه ، ويل للاشقياء ، فلسوف اعاقبهم ... فصبرا ...!!

وبكت مدة السفر وكانت تسأل نفسها عما اذا كان قول القائل « اقسم تملك » كافيا لبسط سلطتها وتملكها . فلما وصلت الى مونصوابري دعت اليها ترولوس وقالت له ، انا هنا في امن ودعة ، الا انني بعيدة جدا عن باريس وبعد ايام اذهب الى فونتنبلو . فانطلق انت الى باريس واجتمع بأمير كوندا وقل له انني لا جنود لدي ولا حاشية للدفاع فليجمع حزبه واعوانه وليقدم سريعا . سر يا حبيبي ترولوس ولا تعد الا ومعك جيش عرمرم .

فسافر ترولوس الى باريس ، وفي اليوم التالي لقي الامير في قصره وكان الجميع في قلق وانزعاج . فقال له الامير ، هل اتيت لتسعفني بسيفك؟

فاجابه ، واأسفاه يا مولاي ! انت تدري ان سيفي للملكة . ولكن اذا كان هناك خطر يحيق بك فاني ...

فسبقه الامير الى الكلام قائلا ، اني اجهل ما يكون ، ولكن لا بد من وقوع حوادث هائلة . فاين الملكة ؟

اجاب ، في مونصوانيري ولا تلبث حتى تأتي الى فونتنبلو وهناك تنتظرك انت ورجالك .

فقال الامير ، لو ان سيفي يكفي للدفاع عن كاترين دي مدسيس لقدمته لها راضيا مسرورا ، ولكن ماذا يفعل سيفي في لقاء جيش الدوق دي جيز ؟

قال ترولوس ، ليس للملكة الآن من يدافع عنها !

اجاب الامير ، اني مثلها يا ترولوس ، اجمع جنودي ولكنني لا ادري متى اجمعهم واقاوم بهم اعداء الملك ...

قال ترولوس ، لقد امرتني الملكة يا سيدي ان لا افارقك وان ارجع بك اليها الى فونتنبلو من غير امهال .

فأطرق الامير هنيهة ، ثم رفع رأسه وقال ، اني عازم على الدفاع عن الملكة وذلك من واجباتي . ثم خفض صوته وقال ، بل من مصلحتي .

قال ترولوس ، ان الملكة لا ترجو المساعدة من احد سواك .

ــ ولكنني لا استطيع الارتحال عن باريس من غير سبب معقول بينما الدوق ينوي القدوم اليها .

ــ هل يتجرأ الدوق على ذلك ؟

اجاب الامير ، ان ولاية الملك قد انتزعت من يد الملكة يا ترولوس وصارت الى يد حزب الدوق دي جيز ، وسوف ترى دخوله غدا الى باريس ، فلست اريد ان يقال اني فررت منه . والآن قل لي ، هل تكذب في سبيل هناء الملكة ؟

قال ، بل اقدم على كل شيء في ذلك السبيل .

قال ، ان اخي الكردينال حاكم باريس ، وهو رجل جبان ينقـاد الى آل جيز انقياد خائف ، فاذهب والقه وقل له ان الملكة ارسلتك اليه ليأمرني ويأمر الدوق دي جيز من قبلها بالرجوع سريعا الى البلاط . وسوف يرفض الدوق . اما انا فاطيع وفي ذلك مصلحتنا .

قال ترولوس ، الا يمكن الفوز بجيش من الاشراف ...؟

قال ، اصغ اليّ يا ترولوس . فهل تحسب امير كوندة جبانا ؟

اجاب ، معاذ الله يا سيدي .

قال ، ثق ان اعداء الدوق دي جيز سيلجأون الى الفرار غـدا مـن باريس لئلا تضرب اعناقهم . فاذهب واقض مهمتك عند اخي وارجع فاقض ليلتك في قصري .

فقصد ترولوس الكردينال دي بوربون ، شقيق امير كوندا ، ولاحظ وهو سائر ان الطرق مزينة بالحبال الزينية ، وان الباريسيين فرحون بقدوم الدوق ، لا يكتمون فرحهم . وسمع كثيرين في الطريق يبشرون نفـوسـهم بقرب وصـوله .

ومما تنبه اليه ايضا ان الكنائس كانت مفتوحة وكانت قد فاتت مواعيد الصلوة وان المارة يدخلونها كأنهم في يوم عيد .

فقضى مهمته عند الكردينال دي بوربون ولم يخامر هذا ادنى انذهال من مثل هذا الامر ، لكنه قال لترولس ، لئن تيسر انفاذ هذا الامر على امير كوندا فلا يسهل انفاذه على الدوق دي جيز . ثم قال ، على انني سـأنجز ما يتعلق بي ، واقسم لك على ذلك . ومر ترولوس بفندق «نيكول بوصه» فلقي صاحب الفندق ، وقد اعد زينة بديعة فقال له ، ما هذا يا نيكـول .

فتذكر نيكول ان ترولوس بروتستانتي ، وانه عدو للدوق دي جيز كسائر ابناء مذهبه ، فاجابه ، ما هذا الا للاحتفال باحد الشعانين ، وهو عيد يقع بعد غد .

قال ، لم اكن احسبك متمسكا بالدين الكاثوليكي الى هذا الحد . وابتعد وهو يفكر ، فدخل قصر كوندا فنام بعد ارق ، واستيقظ عند الصباح على هتاف المتحمسين ، فبادر الى لقاء الامير وقال ، ما هذا الهتاف يا مولاي ؟ لقد كان الاجدر ان يوجه الى ملك فرنسا دون سواه .

قال الامير ، ان الدوق دي جيز اليوم اسمى من ملك فرنسا منزلة وارفع شأنا . فتجول في المدينة تتحقق ذلك وتنبىء به الملكة الوالدة ، اما انا فاني البث ههنا لاتلقى الامر من اخي الكردينال قبل سفري . فنزل ترولوس الى الشارع واتجه الى ناحية باب سن انطوان . وقبيل وصوله سمع وراءه نيكول يقول له ، الى اين ؟ فاجابه ، الى باب سن انطوان .

قال ، ولكن الدوق آت من باب سن دنيس .

اجاب ، ذلك مستحيل . قال ، ألم يكن يأتي الملك من ذلك الباب عندما يروم ان يحتفل بقدومه ؟ وانت تعلم يا سيدي ان دخول الدوق العاصمة لا يشبه دخول الملك منذ ثمانية عشر شهرا .

فقال ترولوس في نفسه ، صدق الرجل ، فقد كدت اشهر سيفي يومئذ لانني سمعت الاهانات توجه الى الملكة !

وكان الناس قد تقلدوا السلاح على ملابس العيد التي لبسوها ، واخذوا يبدون مظاهرات حربية تبسم لها ترولوس . ودقت الاجراس لاعلان الابتهاج والسرور ، وضربت الموسيقى ، وازدانت الابواب والنوافذ بالاغصان الخضراء ، ورفعت اعلام عليها هذه الكلمات « حيا الله فرنسوا دوق دي جيز ، حامي حمى الديانة الكاثوليكية » ! فاحص ترولوس رسول

الملكة بالعبرات تسري على خديه حنقا ، وزاد غيظه عندما وصل الى بـاب سن دنيس لانه رأى هناك جمهورا غفيرا ينتظر قدوم الرجل الذي دعـاه منقذا لدينه ، فقال ترولوس في نفسه ، ما ضر الدوق لو تأخر يوما واحدا وجاء في يوم « عيد الشعانين » (او احد السعف الذي يسبق عيد القيامة باسبوع واحد) ، اذن لكان يدخل المدينة دخول المسيح اورشليـم . واذا بالصياح قد علا حتى طبق الفضاء ، وسمع وقع حوافر الخيل من بعيـد مبشرا بوصول الدوق دي جيز الى باريس ، مدينته المحبوبة ، فعظم الهتاف وقتئذ . وكان القوم يصيحون ، ليحي سيافة الدوق دي جيز ! او ليحي حملة بنادق الدوق دي جيز ، او لتحيى بطانة الدوق دي جيز ! صياحا يصم الآذان . وهتف بعضهم يقولون ، ليحي القضاة العدول الذين قضوا على البروتستانت في فاسي !!!

ثم ظهر الدوق دي جيز راكبا جوادا ابيض ، سرجه من جوخ مذهب ، وعليه دراعة من حرير ابيض محجبة بوشي الذهب ، وهو يفوق بطول قامته من حوله من الفرسان . فتوافد حكام المدينة للسلام عليه ، وقدموا لـه مفاتيح البلد . وقام رئيس التجار خطيبا فقال في خطبته ، ان اهل المدينـة انتظروا مسيحهم حتى اتى ، وهذا المسيح هو الدوق دي جيز . فـاجاب الدوق بكلمات قليلة كان لها صدى في العاصمة قال ، لقد اردنا ايها السادة مفارقة البلاط كي لا يتسلط علينا اعداء مذهبنا القويم ، الا ان جرأة هؤلاء الاعداء تجاوزت الحدود حتى عز على كل كاثوليكي حر ان يعيش محترما ما دام الامر الملعون المشهور بأمر يناير (كانون الثاني) نافذا ، وانما عدنا الى باريس للدفاع عن الاهنا (ما اضعف هذا الالاه اذا كان في حاجة لمثل هذا الدفاع) . وفي اعتقادنا انه لا يوجد في المملكة كلها مدينة اوثق ايمانا من مدينتنا باريس العامرة ! »

واستمر الموكب سائرا على مهل ، مضطرا احيانا كثيرة الى الـوقوف ليدع للناس فرصة ليقتربوا من الدوق ويتبركوا بلمس ثيابه . وهكـذا وصل فرنسوا دي جيز الى قصره ، وكان الكردينال دي بوربون شقيـق امير كوندا ينتظره فيه فأدى البلاغ ، وطلب الى الدوق ان يقابل الملكة في فونتبلو حيثما تنتظره مع امير كوندا الذي عزم على السفر اليها . فاجابه الدوق بلطف قال ، انني ارغب في الذهاب الى هناك ، على ان الشعب لمـا علم بما طلبته الملكة وبان الدوق ينوي الذهاب دون جيشه الـى البلاط ، ثـار ثورة حقيقية ، وجـاءه رسول مـن الشعب يقـول له بالنيابة عـن الباريسيين ، لسنا ندعك تذهب ايها المولى لانك انما اتيت الى بـاريس للدفاع عنا . فليفارق امير كوندا باريس مصحوبا برجاله البروتستانتيين قبلما يطردهم الشعب نفسه . اما انت فلا ترحل عن باريس من غـير ان ترى ملك النافار وتتفق معه على الدفاع عن ديننا .

فانثنى الدوق الى الكردينال وقـال له ، أرأيت الآن يا ابن العم كيف انني عاجز عن الانقياد الى الملكة والعمل بأوامرها ؟

فقطب الكردينال وجهه ، ومضى ليلقى اخاه امير كوندا ، وكان هـذا ينتظره وقد تأهب للسفر ، فقال الامير ، اما انا فانني مطيع للملكة . ولقي ترولوس الامير فقال له ، اترى الآن اننا قادرون على المقاومة في بـاريس والهجوم على الدوق ؟ فاجابه ، كلا ايها الامير ، ولكني ارى المبادرة الـى مساعدة الملكة ، وعسى ان نصل اليها قبل فوات الوقت .

فلم يجب امير كوندا ، بل خرج من باريس ليلا ومعه بعض الاشراف . فلما رأى ترولوس ذلك البعض وهو مؤلف من بروتستانتيين قد شيبتهـم الحروب وشبان ممتلئين حماسة قال ، ليتك تأتي الى فونتبلو فنكون عصبة كبيرة تمنع الملكة ، وما اعداؤها الا اعداءك . فتردد الامير هنيهة ثم قال ، كلا يا كونت ، فاني لا اجيء الـى كاترين الا ومعي جيش . ولست ادري

متى استطيع اللحاق بدي شاتيلون ... فلنذهب اولا الى « مو » ولعلنا نجد فيها عددا كبيرا من اصدقائنا فنمضي بهم الى مساعدة الملكة . فهل تذهب معنا ؟

اجاب ، لا افارقك يا مولاي الا اذا اعطيتني بعض فرق من حملة البنادق لادافع بهم عن الملكة .

قال ، تعال وعسى ان اتمكن غدا من اجابة طلبك . واستمر الامير ورجاله سائرين في طريق (مو) وترولوس في طليعتهم يقول ، الا يفوت الوقت غدا ؟

الفصل الثامن والعشرون

(احد الشعانين)

وازدادت حركة الباريسيين في اليوم التالي لانهم علموا بوصول ملك النافار واجتماعه بالدوق اجتماعا كان الغرض منه الدفاع عن المذهب الكاثوليكي . ولم يكتف ملك النافار بذلك بل جاء بدليل آخر على صدق ايمانه ، فحضر الصلاة في كنيسة نوتردام على مرأى من الجميع ، وهتف له الجمهور كما هتفوا للدوق ولمونمورانسي هتافا متواصلا ودعوهم « نصراء الدين واصدقاء الملك الحقيقيين » .

وفيما كانت باريس مسترسلة في هذه الاحتفالات كانت كاترين دي مدسيس منفردة في حجرتها تبكي بالقرب من نافذتها وعيناها محملقتان الى طريق العاصمة ، مصغية الى وقع الحوافر ، تسأل نفسها عما عسى ان يكون كل قادم ، وتقول ، اكوندة ام جيز ؟ وكانت خائفة من آل جيز لانهم اسرة منها كثيرون من رجال الدولة ، وفيها القواد البواسل وذوو المطامع والآمال البعيدة ، ولذلك كانت تنتظر قدوم امير كوندا بذاهب الصبر لان ذلك الامير كان شجاعا كريما محبوبا من البروتستانتيين حبا يفوق الوصف، وهو ذو مطامع ككل آل جيز ، لكنه شديد الوفاء والولاء للبيت المالك ، ولا يكيد لاسرة فالوي . وفيما هي ممتعضة حزينة النفس سمعت وقع

حوافر خيل عديدة ، فاخذت تلثم ولدها شارل التاسع وتقول ، أسأل الله ان يكون القادم امير كوندا . تالله لاشيدن معبدا للعذراء يكون اجمل المعابد !.. ودنا الصوت فاطبقت عينيها وهي تقول ، من لي بك يا ترولوس ؟

وما كادت تنتهي من هذه الكلمات حتى دخل الحاجب يقول ، بالباب ملك النافار ، والمسيو دي مونمورانسي ، والدوق دي جيز . ففتحت عينيها فابصرت الثلاثة قد صاروا امامها ، وسمعت ضجة الجند الذين جاؤوا معهم . وكان هؤلاء الثلاثة قد دخلوا فجأة كانهم ينوون اهانة والدة الملك ، الا انهم وقفوا متهيبين خاشعين لانهم رأوا انفسهم تجاه امرأة حسناء ضعيفة . وخجل دي مونمورانسي كما خجل الكردينال دي بوربون لتهجمهم على والدة واولادها ، فكان سكوت طويل المدة ، ثم قالت كاترين ، ماذا تريدون !

فاجابها الدوق بخشونة ، اننا اتينا ايتها السيدة طالبين اليك الاياب معنا الى باريس . فارتعدت كاترين لان دخولها مدينة كاثوليكية مما يشق عليها بعدما قضت عاما كاملا وهي تدافع عن البروتستانتيين جهرا ، وهي التي بذلت مجهودها لانقاذ امير كوندا من حكم الاعدام ، والباريسيون كانوا قد تهددوه بالقتل اذا لم يرتحل عن مدينتهم . وكاترين لم تكن تحفل بالمذاهب الدينية ، وانما تحب السلطة حبا كالجنون . ومعنى ايابها الى باريس استسلامها الى اعدائها ، واولهم ملك النافار ، وكانت قد هزأت به ، ثم مونمورانسي وكانت قد ناقشته الحساب عن شئون منصبه ، ففرنسوا دي جيز ، وكانت قد طردته من البلاط قبلا . فنظرت بكبر الى الرجال الثلاثة واجابتهم قائلة ، لا ادخل باريس ابدا !

فاضطربوا من هذا الجواب لانهم كانوا يتوقعون منها مراوغة ومماطلة

لا عزيمة ثابتة ، فقال لها الدوق ، اذن اين يكون مقرك ايتها السيدة ، ولا حاشية لك ، ولا جيش ، ولا حراس ؟

فاجابته ، سأذهب الى حيث اجد اصدقاء مخلصين للملك .

قال ، لعلك ترومين ان تجدي امير كوندا ؟

قالت ، لا ينبغي ان اخبرك بشيء من ذلك . ولكن ، يا للعجب منكم ، اهكذا تدخلون على مليككم ؟ انظر يا ولدي شارل الى هؤلاء الرجال الثلاثة المدججين بالسلاح ، فقد تجرأوا على مخاطبة والدتك وقبعاتهم على رؤوسهم ، وقد اتوا الى هنا مستصحبين جيشا حقيقيا ، متهددين ، متوعدين ، آمرين ناهين . ولعلك تحسبهم غرباء او اعداء ؟ كلا . فاحدهم اسمه انطوان دي بوربون وهو عمك ، والآخر اسمه دي مونمورانسي وهو قائد جيوش المملكة الفرنساوية ، اعني الرجل الذي يجب عليه ان يكون اشد الناس اخلاصا لك ، لانه اقسم بشرفه على ذلك ، واما هذا الآخر فهو فرنسوا دي جيز خادم ابيك وهو الذي استخلص مدينة عاليه من ايدي الانكليز ، ومدينة ثيونفيل من ايدي الاسبانيين ، فتذكر يا شارل ان هذا الرجل جاء الى هنا وأهانك ، لان الرجلين الآخرين لا يحسبان شيئا مذكورا بالقياس اليه ، بل هما كالعوبة بين يديه . الا فاذكر ما اقوله لك يا شارل ، ان هذا الرجل الد عدو لك ولاسرتك !.. والآن ايها السادة اذهبوا من هنا وولدي هذا قوي الذاكرة فلن ينسى احدا منكم !

فلم يدر مونمورانسي وانطوان دي بوربون بماذا يجاوبان ، غير ان الدوق دي جيز كان اقساهم قلبا واربطهم جأشا ففكر في وسيلة يتخذها لاقناع الملكة . وجعلت كاترين تنظر من النافذة الى البرية راجية مساعدة من كوندا وهي تغمغم وتقول ، ترولوس ، ترولوس ، لماذا لا تجيء ؟!

ولم يكن حول القصر الا جيش الدوق دي جيز مستعدا للحرب

والتضال • واذا بها قد احست بأنهم ينتزعون يد ولدها شارل من يدها فصرخت صرخة عالية ، وانثنت فابصرته يمتنع عن الدوق دي جيز ؛ وقد ابعده عنها ، فنهضت •

فقال الدوق ، سواء لبثت في مكانك او اتيت معنا فاننا لا نتخلى عن الملك ، ولا بد لنا منه • قالت أتتجرأ !••

قال ، لست بالسيدة الآمرة الا اذا شئت المسير معنا ، او الاعتزال في احد القصور • ولا بد لنا من اخذ الملك واخوته • فامتقع لونها كمدا ؛ وهمت بشتمهم الا انها رأت السكوت ، وقد شعرت بالغلبة • وكان ابنها يبكي فاسترسلت ايضا في البكاء • فجعل الرجال الثلاثة ينظرون اليهما صامتين الى ان قال لها الدوق ، كيف ترين ؟

فاجابته برقة ، اني متأهبة للذهاب معكم • فامر الدوق بالرحيل ، وللحال سار القوم عائدين الى باريس ومعهم الملكة الوالدة والملك اسيرين ، وكانا يبكيان • فقال الدوق دي جيز ، ان المصلحة العامة تظل مصلحة عامة سواء ادركت بالرفق او بالعنف •

ووصلوا عند المساء الى ملون ، فباتت الملكة وابنها في قصر هناك لم يسكنه منذ اكثر من مائة عام الا السجناء •

الا ان ترولوس ، بالرغم عن مراقبة الحراس وطوافهم حول موضع الملكة ، تمكن من الوصول اليها عند منتصف الليل ، فضرب باب مخدعها فنهضت وفتحته ، فلما رأى آثار الدموع على وجهها لم يتمالك ان زفر زفرة كادت تخنقه وقال ، يا لله من هذه الحال التي صرت اليها يا سيدتي •

قالت ، ماذا جرى لكوندا ؟

اجاب ، واأسفاه ان الفرسان البروتستانتيين بدأوا يتوافدون الى (مو)

وبعد يومين يمشي الامير في طليعتهم ويحضر للدفاع عنك .. وقــد رأيت من جاليو همة كبيرة .

قالت : واحسرتاه لقد ضاعت سلطتي بتأخير يومين !...

قــال : لا شيء يعزيني عما حل بك يا سيــدتي ، اما الان فلا اريــد مفارقتك ، لاني اخشى ان يحاول هؤلاء الانذال اهانتك !

قالت ، كلا يا ترولوس ، فلا بد من ذهابك ! فعد الى الامير وقــل له انني سجينة مع الملك ، وقل له ان يبذل جهده لانقاذي ، ثم تسعى لملاقاتي في الموضع الذي اساق اليه . ولقد خانني الكل ، واني محتاجة اليــك ، فاذهب ايها الحبيب !

فاجابها : اني طوع امرك ايتها الملكة ! وبعد هنيهة سار في طريق «مو» آملا ان يلحق بأمير كوندا . وكان الامير قد ترك ذلك الموضع ليقترب الى اورليان ويشرع في الاتفاق على العمل مع الاميرال دي كوليني . وهنــاك علم ان الكاثوليك قبضوا على الملكة والملك . فكان ذلك فاتحة حرب ، ولم يبق بد من الدفاع . فوثب ترولوس الى طريق اورليان ، وكانت يومئــذ المدينة الثانية في المملكة فوصل اليها يوم استولى عليها دنديلو ، تجــل الاميرال . ولقــد استولى عليهــا من غير ان يسفــك قطرة دم ، اذ اقنع الاورليانيين بانه انما لجأ الى اورليان ليخدم الملك فيها . وبعد ايام اقبــل امير كوندا على المدينة فحاصرها واعلن ، بعدما تلقى رسالة ترولوس ، انه لا يجرد السلاح الا لمصلحة البلاد وانقاذ الملكة الوالدة والملك . وفي يــوم ١١ ابريل (نيسان) اجتمع اهل اورليان واعترفوا بأمير كوندا زعيما لهم ؛ لان اكثر سكان المدينة كانوا على مذهب البروتستانتيين . فوقعوا عــلى عقد تعهدوا فيه بالانقياد الى امير كوندا لانقاذ الملكة الوالدة وابنها الملك، واعادة الطمأنينة الى المملكة تحت حكم الملكة الوالدة . وكان جاليــو في

جملة الموقعين على ذلك العقد ، شافعا توقيعه بانه يظل كاثوليكي المذهب ، لانه لا يريد ان يرتد عن مذهب والديه ولكنه يقاتل دفاعا عن الامير ، والملك ، والوطن ، وعن الضعيف . ولقد رأى نفسه في اشد حاجة الى سيد عظيم يقيه شر المحامي اغنيل بعد حادثة فاسي ، لان جاليو ابقى مارسلين عنده مخبؤة في اورليان ، وكان ينفق عندها وقته عندما يخلو من خدمة الامير .

فلما كان يوم ١١ ابريل اقر مجلس باريس الامر المشهور « بأمر يناير » (كانون الثاني) وهو الذي يخول البروتستانتيين حرية العبادة والقيام بشؤونها . ثم ان الدوق دي جيز اكره الملكة على ان تسعى لاخضاع امير كوندا ، فانضمت الى الكاثوليكيين ، لانهم صاروا الحزب الاقوى ، دون ان تقطع مفاوضتها مع زعماء البروتستانتيين . ولقد كتبت رسائل عديدة ، جمعها الكونت هكتور دي لافربير في كتاب عنوانه « مراسلات كاترين دي مدسيس » وكلها مرسلة الى زعماء البروتستانتيين .

ولم تعلن الحرب بين الطائفتين ، الا ان المشاجرات كانت متوالية . وفي ذات يوم خرج مونمورانسي من باريس بجيوشه وتبعه جمهور من الناس فقصد موضعين لاجتماعات البروتستانت احدهما خارج باب سن جاك ، والاخر في موضع يقال له بابكور فاضرم النار فيهما واهلك كل المجتمعين للعبادة هناك من غير دعوى ولا مرافعة ، ثم عاد الى المدينة بين هتاف المتعصبين وصياح المتحمسين كأنه قادم من نصر مبين . وكذلك وقعت مذبحة كبيرة في « سانس » سقط فيها من البروتستانت قتلى لم يحصر عددهم . واستمرت المذبحة (او بالاحرى المجزرة الوحشية) اسبوعا كاملا .

وبعد ايام قلائل كان شارل التاسع يتنزه قرب قصر اللوفر عند ضفاف

السين مع والدته وآل جيز فابصروا جثة طافية على الماء ، وكان وجه الجثة متجها الى شارل التاسع فقال مرتعدا : ما هذا ؟

فاجابه ترولوس ، وكان مع الملكة : هذه جثة رجل مقتول في «سانس» ينظر اليك ايها الملك ويسألك عدلا .

فنظر الكردينال دي لورين شقيق الدوق دي جيز الى ترولوس نظرة غضب ، اما الدوق فقال ، ان هي الا جثة بهيم نجس [١] . ولكم من جثة كتلك الجثة الطاهرة كانت طافية على المياه او مطروحة في الطرق والسهول !

---

(١) هذه الجملة مقتبسة من كتاب تاريخي لكاستلنو دي موفيسيير (Michel de Castelnau) وهي تدل على شدة تعصب الكاثوليك في ذلك الزمن .

الفصل التاسع والعشرون

(الاستيلاء على روان)

لم يكن الذل الذي اصاب الملكة الوالدة الا وقتيا ، فانها بعد بضعة اسابيع استعادت شيئا من السلطة ، واخذت تفاوض سرا وجهرا معلنة انها كاثوليكية المذهب الا انها متجنبة معاداة زعماء البروتستانت ومؤكدة لامير دي كوندا ولاءها . وكانت تزعم انها بهذه السياسة توفق بين جميع ابناء المذاهب . والحقيقة ان الشقاق كان يشتد بين ابناء الوطن الواحد ، بتحريض رؤساء الدين الكاثوليكي ، حتى طلب كوندا وكوليني مساعدة الالمانيين ، واستنجد البروتستانت في نورومانديا بالانكليز على ان يسلموهم مدينة الهافر .

اما الدوق دي جيز ملك النافار فانهما طردا من « مدينة بورج » البروتستانتي مونغوميري ، فلجأ الى روان فحاصراها بجيش كبير وافتتحا قلعة فيها فاستبشرا بالنجاح والفوز ، الا ان مونغوميري اعد في البلدة كل خطة للدفاع ، فحصّن سائر مواقعها . ولكن حدثت حادثة غير منتظرة ساعدت الدوق دي جيز على فتح تلك المدينة بالسيف ..

وكان بين الاعداء الذين يرصدون حركات الدوق وسكناته ، بلترو دي ميرة ، ومادلين بنت « يعقوب لوم » الكتبي .

فان هذين المنحوسين ما برحا يتبعانه والحنق يوليهما هياجا شديـــدا ولا سيما مادلين ، فقد كانت تتلظى من ظمأها الى الانتقام . ولقـــد خطر مرارا لبلترو ان يطارحها الحب فقالت له بصوت خشن . لا غرض لي الآن من دنياي الا الانتقام العادل .

فجعل بلترو يده على غدارته وقال ، انني ابذل حياتي في سبيـــل قتل فرنسوا دي جيز .

الا ان الدوق كان يحدق به جماعة من الاشراف الذين لا يدعون بلترو وامثاله يصلون اليه ، فلم يخطر له الا ان يرقب الفرص ، ويداهم الـــدوق مداهمة . فلما تمشى جيش الدوق الى روان جاء ومادلين يستعلمـــان . وكان يقول لمادلين ، ان الدوق يخاطر بنفسه كثيرا ، وقد رأيته يتقدم الى اسوار المدينة . ويمكن تسديد المرمى اليه من وراء السور ، فان لم تتمكن من قتله على هذه الطريقة راقبناه حتى يستولي على المدينة ، وذلك امر لا تطول مدته ، ولا بد ان يترك الحذر وقت الظفر ، الا ويل لك يا فرنسوا دي جيز ، اني سابقى الصق لك من ظلك الى ان اراك مسددا عند قـــدمي مخضبا بدمك . ولئن قتلوني بعد ذلك فما ابالي لانني اكون قد انتقمـــت لنفسي ، ولابي مادلين ، وانفذت ارادة الله ، وانجزت وعدي للارنودي . ثم خفض صوته وقال ، واكون قاتل الرجل الذي اختطف مني حبيبتي .

وفي ذات صباح كان بلترو ومادلين يرصدان الـــدوق قرب الاسوار ويشهدان مصارع الرجال ، فشهدا حركة وسمعا قول قائل يقول ، لقـــد جرح جرحا بالغا . فقال آخر ، من الجريح ؟ قال ، هو ملك النافار !

وانتشر الخبر في المدينة المحصورة فأقبل جمهور نحو الاسوار ، وحمل الجنود الكاثوليكيون « انطوان دي بوربون » على محفة معدة للجرحى . وبادر الـــدوق دي جيز ليساعـــد الرجـــال على نقـــل الجريـــح فأبصره

البروتستانتيون من اعلى الاسوار ، وللحال انهال عليه رصاصهم .

فقالت مادلين لبلترو ، ما بالك لا تطلق انت النار عليه ؟

اجاب ، لا فائدة من ذلك فانه بعيد عن مرمى رصاصنا .

وكان فرنسوا دي جيز قد ابتعد فالتفت ونظر الى ناحية الاسوار فحانت منه التفاتة جعلته يرتعد لانه ابصر وجه مادلين وقد زادها لبس السواد حسنا . فاوصل ملك النافار الى خيمته ثم عقد مجلسا واقر وجوب الاستيلاء على البلد بالهجوم المباشر دون اكتفاء بالحصار .

فقالت الملكة الوالدة ، مهلا يا مسيو دي جيز فان الاستيلاء على المدينة بالهجوم عليها قد يكون السبب في تسليمها الى الجند يحرقونها ويذبحون سكانها .

فاجابها ، ثقي ايتها السيدة انه لا جندي من جنودي يحرق ويسلب . واني اقسم لك على ذلك .

واخذ يبسط الكلام في افضلية رأيه ، الا انه قبل اصدار الاوامر بالهجوم دعا اليه خادمه روسو ، وهو الرجل الذي كان رسوله في كل مراسلة غرامية ... وقد كافأه بان قلده زمام الحكومة في مدينة (بايو) فقال له ، ألم تطلب اليّ بالامس ان اسمح لك بزيادة الضرائب في مدينة بايو ؟

فاجابه ، لست انتظر غير صدور امرك الكريم لاعود الى حكومتي !

ـ لقد قيل لي انك تذبح البروتستانتيين ذبحا كثيرا .

ـ ذلك خير من تركهم ينغمسون في عبادتهم الخاطئة (؟؟) .

فضحك الدوق وقال ، اني اخوّلك الزيادة التي تطلبها ولكن بشرط واحد ...

ــ تكلم يا مولاي •

ــ ألم تر احد على الاسوار في هذا المساء ؟••

ــ نعم رأيت مادلين لوم !

ــ اننا هاجمون غدا على مدينة روان ، وليس من العدل ان يتمتع الجنود بمن يشتهون ويحرم قائدهم الاكبر •••

ــ فهمت يا مولاي •

قال الدوق ، وهل اعتمد عليك ؟

اجاب ، يعلم مولاي انني لا اضن بحياتي في خدمته • وفي اليوم التالي، بعد هجوم هائل ، استولى الكاثوليكيون على مدينة « روان » ولم يبق لها قلعة او وسيلة للدفاع الا حصونها المتداعية ، فتخطاها المهاجمون بعد ان اتسوا تهديمها • ويومئذ حدثت المذابح التي تقشعر منهسا الابدان ، وسفكت الدماء حتى سالت في كل مكان ، لان البروتستانتيين كانوا قد عقدوا النية على الدفاع في داخل المدينة ، وعلى ان لا يدعوا المهاجمين زقاقا او شارعا او بيتا الا بعد ان ينازعوهم عليه كل المنازعة ويقاتلوهم كل المقاتلة • فكانت النوافذ مملوءة بفوهات البنادق تطلق نيرانها على الجند، والسطوح عبارة عن مناجم حجارة يرشقون بها المهاجمين ، وكانوا يسمعون في بعض الاحيان دويا هائلا يدل على ان بعض البروتستانتيين قد نسفوا بيتا ليدفنوا تحت انقاضه المهاجمين من الكاثوليكيين • وانقضت ثلاثة ايام في قتل ونهب • اما مونغوميري فقد لجأ الى الفرار على قارب ، وكانت الملكة تبكي غيظا وقهرا وحزنا على مدينة غنية كانت من اكبر المدن التجارية وقد اصبحت خرابا • فبادرت الى الدوق دي جيز وقالت له ، اين اليمين التي حلفتها ؟ فاجابها ، لست اذكر يمينا ايتها السيدة• وهل تظنين انه يمكن ضبط جيش منتصر ؟ ان هؤلاء الجنود الذين تلومينهم ، لانهم يسلبون وينهبون معذورون ، لانهم لم يتناولوا مرتباتهم منذ استيلائهم على مدينة

بورج !..

فادركت كاترين ان كل وسيلة صالحة لا تجدي ، فانطلقت وزارت ملك النافار . وقد اراد دخول المدينة محمولا على محفته ، ولكنه مات وهو ينظر الى الآنسة « دي رويا » وهي فتاة كان يهواها هوى شديدا .

وفي ذلك المساء طاف الدوق دي جيز في المدينة التي استولى عليها ولم ير خادمه ، فقلق خوفا ان تكون مادلين قد فرت منه ، ورأى رجاله يسلبون ويفتكون ويغتصبون ، وقد اسكرهم النصر فكانوا يتغنون بأنشودة مؤداها « ان دماء البروتستانت واعراضهم حلال للكاثوليك » . والفاهم يحتفلون في كل مكان بذلك الظفر ، الا هو فانه لم يحتفل ، الى ان صادف خادمه فقال له ، ماذا فعلت منذ ثلاثة ايام ؟ قال ، اني كنت ابحث عن مادلين . قال ، ألم تجدها ؟ اجاب ، نعم ، ولكنها كانت تهرب مني على الدوام .

قال ، هل رأيتها وحدها ؟ اجاب ، لا ، ولكن معها رجل كأنه يتبعك ولا يترك مكانك الا عند خروجك ، ثم لا يمر الا في الشوارع التي تمر بها

قال ، ولماذا لم تقبض عليهما ؟ اجاب ، اظن ان ليس الغرض قتلهما ، فلو كان ذلك غرضنا لقتلناهما من عهد بعيد ، ولكنك تروم القبض على الفتاة حية لا ميتة ، ولذلك لم اتجرأ على اطلاق الرصاص على الرجل الذي معها خوفا من ان اصيبها هي .

قال الدوق وهو منزعج : تقول انها تتبعني ، فهل هي تعرف من انا ؟.. سوف اتحقق الامر ...

قال ، لنختبيء يا مولاي فانهما مقبلان .

اجاب ، لا فانني سألقاهما !

وكان بلترو ومادلين منزويين في شارع ضيق وهما تائقان الى الانتقام

وقد هاجمها منظر الدماء المهراقة منذ ثلاثة ايام . واتفق مرة ان الدوق كان على مرمى رصاصة منهما ، فهم بلترو بقتله ، لكنه احس بارتجاف يده فخاف ان يخطىء المرمى لشدة ارتجاف يديه بسبب احتدام نار بغضائه . اما في ذلك المساء فقد تماسك وتجلد وظن ان انتقامه قريب ، لانه لم يسر مع الدوق الا رجلا واحدا . اما الدوق فتقدم اليهما وسيفه مجرد في يده ، شأن من تعود ملاقاة الاهوال والاخطار . فسدد اليه بلترو بندقيته عازما على ان يطلقها عندما يصير الدوق قريبا ، وفيما هو يهم بذلك سمع صرخة وراءه ، فانثنى مرتاعا ورأى مادلين يحملها الرجال ، فحول الطلق الى اولئك الرجال فقتل واحدا منهم واختفى الباقون في زقاق مظلم ومعهم مادلين محمولة على الايدي ، فبادر اليهم الا ان الدوق ادركه وضربه بسيفه ضربة صرعته فارتمى على الارض .

وبعد هنيهة كانت مادلين سجينة في بيت خال والدوق امامها . فقال لها : ابلغ منك الجفاء هذا الحد فلم يعد الوصول اليك ممكنا الا بعد اطلاق النار واستخدام الجنود ، ولولا ان الدوق دي جيز استولى على روان لما استطعت ان اراك ...

وهو قد حاول مخادعتها بزعمه انه من ضباط الدوق دي جيز ولم يتعشق قط امرأة تعشقه لمادلين على كثرة مفاخرته باتخاذه عشيقات في كل مدينة فرنساوية . وقد انسته الدسائس والحروب ان والد تلك المنحوسة مات مقتولا بأمره . وكأنما نسيت مادلين ذلك ايضا ، لانها اصغت الى الدوق كل الاصغاء ، وكان يطارحها عبارات الهوى والوجد . وطفق يذكر لها علاقته السابقة ، وكيف كان يزورها صاعدا الى شرفة منزلها في ساحة اورليان ... ومضى كلامه الى ان مر سكير يغني بصوت عال ، فنبهها ذلك الى ما هي فيه ، فدفعت الدوق وابعدته عنها وهددته بخنجر ، فقال لها : ويلك هل جننت ؟

فاجابته ، كلا ما جننت يا دوق ، ولكنني تذكرت تلك الاقسام والقبلات الكاذبة . وكل ما فعله الضابط فرنسوا ، ثم تذكرت مصرع ابي !..فاصفر وجه الدوق فقالت ايضا ، الا تدري « يا دوق فرنسوا » ان قد كان لي والد ، وكان من اهل الفضل والصلاح ، وانني كنت احبه ؟..

قال ، لماذا تدعينني « الدوق » ان انا الا ضابط شريف .

قالت ، تبا لك من كاذب مخادع ، اما تفتأ تخدعني ؟ ان جلادك يا دوق قد فتك بأبي ظلما ، ثم دخلت اورليان في اليوم التالي ورجالك يحدقون بك ، كنت تجتاز الساحة التي مات فيها والدي ظلما فلم ترفع رأسك لتراني، الا انني رأيتك وقتئذ وعلمت ان الضابط فرنسوا الذي هويته ما كان الا الدوق دي جيز ، قاتل ابي ، فاقسمت في ذلك اليوم على الانتقام منك . فعيناي اليوم لا تذرفان دمعا ، ولكنك ترى اثر الدمع على وجنتي ، وما عشت حتى الساعة الا لانتقم منك . اذن فانت هالك ! وقد ابتعد عنك رجالك فلا يوجد ههنا احد سوانا ، واني قاتلتك بعدما نزعت سيفك وجعلته بعيدا عنك ، فاركع يا دوق ، واسأل الله لذنوبك غفرانا !

وفيما كانت مادلين تتكلم كان بصرها يطفح بغضا ، والجفاء ظاهر في صوتها ، فلما فرغت من كلامها همت بالهجوم على الدوق الا انها اصيبت وقتئذ برعشة عصبية فاضطرب بصرها ونظرت الى فرنسوا نظرة تائهة ، وافلتت خنجرها من يدها . اما الدوق فلم يشعر باقل خوف لان خادمه بقي في ذلك البيت . وكانت امامه مائدة عليها الصحون والشموع فلو هاجمته مادلين لاستطاع دفاعا عن نفسه . الا انه استشعر اسفا حقيقيا ، ورأى نفسه صغيرا امام تلك الفتاة ، ولكن ذلك لم يدم الا وقتا قصيرا فرشق مادلين بنظرة شرسة روّعتها وقهقرتها ثم سقطت على الارض مغمى عليها، فحملها فرنسوا ووضعها على كرسي ونادى خادمه وصب على صدغيها ماء باردا

ثم قال للخادم ، لقد تركت لك هذه المرأة التعسة ، فمتى افاقت اعطها هـــذا الكيس واطلق سراحها . وانطلق سريعا وهو يقول ، ما عادت تطيب لـــي عشرة هذه الحسناء !

اما خادم الدوق ، وكان يدعى جوبلو ، فانه تأمل مادلين واعجبه حسنها، ثم تأمل كيس النقود وآثر ان يجعله في جيبه بدلا من ان يضعه في جيــــب مادلين . وهكذا فعل . ثم حمل مادلين على كتفه وخرج من البيت ، فلقي بعض جنوده فقالوا له ، الى اين نمضي ؟ فاجابهم : انا مرتحلون عن روان. واذ ذاك عاود بلترو رشده ، لكنه لبث وقتا طويلا غير قادر على النهوض ، ونادى مادلين غير ذاكر لاول وهلة ما جرى . ثم صاح ، آه ، ويـــل لـــك يا فرنسوا دي جيز ، فقد كان في وسعك قتلي الا انك لم تفعل ، اذن فقد كتب لك الهلاك على يدي انا !

الفصل الثلاثون

(اخلاص ترولوس)

لما بلغ امير كوندا والاميرال خبر استيلاء ملك النافار والدوق دي‌جيز على مدينة روان حسبا ان مدة نهب هذه المدينة تدوم اياما ، وهو حساب لا خطأ فيه ، فعزمـا على انتهاز تلـك الفرصة ومحاولة الاستيـلاء على باريس . وقد انجدهما انديلو بسبعة آلاف جندي من المانيا . الا ان جيش الملك تلقى الخبر فعاد الى باريس ، اما كاترين فانتقلت الى فنسان مـع الحاشية ، وبقي دي جيز على زعامة جيش الملك مع نمورانسي . فلما رأى زعماء جيش البروتستانت ان الدوق تقدمهم ، وعلموا ان المخاطرة ربما تسوق الى ملاشاة مذهبهم ، حاولوا القتـال متقهقرين حتى يصلوا الـى نورماندي . فلما وصل امير كوندا الى قرية يقال لها « ارموي » لحق به الدوق دي جيز واظهر انه عازم على مقاتلته .

ومع ذلك فقد كان الارتبـاك سائدا بـين جيز ومـونمورانسي وسـن اندري ، لانهم عز عليهم ان يهاجموا اميرا من بيت الملك . وكـان زعمـاء الجيشين من بيت الملك . وكلا الزعيمين عم لشارل التاسع ملك فرنسا ، ولو لم يمت ملك النافار لكان الارتباك اشد ، لان ملك النافار وامير كونـدة اخوان ، وكل منهما يقود جيشا عدوا للآخر .

فلم يجد الدوق دي جيز ومونمورانسي وسن اندري بدا من ارسال رسول الى الملكة الوالدة ، اسمه ميشال دي كاستيلان ، يطلبون منها ان تصدر امرا مطلقا صريحا يقره مجلس الملك ويكون مؤداه مباشرة القتال .

وكانت كاترين منذ وصلت الى فنسان قلقة الخاطر ، وقد عظم مجد الدوق دي جيز لاستيلائه على مدينة روان ، فلو فاز فوزا جديدا لاصبح سيد فرنسا ومالكها . وهو منذ ذلك الحين قد اعاد اخاه الكردينال الى مكانه في المحكمة المخصوصة . ورأت كاترين ، وهي مرتعبة ، اياب هذا الرجل ، واشفقت ان يفوقها دهاء وقوة ، فلم يسترح فؤادها . ولا ارتاحت الى شيء سوى حبها لترولوس ، وقد استسلمت اليه شأن امرأة يئست من كل حب جديد . اما ترولوس فنسي الدنيا وما فيها بهوى كاترين ، وكان يحبها حبا صادقا طالما تمنت مثله في شبابها ، وهو حب مجرد عن الاغراض ، لان ترولوس لم يكن يحفل بلقب او ثروة او مجد . وكان يقول لها : لا مطمع لي في غير ما انا فيه ، ولا اشتهي الا ان ابقى قائد حراسك ، اي ان اعيش بقربك واموت لاجلك عند الحاجة .

ولقد ارسلته كاترين مرتين الى امير كوندا في طلب بعض الايضاحات فتعرض له رجال راموا قتله ونجا منهم ؟ فكتم ذلك عن كاترين . وكان يجهل ان الكردينال ادرك وجود علاقات سرية بين كاترين وكوندا ورام الحصول على برهان يؤكد وجود تلك العلاقات الخفية ، فأرسل اليه مرارا من يفتك به ويأخذ منه ما عسى ان يوجد معه من الرسائل . وكان يكفي امير كوندا ان يحصل على انذار يسير من كاترين ليحبط مساعي الدوق دي جيز ، وذلك ما اراد الكردينال منع وقوعه باية وسيلة .

ووصل ميشال دي كاستيلان رسول الدوق الى كاترين فسلمها رسائل زعماء الجيش الكاثوليكيين طالبا صدور امرها بمباشرة القتال . ولم يكن

من عادات كاترين ان تصدر امرا جليا او تكتب رسالة واضحة المعنى خالية من كل ابهام وتورية . فبدأت تقول ، انه من العار ان ينشب قتال بين فرنسا وبين ابناء امة واحدة ، وان مثل القائد مونمورانسي والدوق دي جيز والماريشال سن اندره في غنى عن رأي امرأة لم تجربها حوادث الزمان ورأي صبي قاصر ، وانها تأسف كثيرا ، لانها ترى شؤون المملكة قد صارت الى ذلك الحال .

وكان الرسول قد دخل حجرة الملك شارل التاسع مع كاترين . وكانت مربية الملك تلاطفه وتداعبه . فقالت لها الملكة ، ما رأيك ايتها المربية ، فهذا ، هو الزمن الذي تسأل فيه النساء ، عن آرائهن ، في مباشرة القتال ؟

فقبلت المربية الملك وقالت ، اذا لم يقنع البروتستانت ، ولم يذعنوا لاحكام العقل ، فلا بأس من مقاتلتهم .

وتفاوضوا وقتا طويلا ، وكان ميشال دي كاستيلان رسولا حاذقا فطنا فاستخدم دهاءه في الحصول على امر تكتبه الملكة لمباشرة القتال فلم يفلح . فاضطر الى العودة ناقلا الى الدوق دي جيز ومن معه كلمات كاترين ، اذ قالت له « قل لابناء عمي آل جيز وآل مونمورانسي انهم أسد رأيا واكثر خبرة مني » ! فصاح الثلاثة ، لعنة الله على الخائنة ! فلا بد من مباشرة القتال على رغم انفها !

وكان الكردينال شقيق الدوق دي جيز ، يعرف كذب كاترين ودهاءها فلم يتعجب من انها ابت اصدار امر جلي صريح ، ولم يشأ ان تلقى التبعة على عاتقه ، فتجنب لقاء الملكة عندما كان الرسول ميشال دي كاستيلان عندها . الا انه عمد الى مراقبتها حالما خرج ذلك الرسول من عندها ، فابصر ترولوس قد دخل مرارا ، واحس الكردينال بان لا بد للملكة في ذلك اليوم من مفاوضة امير كوندا ، فعوّل على المكث في مخبأه حتى الغد

مراقبا . وكان مخبأه حجرة مطلة على رواق يفضي منه الى مساكن الملكة . ومعلـوم ان الموقف حرج ، وان اقـل خيانـة من كاترين تحبط آمـال الكاثوليكيين اجمعين . فلما اظلم الليل اقبلت وصيفة ففتحت بـاب حجرة الملكة ونظرت الى الرواق ثم انثنت تقول ، لا يوجد احد يا مولاتي. فقالت كاترين ، اذهبي وقولي له ان يتأهب للسفر على جواده .

وسمع الكردينال وقع خطى الوصيفة وهي ذاهبة الى الطبقة الثانيـة من القصر ، فقال في نفسه ، هناك يقيم ترولوس ، وقد امرته كاترين بتحضير جواده للسفر . فعندها رسالة . ولست لاغفل عنها في هذه المرة ! وعندئذ مر ترولوس في الرواق قاصدا الى حجرة كاترين ، فلما خرج من عندها ترك الكردينال مخبـأه ورأى ترولوس ينزل الى فنـاء القصر ويركب جواده وينطلق . وقد تحققت كاترين ان جيش الملك عازم على القتال ، فـارادت انذار امير كوندا فكتبت اليه تقول له . اعلم يا ابن العم ان الـدوق دي جيز يهاجمك غدا دون امهال ، والماريشال سن اندري في طليعة الجيش ، فليكن اطلاق البنادق من هذه الناحية متواصلا شديدا . وسيكون معـه سبع عشرة فرقة من المشاة ، واربع عشرة فرقة من الاسبانيين واربعة عشر مدفعا . والمسيو دي مونمورانسي يتولى القيادة بثماني عشرة فرقة مـن السويسريين وست فرق من مشاة الفرنساويين وثماني مدافع ، اما الدوق فلا يريد ان يقود الا فرقته .

« فقاتل بجرأة حتى تتمكن من عقد الصلح كما تحب « كاترين »

فسار ترولوس بهذه الرسالة في طريق وعرة وثلج ديسمبر يكاد يسد الطرق . وكان الجو صافيا والقمر طالعا ، وللاشجار على الطريـق ظلال كثيفة ، وجواد ترولوس ينهب الارض . وفيما كان سائرا اطلقت عليـه ثلاث طلقات نارية ، فادرك ان وراءه من يتبعه ليقبض على رسالته . ولـم يصبه الرصاص ، وانما اصاب جواده فعطفه عليه ولاطفه . وكأن البهيـم

ادرك الغرض من تلك الملاطفة فأنّ من شدة الالم واحتدم ووثب وثبات متواليات • وسمع ترولوس وراءه وقع حوافر الخيل فعلم ان اخصامه عديدون • وقربت المسافة بينه وبين اللاحقين به ، فتناول ترولوس رسالة الملكة وجعلها في صدرته وقال ، اذا ادركوني ابتلعتها •

ومر به وقتئذ فارس متجه نحو المدينة ، فتأمله فاذا هو جاليو ، فقال له ، بحقك انقذني وانقذ الملكة ؟

ـ من اي خطر ؟••
ـ اليك هذه الرسالة فاوصلها الى الامير •
ـ معي رسالة مثلها الى الملكة من الامير •
ـ لا فائدة من رسالتك ، بل خذ رسالتي هذه وعجل •
ـ الا تسير معي ؟
ـ ان جوادي جريح ، فانطلق •
ـ اركب جوادي •
ـ كلا ، بل سافر انت • ان الوقت ثمين جدا وورائي فرسان يطاردونني •
ألا تسمع وقع الحوافر ؟
ـ بل خذ جوادي وانا ألبث ههنا •

قال ترولوس ، اناشدك الصداقة وهوى مرسلين واخلاصك للملكة يا جاليو ان تفعل ما اقوله لك • سافر ، فالوقت لا يزال يتسع لرحيلك• وسلم هذه الرسالة الى الامير قبل طلوع النهار •

اجاب ، اني اودعك ، فبلغ تحياتي الى من تحبها !

ورجع جاليو وهو مغموم • وكانت للطريق عطفة تتفرع في آخرها الى طريقين ، احدهما يؤدي الى النهر ، والآخر يوصل الى باريس • فتردد

جاليو في اختيار الطريق الاقرب وهي التي يجب ان يجتاز اليها النهر ، الا انه فكر في انه قد لا يجد قاربا ، فقال في نفسه ، اسير برا ، وقد يطول الوقت ولكنني اصل • واتجه الى طريق باريس •

وايقن ترولوس انه لا ينجو من اللاحقين به ، وانهم ولا شك قد رأوه يكلم فارسا آخر ، فلم ير بدا من منعهم عن اللحاق بجاليو • وادركه خصومه فهجموا عليه بحنق فوثب عن جواده وشهر غدارتيه وجعل سيفه بين اسنانه وقال ، ماذا تريدون ؟ قالوا ، سلم نفسك !

قال هيهات !

فاحاطوا به ، ونشب بينه وبينهم قتال هائل لانهم كانوا عشرين فارسا ، الا انهم لم يتمكنوا من القبض عليه الا بعد ان قتل ثمانية منهم • ولما دنا منه زعيمهم تفرس في وجهه فعرف انه الكردينال ، شقيق الدوق دي جيز • وقال في نفسه ، ما ارى ان جاليو قد سبقهم السبق الكافي • واستعد للمخادعة فقال بعظمة ، لماذا هجمتم علي ؟

قال الكردينال ، معك رسالة ، فهاتها •

ــ اي رسالة تعني ؟

ــ هي التي تحملها الى البروتستانتيين ، وانت بروتستانتي فيما اعلم • اجاب ، ليس معي رسالة • قال ، اذن تكون قد سلمتها الى ذلك الفارس الذي التقيت به منذ هنيهة ؟ اجاب ، ربما •

فالتفت الكردينال الى بعض رجاله وقال ، الحقوا بذلك الفارس • فابتعد الرجال الا ان احدهم رجع يقول ، يوجد يا مولاي طريقان فأيهما نسلك ؟

فقال الكردينال ، في اي طريق سار صديقك ؟

وكان ترولوس ينتظر هذا السؤال فتظاهر بالحياء والسذاجة وقال ،

انطلق سراحي اذا انبأتك ؟

اجاب ، اني اعدك بذلك .

قال ، انه سار في الطريق الايسر بعدما ركب قاربا الى الشاطىء الآخر .

فقال الكردينال ، هيا فانزلوا في السين ، اما اذا كنت كاذبا ايها الرجل فانك هالك .

فقال ترولوس في نفسه ، لا عجب اذا قتلني ، ولكنني اكون قد انقذت الملكة !

فوصل الرجال وضربوا باب كوخ نوتي هنالك فانفتحت نافذة، واشار رجل منها الى بندقية معه وقال ، ماذا تريدون ؟

قالوا ، اعد لنا زورقا .

اجاب ، لا زورق عندي في الليل وانما اعده في النهار فقط .

قالوا ، ولكنك منذ هنيهة انزلت في زورقك فارسا وفرسه .

اجاب ، كلا لم انزل احدا .

فحملق الكردينال بصره الى ترولوس وقال له تبا لك من خائن !

قال ، بل انت الخائن . قال : لقد تجرأت فكذبتني القول .

اجاب ، ربما .

قال ، لا شك انه سلك الطريق الايسر .

قال ، اذن اكون واهما ، وربما سلك الطريق الايمن . على انني اظن اللحاق به لا يفيدكم الآن فقد سبقكم سبقا كافيا .

تلفظ ترولسوس بهذه الكلمات بلهجة المستهزىء . فهاج هائج الكردينال ، وامر رجاله بالاياب الى القصر وان يساق الاسير الى حجرة واطئة معدة لتعذيب المسجونين . وكان الجلاد فيالار حاضرا فقال له ، خذ هذا الرجل واوثقه وعذبه حتى يتكلم .

فالقوا ترولوس على لوح طويل واوثقت يداه ورجلاه الى عجلات تدور على نفسها ، ثم انتظر الجلادان الامر ، فطلب الكردينال كاتبا لانه ابى ان يشهد العقوبة وحده ، فقيل له ان الكاتب قد سافر الى باريس ولا يرجع الا غدا .

قال انما احتاج الى موظف في المحاكم ليكتب اقرار السجين . فهاتوا الي المحامي افنيل .

وكان افنيل يود ان لا يشهد مثل هذه العقوبة لكنه لم يكن قادرا على عصيان الكردينال ، فنزل الى الحجرة الواطئة . ولم يلاحظ امرأة كانت تتبعه سرا . فلما رأى السجين صرخ مدهوشا ، فقال له الكردينال ، ماذا دهاك . اجاب . لا شيء . قال اتعرف هذا الرجل ؟ اتعرف اسراره ؟ فتردد افنيل هنيهة ثم قال ، هل قضى عليه بان يموت ؟ اجاب الكردينال ، بلا شك . قال ، اذن اكاشفك بامر يتعلق به لكنني اخاف انتقامه . وخفض صوته وقال ، واخاف انتقام الملكة .

قال ، هات ما عندك يا افنيل .

اجاب ، لا اتكلم امام هؤلاء الحضور .

واجتذبه ناحية ثم قال ، أتذكر يا مولاي ليلة مرت بنا في فونتنبلو ؟

اجاب ، اتعني الليلة التي دخل القصر فيها رجلان من احدى النوافذ ؟

ـــ نعم يا مولاي ، وقد عرفت الرجلين .

ـــ ولماذا لم تنبئني عنهما ؟

اجاب ، لخوفي من الملكة كاترين ، فانها كانت تنتظر الرجلين قرب النافذة ، وهي التي امرت بان يلقى اليهما سلم الحبال .

قال الكردينال ، لقد حزرت ذلك ... وماذا جرى بعده ؟

اجاب ، ان الملكة امرتني بتناسي ما رأيت .

قال ، ومن الرجلان ؟..

اجاب ، احدهما سيموت بيدي عندما القاه . وقال الكردينال ، والاخر؟

اجاب ، هو سجينك الليلة . فان الملكة اقتادتهما في تلك الليلة معا الى دهليز خفي ، وتذكر ان المسيو دي مزغونة كان من حراس الملكة في اليوم التالي .

وكان الكردينال قد خامره ارتياب في كل ذلك لكنه لم يجد اقل برهان عليه فقال للمحامي . اصغ الي ان كان يهمك الانتقام من الرجل الاخر ، فنحن واخي نساعدك ، وانا اعرف من تعني ، فهو شجاع باسل وانت وحدك لا تقوى عليه ولا يمكن ان تظفر به . ولكن اذا ساعدناك فانما نفعل بشرط واحد .

ـ ما هو ؟

ـ ان الملكة ألد اعداء مذهبنا فلا بد لنا من اضعافها . فعليك ان تدون ما قلته لي ...

ـ انك تعرضني لانتقام الملكة .

ـ لا بد من ذلك . وهي لا تجسر على الانتقام منك ما دمت من اتباعنا وذوينا .

ـ اني اعدك بما تروم .

ـ والآن عليك ان تكتب اقرار هذا الخائن . ولما رجع الرجلان الى الحجرة الواطئة كانت المرأة التي تبعت المحامي تزفر زفرات حرى وهي مختبئة في ساحة السلم وقد سمعت المحادثة . وكانت هذه المرأة ، وهي الملكة كاترين ، تبكي غرامها الضائع ، وحبيبها الوحيد ، ومطامعها الذاهبة .

ثم تجلدت تجلدا غريبا ودخلت الحجرة وقصدت الى الكردينال فقالت له ، ما معنى هذا ؟

اجاب ، معناه ايتها السيدة ان بيننا جاسوسا يحمل الرسائل الى الامير ...

قالت ، وممن تلك الرسائل ؟..

قال ، لعلك ادرى بها منا ؟

قالت ، واي برهان لديك على ان هذا الرجل جاسوس ؟

اجاب ، ان الشريف المخلص ايتها السيدة لا يفر ولا يرتحل عن القصر ليلا قبيل معركة . فالمسيو دي مزغونة اذا خائن .

وقد بدأ الجلاد بتعذيب ترولوس وكان ينظر الى الملكة في اثناء ذلك التعذيب نظرة وكأنه يقول لها « انا هالك ايتها الملكة ولا طاقة لك على انقاذي من الردى ، ولكن لا تخافي فقد بذلت نفسي فداءك » فتقدمت اليه كاترين وقد خطر لها وجوب تنجيته ولكنها لم تهتد الى طريقه لان تصرفه لم يكن مما يعذر عليه . فقد ترك خدمة القصر ليلا دون ان يتلقى امرا ، ولم يكن في وسع كاترين ان تقول انها هي التي امرته بالذهاب لئلا تفضح نفسها . فلم يكن بد من تركه يموت ، وهو الضابط الكريم الذي احبته حبا كالجنون واصبحت عاجزة عن انقاذه ... وفيما هي تنظر اليه انفتحت شفتاه وهمس بهذه الكلمات ، قال ، ان الرسالة مع جاليو ولم اقر بشيء ... وانا اهواك ... فوداعا !

فدنا الكردينال وقال ، ماذا يقول الشقي ؟

فاجابته ، لست ادري .

ومضت رافعة الرأس كبرا فلما خلت الى نفسها في مخدعها ترامت على

مقعد وبكت احر بكاء وهي تغمغم اسم ترولوس وتقول : لقد كنت تهواني ايها الحبيب هوى ذهب بحياتك ، لاني عجزت عن انقاذك . وبلاه ! لقد تسلط عليّ هذا الكردينال الذي يخيفني واصبح يعرف سري . يعرف انني انقذتك في فونتنبلو ، وغدا يكتب افنيل المحامي اللئيم قصته ! ... فويل للشقي !..

ونهضت لساعتها فاجتازت الرواق حتى وصلت الى حجرة المحامي فدخلتها خفية واخرجت زجاجة صغيرة فسكبت منها سائلا اسود على الفراش ، وصبت قطرات منه في قدح ، وعلى المقاعد ، ورجعت الى غرفتها. فسمعت انات الالم من الحجرة الواطئة ، وكان الجلاد فيها يسحق عظام ترولوس المسكين . الا انه ظل صامتا لا يتكلم .

والكردينال يقول له ، كانت معك رسالة : فيجيبه ربما . فيقول له ، ماذا فعلت بها ؟ فيجيبه ذلك لا يعنيك . فيقول ، هل اعطيتها للفارس الذي التقى بك ؟ فيجيبه نعم ، ولا . فيقول : من سلمك الرسالة ، فيجيب لم يسلمني اياها احد . فيقول ، الى اين كنت ذاهبا ؟ فيجيبه ، الى حيث لا تدري فدعني اموت ؛ اني خائن كما تدعي والسلام .. فيأمر الجلاد بتشديد عذابه . فلما فقد ترولوس رشده انثنى الكردينال الى المحامي افنيل فقال له ، اذهب واكتب القصة التي تعرفها ، ووقع عليها باسمك وغدا اطلبها منك .

ثم قصد الكردينال حجرة الملكة فألفاها جاثية تصلي ، فقال لها بحنق : اتصلين لاجل الخائن ؟ فاجابته ، ان المؤمن يصلي لاجل كل شيء .

وكفكفت كاترين عبراتها وعاودتها السكينة لان ترولوس قد مات فلا ينبغي ان يدري احد بما اصابها من ألم يمزق حشاشتها خصوصا لانها كانت ترتاع من الكردينال . الا ان الكردينال كان شقيق الدوق دي جيز وهو

القائد الذي يمكن ان ينتصر غدا فيصبح صاحب الكلمة العليا والنفوذ الاسمى كما وقع له مرة ، فرأت الاجدر بها ان لا تبدي شيئا مما يخامر نفسها . فقال الكردينال ، ان الرجل الـذي كنت تظللينه بحمايتك كـان خائنا ، ولقي عذاب الخائنين . وقد انبأت الناس بانه انما هلك بخيانتـه للملك واخلاله بما يوجبه عليه منصبه . اما انت فاني انبئك بانه لـم يلق العذاب والردى الا لانه كان يهواك . وقد سلمته رسالة الى امير كوندة .

فاتت كاترين بحركة تدل على نفي وانكار . فقال ، لا تخادعيني ايتها السيدة ، فلولا اطلاعي على الحقيقة لما تجرأت على مخاطبتك بهذا الكلام . والآن يجب عليك ان تنضمي الى حزب الكاثوليكيين باخلاص قلبونزاهة فكر ، والا اكرهتك على ما لا تحبين .

قالت ، أاهانة يا كردينال :

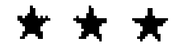
اجاب ، يحق لي ان اتهمك وانشر على رؤس الملا تصرفك ، واعلن انك اتخذت عشاقا .

فقالت بحدة : مهلا يا كردينال ، واعلم ان والدة الملك لم يكن لهـا ، ولا يكون لها الا عاشق واحد .

قال ، ما اسمه ؟..

اجابت ، اسمه عرش فرنسا ... فاخرج من هنا !...

وكأنما سحر بعظمتها فخرج وقصد الى حجرة المحامي افنيل .



وانقضى نهار ، وقد ساد على قصر فنسان سكوت وحزن شديد . وعلم الكل ان الجيشين يتقاتلان . ولكن لم يصل نبأ جديد الى القصر . امـا الكردينال فلم يكن قد رأى الملكة مرة ثانية فاخذ يتنزه في مسكنه رائحـا

جاثيا ، ناظرا الى نافذته ، مصغيا الى كل صوت ، وقد اعلن انه يهب مائة دينار لاول ساع يبشره بهزيمة البروتستانتيين . واما كاترين فانها لم تفارق مصلاها وهي تضرع الى الله ان يمكنها من آل جيز ويسلطها عليهم حتى ترغم انوفهم . واتجه فكرها بعد ذلك الى ذلك الحبيب الذي يعالج سكرة الموت في تلك الحجرة المظلمة . وهو لم يشته الا شيئا واحدا قبيل انصرام اجله ، هو رؤية الملكة . لكنه لم يجهل ان اعين الرقباء مبثوثة حولها ، وانها تشفق على عرضها ان يلم به كل طويل اللسان . وقدم بعض اشراف من باريس وقالوا ، ان الناس يجتمعون في الكنائس مبتهلين الى الله ، داعين للدوق دي جيز بالنصر .

وعند منتصف الليل قدم فارس ووقف بابواب القصر ونادى ، اني جئت بالانباء فافتحوا لي الباب . وكان ذلك الفارس جميل المنظر ، على ثيابه آثار الدماء وغدارتاه مسودتان من البارود ، وكل ظواهره تدل على انه كان من ابطال المعركة . فتواثب الخدم في البلاط اليه وهم يقولون ، لمن النصر ؟ أللبروتستانتيين ام للكاثوليكيين ؟ فاجابهم لقد انتصر الامير !

وسمع الكردينال هذه الكلمات فوثب غضوبا . واذ ذاك دخل الفارس على الملكة وطفق يحدثها بتفاصيل المعركة ووصائفها يسمعن . وانها كانت معركة هائلة فاز فيها الامير فوزا مبينا فسحق جيش اعدائه واستأسر مونمورانسي ، وكان « سن اندرة » من قتلى المعركة ...

ثم قال الرسول ، ان رحى القتال لا تزال دائرة ، الا ان الامير رغب اليّ في نقل البشرى اليك ، فاجبته الى طلبه وتخطيت صفوف الاعداء اليك ...

فصاح الجميع ، كيف تخطيت صفوف الاعداء ؟ ومن هم الاعداء ؟
قال ، هم جنود الكاثوليك !
قالوا ، أبروتستانتي انت ؟

اجاب ، كلا ، ولكنني من رجال الامير ، واسمي جاليو دي رساك .

ولقد تمنى الكاثوليكيون ان يهجموا عليه ويمزقوه اربا اربا ولكنهم لم يروا من الحكمة الاعتداء على ظافر ، فتركوه يتم كلامه ، فقال « لما رأى الامير انه الفائز في هذه الحرب قال لي ، تقدم ودس بحوافر فرسك جماجم القتلى ، واذهب الى فنسان فقل لابنة عمي الكريمة ان الله وهب لي النصر لخير المملكة » .

فصاح الرجال ، ويلاه كيف يكون مصيرنا ؟

فاجابتهم الملكة بلطف قائلة ، اي ضرر يصيبنا اذا سمعنا الوعظ بدلا من ان نسمع القداس ، وأي بأس نخشاه اذا صلينا الى الله بلغتنا المفهومة بدلا من ان نصلي اليه باللغة اللاتينية القديمة المجهولة ؟

فانصرف الرجال واهتم بعضهم بالتأهب للسفر خيفة ان يفاجئهم الامير . فبقي جاليو مع الملكة ثم قال لها وهو يتردد ، ماذا جرى لتروس ؟ قالت واأسفاه عليه !

وتبادرت الدموع على وجنتيها فقال جاليو ، هل مات ؟

اجابت ، بل يوشك ان يموت ، ان لم يكن قد مات فعلا . فتعال معي .

وتناولت مصباحا وسبقت جاليو الى الحجرة الواطئة التي كان فيها ترولوس يعالج سكرات الموت ، فنظر اليهما نظرة مملوءة حبا وولاء، فقال جاليو ، واحسرتاه عليك ايها الصديق ! وقالت كاترين ، واحسرتاه عليك ايها الحبيب !

وفيما كان نفس ترولوس يتردد في حلقة صاح جاليو اما من سبيل الى الانتقام ؟ قالت ، ان القتلة اقوياء .

قال ، لعلهم آل جيز .

اجابت ، نعم .

قال ، قاتلهم الله !..

★ ★ ★

ولكن ما طلع النهار حتى اقبل فرسان كاثوليكيون على فنسان ينقلون اليها بشرى هزيمة البروتستانتيين . فقيل لهم لقد جاء رسول قبلكم فانبأنا بموت سن اندري واسر مونمورانسي ، ونقل الينا خبر انهزامكم ...

وكان كل ذلك صحيحا ، لان الامير دي كوندا فاز في الاول ، ثم هجم الدوق دي جيز عليه بجيشه فتغير وجه المعركة وتقهقر البروتستانتيون وفر الاميرال ، ووقع امير دي كوندا اسيرا . وقال الفرسان ان الـدوق اسره واضجعه عنده في غرفته حتى يكون في مأمن من فراره . فعلا هتافالهاتفين للدوق دي جيز .

فسار الكردينال الى مخدع كاترين ليتلقى منها الاوامر ، فلما وافاها بذلك النبأ بهتت ، الا انها تماسكت وقالت له ، دع المصلين يصلون فـي كنيسة نوتردام ، ويشكرون الله على النصر ، ولسوف اشهد الصلاة .

وسافر البلاط الى باريس مسترسلا في فرح عظيم ، وقد تناسى القوم جاليو وكان منصرفا الى الاهتمام بدفن صديقه « ترولوس كونـت دي مزغونة » . ولما وصل الى المقبرة لقي حفار القبور يحفر قبرا لميت لم يسر في جنازته احد ، فقال له ، من الذي تدفنه ههنا ؟ فاجابه ، لست ادري .

فقال لحفار اخر ، وانت الا تدري كذلك ؟

اجاب ، كلا ، ولكنني احسبه محاميا . فارتعد جاليو . فقال الرجل ، ويقال انه مات موتا فجائيا في الليلة البارحة .

قال ، الا تذكر اسمه ؟

اجاب ، كلا ، ولكن اقرأ انت اسمه على هذه الالواح ، فانني لا احسن القراءة . فاقبل جاليو على الواح النعش فقرأ ما صورته :

« المحامي برنار افنيل ، محام لدى مجلس نواب باريس » .

فقال جاليو ، وهل عرف سبب وفاته ؟ اجاب الحفار ، ان الطبيب لم يتمكن من ذكر السبب ... وانما كانت الجثة سوداء ... فرجع جاليو الى القصر وهو يقول ، وارحمتاه لك يا ترولوس فقد قضيت فداء عن الملكة ... وانما انت ايها المحامي المرذول فقد قضت عليك الملكة !.. لقد برح الخفاء الان . وما احسب استاذي برنابا الا على صواب ، لان ظاهر هذه الدسائس سار وخافيها محزن مظلم . وبكى بكاء شديدا .

الفصل الواحد والثلاثون

(خادم الدوق او حاكم بايو)

كانت نتائج معركة « درو » Dreux مشؤومة على كاترين ، ولم ينتصر الدوق دي جيز فقط بل غدا السيد الوحيد بلا منازع بعدما هلك سن اندري ووقع مونمورانسي اسيرا عند البروتستانتيين . وبات الدوق دي جيز ملك فرنسا ، فقصد الى رامبوليه ليقص خبر المعركة على شارل التاسع . ولم تطل مدة اقامته فيها ، بل أسرع عائدا الى جيشه ليطارد الاميرال ، رفيق امير كوندا في تلك الحرب . اما مونمورانسي فقد ذهبوا به الى اورليان واسكنوه عند ابنة اخيه زوجة امير كوندا . واما امير كوندا فقد حبس في قصر اوبزين .

اما الاميرال ، وقد قلنا انه فر من امام الدوق دي جيز ، فقد سار فاستولى على مواقع حربية في سنتونج وبيري . فطارده الدوق دي جيز وعاد عنه بعدما فنيت بقية جيشه . ثم اتجه الى نورماندي وكان الفائز فيها ، واستولى على مدينة قاين التي دخلها جنوده من ثغرة صغيرة . وتوالت انتصاراته في نورماندي ، فعزم على محاصرة سائر مدنها والتربص فيها الى حلول فصل الربيع . وكان بين أحسن ضباط الاميرال ،

بلترودي ميرا ، عاشق مادلين ، فقد اتخذ مهنة الجاسوسية ، فكان يتجسس للجيش ، وقد كان من أشجع الفرسان وأثبتهم في مواقف النضال • ولطالما قال له الاميرال ، انت يا بلترو قليل الفطنة ، كثير المخاطرة بنفسك ، فكان يجيبه بقوله ، سأموت قريبا ولكن بغير مقاتلة العدو •

ويعلم القراء ان الدوق دي جيز صرع بلترو بتلك الضربة ، وغادره في مدينة روان أقرب الى الموت من الحياة • فآواه البروتستانتيون وشفي على مهل • ولم يبح لاحد باسم الرجل الذي ضربه ، وانما كان يديم التفكير في الانتقام من الدوق ، وفي مادلين • ولم يدع موضعا في روان الا دخله باحثا عنها دون ان يكتشف مقرهـا • وبعد طول الاستعلام قيل له ، ان رجالا ، وصفوهم له فعلم انهم يشبهون الرجال الذين أبصرهم يحملون مادلين على أيديهم ، خرجوا صباح يوم من مدينة روان يحملون امرأةعلى على جواد أحدهم •

وفي اليوم الذي تلا سقوط قابين أمر الاميرال بمداهمة مدينة بايو ، فتقدم بلترو ليصحب بريكفيل ، وهو القائد المأمور بالهجوم على المدينة• فقال له الاميرال ، خذ بلترو وكن واثقا به كل الوثوق فقد رأينا من خدمته ما يقلّ بجنبه كل ثقة •

ولم يكن الضباط يحسبون بلترو نظيرا لهم ، وذلك لان الفرنساويين كانوا وما زالوا حتى اليوم ينفرون من الجواسيس ، فرضي بريكفيل بصحبة بلترو على ان يسبقه الى اسوار المدينة • ومدينة بايو المدينة الوحيدة التي لم يزرها بلترو •

فوصل اليها في اليوم التالي عند اقفال الابواب ، ودخلها متنكرا بثوب قروي • وللحال تبين له ان السكان في غم وقلق لانهم ، ومعظمهم

بروتستانتيون ، قد ألجئوا الى سماع القداس واعتناق المذهب الكاثوليكي في الظاهر .

ونزل بلترو في فندق ، فلما كان المساء تمدد على كرسيه وأطبق عينيه كأنه نائم ، فسمع رجالا في الفندق يتحدثون .

قالت زوجة صاحب الفندق ، خافضة صوتها ، أظن الرجل الغريب نائما . فأجابها الحضور ، نعم انه نائم ، ولا مانع من الكلام ، فما وراءك ؟ أجابت : أنباء كثيرة .

وقال قائل : ما هي ؟

قالت : لقد طفت المدينة سحابة نهاري ولا حديث للناس في مجالسهم الا عن الضربة الجديدة التي يروم الحاكم ضربنا بها غدا . فقال أحدهم ، لعنة الله على الشقي !

قالت : ولكن كيف السبيل الى معاندته ومناوأته وهو الخصم والحكم . ولقد حاول موظفو الحكومة الاعتراض فاطلعهم على أمر موقع عليه من الدوق دي جيز !

قال : وما عسى ان يكون فحوى ذلك الامر ؟

أجابت : فحواه تخويل كل سلطة على مدينة « بايو » للايطالي جويلو روسو حاكمها .

وسمع بلترو هذه الكلمات فخامرته الشكوك فأنصت وقتا طويلا الى ما يقولون ، الا انه لم يجد علاقة بمادلين في كل ما سمع . وكان عملاء الفندق وصاحبه ينتقدون فظاظة حاكم المدينة ، ويدعون عليه ، ويذكرونه بكل سوء . فخطر لبلترو ان يستعلم منهم ، فتثاءب وتمطى كمن يستيقظ من نوم عميق ، وأخذ يلتفت الى ما حوله ثم قال ، لقد خيل لي انني سمعت اسم رجل ايطالي . فارتعد الحضور وخافوا ان يكون سامع كلامهم ذا

صلة بالحاكم • وتفقدأحدهم خنجره ثم قال ، لعلك من اصدقاء الحاكم ؟

فاجـاب ، يستحيل أن أكون من اصدقائه لانـه كاثوليكي ولانني بروتستانتي • فتلقى القوم هذه الكلمات بالقبول • فقال بلترو ايضا : نعم انا بروتستانتي ، وأظنكم كنتم تقولون ان حاكم مدينتكم رجل ايطالي • قالوا نعم ، واسمه جويليو روسو

قال ، هل ارسله الدوق دي جيز ؟

اجابوا ، نعم وكان خادمه ووسيطه السافل من قبل ، وخدمسه ثـلاث سنين ، فكافأه على خدماته السافلة بان قلده منصب حاكم على مدينة بايو •

قال ، هل كان يصحب الدوق دي جيز وقت الحرب ؟

اجابوا ، نعم ايها الصديق ، ولكنه فارقه بعد حصار روان •

قال بلترو ، وهل وصل الى مدينة بايو منفردا ؟

اجاب صاحب الفندق ، كلا وانما كان يقود فتاة مسكينة لابسة ثيـابا سوداء • والظاهر ان الحزن كان متمكنا منها •

فكاد يفتضح بلترو امام القوم الا انـه تجلد • وقـد تحقق الان أن مادلين كانت في مدينة بايو بين يدي ذلك الايطالي فلا بد له من اختطافها منه • ولا سبيل الى نيل الارب الا بالاستيلاء سريعا على المدينـة • فلما رقد النازلون في الفندق ، خرج منه واتجه الى بيت الحاكم غير محاذر ان يصادفه العسس • فلما توسط المدينة لقي الاحتفالات فيها قائمة ، وسمع القـوم ينشدون أنشودة كاثوليكية ينذرون فيها البروتستانتيين بالويل والثبور •

فهاجه الغضب لسماعها لانه سمعها قبلا في مدينـة روان • ففكر في الهجوم على البيت وقتل الحاكم ، الا انه أشفق ان يُقتـل ويذهب دمه هدرا ولا يبقى من ينتقم من الدوق دي جيز • فابتعـد سائرا في الطرق

والاسواق مختبئا بظلال البيـوت حتى وصـل الى الاسوار ، واذا به قد أبصر رجلين من الحراس • وحسب بلترو ان جيش الاميرال لا بد ان يكون قد وصل الى « بايو » ، فلبث محتجبا في زاويـة حتى مر حارس وناداه الحارسان الآخران ، من هذا ؟ فأجـاب بقوله « خريستوس ومادلين » وهما كلمتان متفق على ان تكونا اشارة للمرور •

فقال احد الحراس : سر ! ولكن متى ترجع الينا ؟

أجاب : بعد ثلاث ساعات فقط •

قال الآخر : بئس الحال فان البرد شديد في هذه الليلة •

فمضى الحارس • وسمع بلترو هذه المحاورة فخرج من مخبأه وتقدم الى احد الحراس ، فقال له ، من القـادم ! فأجابـه بقوله ، خريستوس ومادلين • فقال ، سر بالسلامة •

فتقدم بلترو حتى دنا منه ودفعـه بشدة فانقلب في خنـدق السور • فبادره حارس آخر وقد سمع صوت الوقعة فقال ، ما هذا ، فأجابه لست أدري ايها الصديق ، فقد كان رفيقك هذا يترنح ، ولعله سقط في الخندق • فبُهت لكنـه ما لبث ان سأل بلترو قائلا ، وما شأنـك والوصول الى السور ؟ قال ، أنا ؟

أجاب : نعم أنت ، فان سكان بايو ينامون كلهم في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل •

أجاب : اني صديق للحاكم ، ولست من سكان هذه المدينة •

قال : أتعرف كلمة المرور ؟

أجاب : طبعا وهي خريستوس ومادلين •

فسكت الحارس ، ثم ان بلترو قال له ، ما رأيك اذا نزلنا الى الخندق وأسعفنا المسكين ؟ أجاب : اني أود ذلك • قال : كيف السبيل اليه ؟

قال : اتبعني ، فهناك في السور بعض حجـارة تشبه السلـم ويمكن النزول عليها • وويل لنا اذا دري البروتستانتيون بها !

فنزل الرجلان الى الخندق على الحجارة • ولقد صدق الجندي بقوله انها تشبه السلم • فلما اقتربا الى الموضع الذي وقع فيه الحارس الاول رفع بلترو يده فضرب الحارس الثاني فخر صريعا بجانب رفيقه • ثم سار الى خارج المدينة •

وقد أصاب في ما خطر له • لان البروتستانتيين وصلوا في تلك الليلة ، واختبأوا منتظرين طلوع النهار حتى يوافيهم بلترو بالايضاحات التي لا بد لهم منها لمفاجأة المدينة بالهجوم • فقـال له بريكفيل قائد الحملة : ماذا جرى ؟

فأجابه بلترو : هيـا بنا فانا قادرون على دخول المدينة في هذه الليلة ، ولكنني قبل كل شيء أتمنى عليك حاجة • قال : ما هي ؟
أجاب : هي ان تدعني آتولى قيادة الفرقة •

وتحرك البروتستانتيون ، وكان بلترو في مقدمتهم • فما لبثوا حتى وصلوا الى أسفل الاسوار وأنزلهم بلترو الى الخندق فأراهم الحارسين القتيلين ثم قال ، يمكننا الصعود من هنا • والحراس لا يأتـون الى هنا الا بعد ساعة ، وأمامنا سلم حقيقي من هذه الحجارة المهشمة • فتسلـق الجنود واحدا بعد واحد ، عاملين بايضاحات بلترو • وكانوا يختبئون في الناحية الاخرى من السور ، وهي الناحية التي يسهل عليهم النزول منها • وفرح قائد البروتستانتيين بهذا النجاح غير المأمول فكاد يردد قوله ، حقا ان بلترو هذا عجيب ! فهو يدخل كل مكان ، ويعرف كل شيء ••• ولقد صدق الاميرال •

وبعد هنيهة جاء مفتش الحراس فلم يجد هناك جنديا حارسا • فوقف

وصاح من أنت ؟ فأجابه بلترو ، صديق ! قال ، ما هي كلمة المرور ؟ فأجابه خريستوس ومادلين •

فاطمأن قلبه شيئا ، وتقدم الى ناحية البروتستانتيين وللحال أحدقوا به وقتلوه ، الا انه تمكن من اطلاق غدارة فهب الحراس جميعا ، وارتفعت الصيحات ، وبدأت المعركة •

★ ★ ★

ودام القتال ثلاثة ايام • وقاتل الحاكم ببسالة عجيبة • وثار سكان المدينة عليه الا ان جنوده كانوا يعلمون مقدار بغض السكان لهم فكانوا يقاتلون قتال اليائسين • وأخذ السكان يطاردونهم وهم يلجأون الى البيوت • هذا وبلترو في الطليعة غير هياب يقول ، لا أقف الا امام بيت الحاكم ! فقال له احد الضباط ، هل من سبب يحملك على عداوته ؟
أجاب : ربما • وبعد ثلاثة أيام اقتحمت امام جيش البروتستانت ساحة « بايو » وفيها اجتمع الجند الكاثوليكي للقتال الاخير •

فكان النضال مما لا يوصف بلسان ، بل كان مذبحة او عراك حيوانات ضارية • ولم يمض الا وقت قصير حتى خلت الساحة من الكاثوليكيين • ولما رأى سكان المدينة ان البروتستانتيين قد انتصروا ، اوصدوا أبواب بيوتهم في وجوه الكاثوليكيين وكانوا يصرعونهم أفواجا حيث ساروا • وأدرك بلترو غايته ، فوصل الى بيت الحاكم ودخله وتبعه الجند يجتاز الغرف عنوة ، وكأن البيت كان مهجورا • وكانت عبرات الحنق والكمد تسيل على وجنات بلترو ، لانه أشفق ان يكون جويلو قد لجأ الى الفرار • فلما لم يجد بلترو احدا في بيت الحاكم همّ بالانصراف وهو متردد ••• فجاءه البروتستانتيون بخدم المنزل وكانوا مختبئين في الطبقة السفلى من

البيت وهم يرتعدون جزعا ويسترحمون ، فقال لهم بلترو ، لكم الامان جميعا اذا اخبرتموني بمقر مولاكم • فاجابه احدهم : سمعا وطاعة ، ولا أظن عليكم بالانباء عن الحاكم لانه رجل لئيم لا يستحق الاخلاص • فقال بلترو تكلم • قال ، في جوار هذا البيت بيت لكاهن من اصدقاء الحاكم ، لجأ اليه وفيه تجدونه • فقال بلترو ، هل تقول حقا ؟

أجاب : وأزيدك علما بأنك لاتجد الحاكم هنالك وحده ! فاكتفى بلترو بهذه الكلمات ، وهجم على البيت المجاور فالتقى بالكاهن ، فجثا امامه وتوسل اليه ان يرحمه ولا يقتله ، فقال له بلترو ، بغيتنا الحاكم ، فأين هو؟ أجاب القسيس ، لا أدري •

قال : انه عندك • أجاب : كلا ، وان شئت فابحث عنه • وكان بلترو مستعجلا ، فصوّب غدارته الى رأس القسيس وقال له ، ارشدني الى مخبأ صديقك والا فأنت هالك !•

فامتقع لون القسيس ومد يده الى الجدار وقال بصوت منخفض ، انه هناك !

فتقدم بلترو الى الجدار ، وضربه بقبضة سيفه فسمع صرخة عالية وأنينا • فصاح برفاقه ، عليّ بالفؤوس والمعاول وأهدموا هذا الجدار • وبعد ساعة هدموا بعض الحجارة فأبصروا وراء الجدار مشهدا هائلا • •

***

ولقد حاول حاكم البلد حين رجوعه الى « بايو » مصحوبا بمادلين ان يتخذها خليلة فلم يلق منها الا الجفاء والسخط • وقد يئست من عودة بلترو ، وظنته قد قتل في مدينة روان ، غير أنها اعتصمت بسالتها عندما اقترب اليها جوبليو ، فنشب بينهما وبينه نضال عنيف ، وكانت تصده

وتهدده بقتل نفسها أمامه اذا استمر على ملاطفتها ومضايقتها • فلما تحقق هلاكه وأن كل فرار مستحيل ، غادر جنوده يدافعون عن نفوسهم ، واتجه الى منزل صديقه الكاهن ، فأمر بأن تبنى له غرفة ضيقة وراء الجدار ، ومدت أنابيب من رصاص لادخال النور والهواء اليها ، وحمل اليها خوانا وفراشا وكرسيين • وزادا يكفيه اسبوعين ، وشرابا • ثم استحضر مادلين الى تلك الغرفة فحملوها اليها وهي أقرب الى الموت منها الى الحياة • ثم ان صديقه سد الجدار عليه وعلى مادلين [1] • وخيّل لمادلين انها في حلم هائل لا في يقظة ، فكانت تحدق البصر في وجـه جويليو الدميم القاسي ، اما هو فكان مطمئن القلب فرحا بحيلته ، مستيقنا انه في ذلك الموضع آمن كل مخوفة وشر، فجعل يترنم بأنشودة الكاثوليكيين في ذلك العهد ومعناها « ان مال البروتستانتيين وأعراضهم حلال للمؤمنين الكاثوليكيين » ثم قال ، مهلا أيتها الحسناء ، فلا بد من ان تضحكي وتشربي معي وقد صرت لي ملكا ولا قدرة لك على مقاومتي •

قالت : أفٍ لك من شقي ، فانك تخيفني بشراستك وهمجيتك •

وقد تمكنت في ساعة نضال وعراك من الحصول على خنجر كان معه فقالت له ، أقسم لك على انني أقتل نفسي اذا اقتربت اليّ • فاستضحك وعاد فجلس قرب الخوان وشرب الخمر وهو يسمع دوي الرصاص • ثم علم ان رحى القتال دائرة في ساحة المدينـة تحت البيت • فتولى مادلين القلق وقالت ، لعل المقاتلين من البروتستانت ؟ واذا بها تسمع صيحـات متواليات ، وحركة السلاح قرب الجدار ، ثم الضربات تنهال على الجدار نفسه •

---

(١) وصف هذا الخبر مأخوذ عن مستندات تاريخية لا يمكن أن يتطرق شك في صحتها .

فنهض جويليو وقال ، ما على المضطر من حرج ، ولم يبق الا ان تحكم القوة بيني وبينك أيتها الحسناء . واذ ذاك سمع بلترو تلك الصرخة والانة لان جويليو حاكم البلد كان قد شرب كأسا أخيرة من الخمر ، وتقدم الى مادلين متوعدا شاهرا سيفه بيده . فأصاب بنصل سيفه يدها القابضة على الخنجر فأطبقت المسكينة عينيها ورفعت الخنجر فطعنت به صدرها . واذ ذاك وثب بلترو الى الغرفة الضيقة فرأى جثة مادلين . فهدر وزمجر ، ووثب على جويليو روسو فانتزع منه سيفه وأخذ يطعنه بخنجره حتى كاد يمزق أشلاءه . ولما أراد بريكفيل قائد الحملة لقاء بلترو ليشكره ويهنئه بحذقه وبسالته لم يجد له أثرا .

الفصل الثاني والثلاثون

(طلق ناري اخير)

وبعد انقضاء ايام على هذه الحــوادث ، وبينما كان الاميرال كوليني يتمشى في فسطاطه وقف بلترو امامــه وقال له ، أبشرك ايها الامــيرال بالاستيلاء على مدينة بايو . فأجابه ، قد عرفت ذلك ، وعرفت ايضا انك كنت من ابطال الوغى . ولكن ماذا دهاك ؟ فان صوتــك خشن وكأنك محموم ... فأجابه ، ليس بي الا عناء السير ...

قال ، اذن وجبت لك الراحة بعد العناء وقد قضيت الواجب المفروض حق قضائه واكثر . حرسك الله !!

قال ، شكرا لك يا سيدي الاميرال على هذه الكلمات الطيبة، ولكنني لست بحاجة الى الراحة .

قال اطلعني على ما تروم . فما حاجتك ؟

أجاب : حاجتي حملة جديدة ، وحاجتي روح رجل اختطفها .

قال ، اما الحملة الجديدة فليس هذا وقتها لان نورماندي قد سلمت الينا قيادها وانا انتظر حلول فصل الربيع لمباشرة القتال .

فلبث بلترو هنيهة وهو صامت ، ثم نظر الى الامـيرال نظرة مرعبـة وقال له ، أين مقر الدوق دي جيز الآن ؟

فأجابه ، لماذا تروم معرفة مقره ؟

قال ، لأرقبه .. أولستُ جاسوسا ؟

فأطرق الاميرال قبل ان يتكلم ، وأدرك ان بلترو يحاول أمرا يقـدم عليه بجرأته العادية فقال ، ان الدوق يحاصر الآن مدينة أورليان .

قال ، وهل تقوى تلك المدينة زمنا طويلا على احتمال الحصار ؟

أجاب ، كلا واأسفاه ، ويسوءني قرب سقوطها بين أيدي الكاثوليك.

ـ ألست في حاجة الى بعض ايضاحات عن الدوق ؟

ـ كيف لا ؟

ـ لا جواد عندي لاسافر الى أورليـان ، فهـل لك في ان تهب لي جوادا ؟

فحدق الاميرال في وجه بلترو ، ومضى ففتح خزانة فأخرج منها بعض دنانير وأعطاه اياها ، فقال ، شكرا لك يا سيدي . والشيء بالشيء يذكر ، فليس عندي غدارات ادفع بها عن نفسي لان غدارتي قد انفجرت عنـد الهجوم على بايو . فتناول الاميرال غدارته وسلمها الى بلترو . فقـال ، أشكر لك هذه العطية ايضا يا مولاي وسوف تتلقى اخبارا عن الـدوق دي جيز بعد ثمانية ايام اذا بقيتُ حيّا . تلفظ بهذه الجملة الاخيرة بلهجة جافية ، فارتاع الامـيرال وأمسك يده وتفرس في وجهه وقال ، ما أراك ذاهبا الى أورليان لمجرد التجسس والمراقبة ؟ قال ، لم هذا الكلام ؟

قال ، لان ما حاجتك بغدارتـي اذاً ، ولما تروم شراء جواد ، الا اذا كنتَ تبتغي قتل عدو ؟

أجاب ، ولكن ذلك لا يمنعني من التجسس .

قال ، اعلم يا بلترو انني لا احب القتل والاغتيال ، فأقسم لي على أنك لا تنوي بذهابك الى أورليان قتل الدوق دي جيز . فمد بلترو يده وقال، أقسم لك على انني ذاهب الى أورليان لمصلحة دياتنا المقدسة وخيرها ، ومضى ، وقد غادر الاميرال كثير التفكير .

***

أجل ، فقد كان الدوق دي جيز يحاصر مدينة أورليان وقد استولى على سوق من أسواقها ولبث فيه يهدد البروتستانتيين .

وأرسلت اليه الملكة الوالدة كتبا متوالية توسلت فيها اليه ان لا يفتح المدينة بالهجوم . الا ان الدوق كان يتوق الى تهو أمر تلك المدينة التي كانت تُعد عاصمة للبروتستانت ، فأجاب الملكة بقوله ، ان مجلس الملك ، عندما نشبت معركة درو بيني وبين أمير كوندة ، قد فوض الى قواد الجيش العمل بما يرونه ملائما لمصلحة البلاد ، فأنا أعمل بتفويض مجلس الملك .

وقصد الدوق دي جيز « بمجلس الملك » جواب الملكة يوم استشارها في مقاتلة أمير كوندا ، كما يذكر القراء .

ولم تستطع مدينة أورليان ثباتا طويلا لعدم وجود مهمات الدفاع الكافية . فأنبأ الدوق ضباطه بأنه سيهجم عليها يوم ١٨ فبراير (شباط) ثم قال لهم ، « ان الملكة الوالدة تروم منا اللحاق بالمسيو دي شاتيليون الى نورماندي ، ولسوف نذهب بعد ان نستولي على أورليان » .

وفيما كان الدوق يستعد للهجوم وافاه أحد رجاله بالسيد بلترو دي ميرة وقال له ، انه عرفه في عهد هنري الثاني ، وهو الآن يرجو ان يسمح له باعتناق المذهب الكاثوليكي .

فرضي الدوق دي جيز ان يجعل بلترو بين حراسه اعتمادا على توسط احد رجاله وكثرة اطرائه اياه . وكان تغيير المذاهب في ذلك العهد امرا مألوفا . فلزم بلترو الدوق ، وكان يرقبه ويرصد حركاته وسكناته ، فلم ينقض زمن قصير حتى عرف عاداته . ولقد أراد قتله قبل ان تسقط أورليان في ايدي الكاثوليك .

وكان كل شيء مهيئا للهجوم . ففي مساء يوم ١٧ فبراير (شباط) تفقد الدوق طلائعه وأوصى ضباطه بالتأهب للغد .

فعزم بلترو على قتل الدوق في تلك الليلة . فمر الى الناحية الاخرى من النهر حيثما كان يسكن الدوق وزوجته . وبينما كان يبحث عن مكان صالح للاختباء صادف شريفا من حاشية الدوق ، هو المسيو دي سرني ، وقد أتى ليخبر الدوق ان زوجها لاحق بها ، ولكنه يتأخر عن مسوعده المعتاد . فقال له بلترو ، الا ما أنبأتني يا سيدي عما اذا كان الدوق يمر الليلة بالنهر ؟

فأجابه دي سرني بسذاجة قال ، بعد ساعة او ساعتين . فلما غاب دي سرني ساق بلترو جواده الى صف من شجر الجوز كان يمر الدوق بها عندما يقصد الى مسكنه . اما جواد بلترو فقد اشتراه بالدنانير التي أعطاه ايها الاميرال . ثم انه صبر مستظلا بالاشجار ، قابضا على غدارتيه وهما اللتان اخذهما من الاميرال حتى أمسى المساء وامتد ستر الظلام وساد السكون على البرية . وكان المحاصرون والمحصورون ساهرين لا يأتون بحركة لئلا تنم على مقاصدهم .

هذا وبلترو يضطرم لجاجة ويرصد أقل حركة . واذا به يسمع وقع حوافر جواد . وأقبل الدوق منحنيا على رقبة جواده مفكرا في الخطة التي يتخذها غدا للهجوم على أعدائه .

واذا بطلقتين قد دوى صداهما ، وأصيب الدوق في كتفه فارتمى على ظهر جواده وهو يغمغم قائــلا ، كان ينبغي ان أتوقع ذلك من أعدائي ، ولكنني ما ظننتهم يجسرون ! وحاول تجريد سيفه الا انه فقد قواه ، فسار به جواده حتى مسكنه وفيه تلقته زوجته الدوقة باكية •

ولقد بذل الاطباء جهدهم فلم يجد الطب والدواء ، فمات الدوق بعــد ستة ايام مستغفرا من زوجته بعدما أقر لها بأنه لم يكن على الدوام زوجا صادقا • ثم قال ، انه لم يكن يتمنى الا ان يعيش بسلام مع جميع اعدائه ، ولم يباشر قتالا الا لمجرد خدمة ربه • واحتفلوا بجنازته احتفــالا يندر مثله ، ولبست عليه باريس ثياب الحداد اياما عديدة •

اما بلترو فانه ركب جواده بعد ان فعل فعلتــه فسار به يوما كاملا في السهول والجبال • ثم رقد حتى الصباح عند طاحون • فهجم عليه هنــاك بعض الجنود وأوثقوه دون ان يبدي أقل معارضة ، وساقوه الى باريس حيث صدر الحكم عليه بالاعدام •

اما الكاثوليك ، فقالوا انه من خــدم الشيطان ، واما البروتستانت فشهدوا بأنه من أولياء الله ، وذكروه في صلواتهم •

على انه أعدم في « ساحة جريف » وجرّته الخيل على مرأى جمهور غفير من سكان باريس ، كانوا يصفقون بأكفهم مبتهجين بعذابه وهلاكه الوحشي • ورفع الحصار عن أورليان ثاني يوم وفاة الدوق دي جيز •

الخلاصة

واستتب الامر للملكة الوالدة ، فأطلقت أمير كوندا من الاسر واستفكت مونمورانسي من البروتستانتيين ، ولم يكن ذلك بالامر العسير بعد موت الدوق دي جيز •

ثم ان كاترين عقدت صلحا في « امبواز » في اليوم التاسع عشر من شهر مارس (اذار) سنة ١٥٦٣ وأهم شرط من شروط ذلك الاتفاق ان للبروتستانت ان يقيموا شعائر دينهم ومذهبهم في كل مدينة ، الا باريس •

وفي اثناء التوقيع على عقد الصلح أقام جاليو لصديقه الوفي ترولوس قبرا ثم عكف على هوى حبيبته مارسلين أرملة المحامي افنيل •

اما استاذه برنابا فقد كد ذهنه في تصنيف سفر عن خمور فرنسا ، ولا سيما الصادرة من أقطارها الجنوبية •

واستراح أمير كوندا من عناء الحروب ، واهتم الاميرال صديقه بأن يوقع الامير دي كوندا وكاترين على عقد الصلح في القريب العاجل • وكان بعض أعيان الكاثوليك قد اتهمه بأنه أشار على بلترو بقتل الدوق ، فاحتج علانية على تلك التهمة الباطلة • اما الكردينال دي لورين ، شقيق الدوق دي جيز ، فتولى ادارة شؤون أسرته القديرة الكبيرة •

ثم ان جاليو طلب الى مارسلين الاقتران به فامتنعت بحجة ان والدته قد تأبى ، غير ان جاليو أخبر والدته ان مارسلين أنقذته من الموت، فقبلت. واقيمت لزواجهما حفلة جمعت الكاثوليك والبروتستانت ، فلما سار جاليو بعروسه قال لها ، واحسرتاه على صديقي ترولوس ، فلو كان حاضرا لتم سروري . فقالت مارسلين ، تناس أيها الحبيب تلك الاوقات ، وعسى ان لا يسفك الفرنساويون دماء الفرنساويين بعد اليوم ... ان الملكة كاترين تحب السلام ، ولا شك ان السلام سيدوم زمنا طويلا . فقال جاليو ، عسى ان يقدر الله ذلك ، ويدوم السلام .

كان ما ذكرناه في سنة ١٥٦٣ ولكن بعد تسعة اعوام ، وكان شارل التاسع قد جلس على عرش آبائه ، وقعت « مذبحة سن برتلماوس » وقد أمر بها الملك بعدما حرضته عليها والدته كاترين دي مدسيس وآل جيز في ليلة ٢٤ اغسطس (آب) سنة ١٥٧٢ .

وتعد تلك المذبحة أشد النوازل التي نزلت بفرنسا ، وقد دامت أياما ، ذبح فيها جمهور غفير من الرجال والنساء والاولاد والاطفال ، حتى تضرجت كل فرنسا بالدماء . ولم يكن من سبب في سفكها الا التعصب الديني الذميم دون سواه . وذبح في باريس زعماء البروتستانت ، ولم ينج أمير كوندا من تلك المذبحة الا بانكار مذهبه . وقتل فيها كوليني وغيره من الزعماء المشهورين .

وقامت يومئذ مجزرة في قصر اللوفر منذ الساعة الخامسة صباحا والبروتستانتيون نيام . فوجئوا مفاجأة وهم في مخادعهم ، بعد ليلة قضوها مع الملك يشاطرونه فيها مسرة اللهو واللعب . فانتزعت منهم أسلحتهم ، وحزّت أعناقهم حزا كأنهم أغنام . وقيل ان شارل التاسع كان ينظر الى تقتيلهم من نافذة القصر . ومما لا شك فيه ان اولئك المساكين الذين قتلوا

بسبب التعصب الوحشي كانوا أشجع رجال فرنسا وأحذق قوادها وزهرتها ، ونخبة المصلحين فيها ! ومات شارل التاسع ملك فرنسا سنة ١٥٧٤ وهو يعض أصابعه حسرة وتندما على ما حصل •

فقاتل الله التعصب ، انه كان ، وما برح ، آفة كل اصلاح ، وعدو كل صلاح وفلاح •

ـ انتهت ـ